أبي العلاء المعري

رسائل

رسالة الغفران

تحقيق

جيرديان فان جيلدر

غريغور شولر

©

حقوق النَّشر والتَّوزيع محفوظة.

رسالة الغفران

تحقيق.: جيرديان فان جيلدر

غريغور شولر

النَّاشر.: المكتبة العربية

للمزيد من الكتب والدراسات الخاصة بفكر المعري

يرجى زيارة موقع ناجون الالكتروني

www. najoon.org

تحقيق

جيرديان فان جيلدير
وجيرجور شولر

تُطلب النسخة الكاملة للشراء —
بنصّ الكتاب المحقّق مع الترجمة الإنجليزيّة والمقدّمة وكلمة
عن المخطوطات المستعملة والحواشي والمصادر —
من المكتبة العربية
(www.libraryofarabicliterature.org)

المكتبة العربية

تهدف المكتبة العربية التي تم إنشاؤها بموجب منحة مقدِّمة من معهد جامعة نيو يورك أبو ظبي، وبالتعاون مع دار النشر التابعة لجامعة نيو يورك، إلى نشر أبرز آثار التراث العربي باللغتين العربية والإنجليزية. فتقوم مجموعة من الباحثين المرموقين في مجال الدراسات العربية والاسلامية بإعداد النصوص بحيث يتم عرض المتن العربي المحقق وترجمته الإنجليزية في صفحات متقابلة من المجلد الواحد. وتعود أقدم النصوص التي تصدرها المكتبة العربية إلى حقبة ما قبل الإسلام حين تعود أحدثها إلى مستهلّ العصر الحديث. كما تضم المكتبة نماذج من مختلف مجالات العلوم والفنون بينها كتب الدين وعلومه والفقه وأصوله والفلسفة والعلوم الطبيعية وكتب الأخبار والتاريخ والشعر ونقده وأدب القصة والحكاية.

تدير المكتبة العربية مجموعة من الباحثين العاملين في مختلف أنحاء العالم منهم أعضاء لجنة التحرير وهم فيليب كنيدي من جامعة نيو يورك والذي يعمل محررا عاما، ثم جيمس مونتكمري، أستاذ اللغة العربية في جامعة كامبريدج، وشوكت محمود تراوا، أستاذ مشارك في الدراسات العربية والاسلامية في جامعة كورنيل، واللذان يعملان محررين تنفيذيين، ثم جوليا بري (جامعة اكسفورد)، ومايكل كوبرسن (جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس)، وجوزيف لاوري (جامعة بنسلفانيا)، وطاهرة قطب الدين (جامعة شيكاغو)، وديفن ستيورت (جامعة اموري). ويشترك المحررون الثمانية في اختيار النصوص وتفويض المترجمين ومقابلة المخطوطات والمراجعة النهائية للنصوص المحققة والمترجمة، كما تقوم لجنة دولية مشكّلة من سبعة وعشرين عضواً بتقديم النصائح ووضع الخطوط العريضة لتطور السلسلة على المدى البعيد.

تعتبر المكتبة العربية السابقة من نوعها حيث تهدف إلى إنشاء مكتبة كبرى تضم نصوصا عربية ذات قيمة مرجعية تصاحبها ترجمات انجليزية تتصف بحداثة الصياغة وسلاسة الأسلوب، سعيا بذلك إلى تعريف الباحثين والطلاب وجمهور القرّاء غير المتخصصين بموروث الأدب العربي .

كلمة عن إثبات النص العربي

اعتمدنا في إثبات النصّ على تحقيق عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» لرسالة الغفران ورسالة ابن القارح، في طبعتيهما الرابعة (دون تاريخ) والتاسعة (١٩٩٣)، كما شرحنا تفاصيله في المقدّمة للترجمة والتحقيق الأصليّ. ولا يستغني الباحث عن تحقيق عائشة عبد الرحمن في الدراسة الأكاديميّة الحديثة لهتين الرسالتين. مائة كلمة

الرموز

إف أبو العلاء المعرّيّ، رسالة الغفران، تحقيق محمد الإسكندراني وإنعام فوّال (بيروت: دار الكتب العربيّ، ٢٠١١).

ب أبو العلاء المعرّيّ، رسالة الغفران، ومعها رسالة ابن القارح، تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»، الطبعة التاسعة (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٣).

ب٤ أبو العلاء المعرّيّ، رسالة الغفران، ومعها رسالة ابن القارح، تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»، الطبعة الرابعة (القاهرة: دار المعارف، دون تاريخ).

د Michel Dechico, "La Risāla d'Ibn al-Qāriḥ: traduction et étude lexico-graphique," Thèse pour le Doctorat de 3e Cycle. Paris: Université de Paris III, Sorbonne Nouvelle, 1980.

ك أبو العلاء المعرّيّ، رسالة الغفران، شرح وإيجاز كامل كيلانيّ (القاهرة: دار المعارف، دون تاريخ).

كع رسالة ابن القارح، تحقيق محمد كرد عليّ، في: رسائل البلغاء، اختيار وتصنيف محمد كرد عليّ، الطبعة الرابعة (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٤)، ص ٢٥٤–٢٧٩.

ن Reynold A. Nicholson, "The Risālatu 'l-Ghufrān by Abū 'l-'Alā' al-Ma'arrī," *Journal of the Royal Asiatic Society* (1900): 637–720; (1902) 75–101, 337–62, 813–47.

ق أبو العلاء المعرّيّ، رسالة الغفران، تحقيق مفيد قميحة (بيروت: دار مكتبة الهلال، ١٩٨٦).

ي أبو العلاء المعرّيّ، رسالة الغفران، تحقيق إبراهيم اليازجيّ (القاهرة: المطبعة الهندية، ١٩٠٣).

المحتويات

رسالة ابن القارح ٨
رسالة الغفران - المجلّد الأوّل ٣٧
رسالة الغفران - المجلّد الثاني ١٦١

رسالة ابن القارح

بسم الله الرحمن الرحيم

١،١ استفتاحاً باسمِه، واستنجاحاً ببَرَكته. والحمدُ لله المبتدِي بالنعَم، المنفرد بالقِدَم، الذي جلّ عن شَبَه المخلوقين، وصِفات المحدَثين، وليّ الحَسَنات، المُبَرَّأ من السيّئات، العادل في أفعاله، الصادقِ في أقواله، خالق الخلق ومُبديه، ومُبقيه ما شاء ومُفنيه. وصلواتُه على محمد وأبرار عِترته وأهليه، صلاةً ترضيه، وتقرّبه وتُدنيه، وتُزلفُه وتحظيه:

١،٢ كتابي - أطال الله بقاء مولاي الشيخ الجليل، ومَدَّ[1] مُدّته، وأدام كفايته وسعادته، وجعلني فداءه، وقدّمني قِبَلَه[2] على الصحة والحقيقة، وبعد القصد والعقيدة، وليس على مجاز اللفظ ومجرى الكتابة، ولا على تنقُّص وخِلابة، وتحبُّبٍ ومسامحة، ولا كما قال بعضُهم وقد عاد صديقاً له: كيف تجدك جعلني الله فداك، وهو يقصد تحبُّباً، ويريد تملُّقاً، ويظنّ أنه قد أسدى جميلاً يشكره صاحبه إن نهض واستقلّ، ويكافئه عليه إن أفاق وأبلّ، عن سلامة تمامُها بحضور حضرته، وعافية نظامُها بالتشرّف بشريف عِرَّته، وميمون نقيبته وطلعته.

ويعلم الله الكريم - تقدّست أسماؤه - أنّي لو حننتُ إليه - أدام الله تأييده - حنينَ الواله إلى بكرها، أو ذات الفرخ إلى وكرها، أو الحمامة إلى إلفها، أو الغزالة إلى خِشْفِها، لكان ذلك مما تُغَيِّره الليالي والأيام، والعصور والأعوام، لكنّه حنين الظمآن إلى الماء، والخائفِ إلى الأمن، والسليم إلى السلامة، والغريقِ إلى النجاة، والقَلِقِ إلى السكون، بل حنين نفسه النفيسة إلى الحمد والمجد، فإنّي رأيتُ نِزاعَها إليهما نِزاعَ الاستُقُصّاتِ إلى عناصرها، والأركانِ إلى جواهرها. فإن وهَبَ الله لي مَلاءً من العمر يُؤنِسُني برؤيته، ويُعلِقُني بحبلِ مَوَدّته، صِرتُ كساري الليل ألقى عصاه، وأَحْمَدَ[3] مَسراه، وقَرَّ عيناً ونَعِمَ بالاً، وكان كمن لم يَمَسَسْه سوءٌ، ولم يَتَخَوَّنْه عَدُوٌّ، ولا نهكَه رَواحٌ ولا غُدُوّ. وعسى الله أن يَمُنَّ بذلك، بيومه أو بثانيه، وبه الثقةُ.

١ ب: (ومُدّ). ٢ ب: (قبْلَه). ٣ ب: (وأُحْمِدَ).

٢،٢ وأنا أسأل الله على التَّداني والنوى والبعاد، إمتاعَه بالفضل الذي استعلى على عاتقه وغاربه، واستولى على مَشارقه ومَغاربه، فمن مَرَّ على بحره الهيّاج، ونظر في لألاء بَدرِه الوهّاج، خليقٌ بأن يَكبُوَ قلمُه بأنامله، ويَنبُوَ طَبعُه عن رسائله، إلا أن يُلقِي إليه بالمقاليد، أو يَستَوهِبَه إقليداً من الأقاليد، فيكون منسوباً إليه، ومحسوباً عليه، ونازلا في شِعبِه، وأحد أصحابه وحِزبِه، وشرارةَ ناره، وقُراضَةَ دينارِه، وسَمَلَ بحره، وثَمَد غَمره. وهيهات!

ضاق فِترٌ عن مَسيرِ
ليس التكحُّلُ في العَينَين كالكَحَلِ

خُلقوا أَسخياءَ لا متساخيـ ـنَ وليس السخيُّ من يتساخى

لا سيّما وأخلاقُ النفس تَلزَمُها لزومَ الألوان للأبدان، لا يَقدِر الأبيض على السواد، ولا الأسود على البياض، ولا الشجاع على الجُبن، ولا الجبان على الشجاعة، قال أبو بكر العَرْزَميّ:

يَفِرُّ جَبانُ القومِ عن أُمّ رأسِه ويحمي شُجاعُ القوم مَنْ لا يناسبُهْ
ويُرزَقُ معروفَ الجَوادِ عَدُوُّهُ ويُحرَم معروفَ البخيلِ أقاربُهْ
ومَن لا يكُفّ الجهلَ عَمّن يودُّه فسوف يكُفّ الجهلَ عَمّن يواثبُهْ

٣،٢ ومن أين للضَّباب صوْبُ السحاب، وللغُراب هُوِيُّ العُقاب! وكيف وقد أصبح ذِكرُه في مواسِمِ الذكر أذاناً، وعلى مَعالم الشكر لساناً! فمَن دافع العِيان، وكابَرَ الإنْس والجان، واستَبَدَّ بالإفْكِ والبُهتان، كان كمن صالَبَ بوَقاحتِه الحجر، وحاسن بقَباحتِه القمر، وهذَى وهذَر، وتعاطى فعقَر، وكان كحموم بُلسِم فعفر، ونادى على نفسه بالنقص في البدو والحضر، وكان كما قال من يعنيه ولا يشكّ فيه:

كناطحٍ صخرةً يومًا ليَفلقَها فلم يَضِرْها وأَوْهَى قَرْنَه الوعِلُ

ورُوي أنّ رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم، وزاده شرفًا لديه – قال: لعن الله ذا اللسانين، لعن الله كلّ شقّارٍ، لعن الله كلّ قَتّات.

٤،٢ وردتُ حلب ظاهِرَها – حماها الله وحرسها – بعد أن مُنيتُ بِرَبَضِها بالدُرَخْمين وأُمّ حَبَوْكَرَى والفُتَكْرين، بل رُمِيتُ بآبِدة الآباد والداهيةِ النآد، فلما دخَلتُها – وبعدُ لم تستقرّ بي الدار، وقد نكرتُها لفقدان معرفةٍ وجار – أنشدتُها باكيًا:

إذا زُرْتُ أرضًا بعد طولِ اجتنابها فقَدتُ حبيباً والبلادُ كما هيا

كان أبو القَطِران، المرّارُ بنُ سعيد الفَقْعسيّ، يهوَى ابنةَ عمه بنجدٍ، واسمُها وحشيّةُ فاهتداها رجلٌ شاميٌّ إلى بلده. فغمّه بُعدُها، وساءَه فِراقُها، فقال من قصيدة:

إذا تركتْ وحْشيّةُ النجْدَ لم يكنْ لعينيك مما تبكيان طبيبُ
رأى نظرةً منها فلم يَملِك البُكا مَعاوِزُ يَربو تحتهن كثيبُ
وكانت رياحُ الشام تُكرِه مرّة فقد جَعلتْ تلك الرياحُ تطيبُ

فحصلتُ من الرياح على الرياح، كما حصل لأبي القطران من وحشيّةَ.
ثم. . . وثم. . . وثم. . .[1]

٥،٢ ثم أُجري ذكرُه – أدام الله تأييده – من غير سبب جرَّه وغير مقتضٍ اقتضاه، فقال: الشيخ بالنحو أعلمُ من سيبويه، وباللغة والعَروضِ من الخليل.
فقلتُ والمجلس يأذن: بلغني أنه – أدام الله تأييده – يُصَغِّر كبيرَه، ويُنَزِّر صغيرَه، فيصير تصغيره تكبيرًا وتحقيره تكثيرًا. هكذا شاهدتُ من شاهدتُ من العلماء

١ كذا في النسخ.

رحمهم الله أجمعين، وجعله وارث أطولِ أعمارِهم وأَنضَرِها وأرغَدِها. وما ثمّ له حاجةٌ دَعَتْ إلى هذا: قد تَفَتَّحَ النَوْرُ وتوَضّح النُور، وأضاءَ الصبحُ لذي عينين!

١،٦،٢ كان أبو الفرج الزَهْرَجيّ كاتبُ حضرةِ نصرِ الدولة – أدام الله حراستَه – كتب رسالةً إليّ أعطانيها، ورسالةً إليه – أدام الله تأييده – استَوْدَعَنيها، وسألني إيصالها إلى جليلِ حضرته، وأكون نافِثَها لا باعِثَها، ومُعَجِّلَها لا مُؤَجِّلَها. فسرق عديلي رحلاً لي، الرسالةُ فيه، فكتبتُ هذه الرسالةَ أشكو أُموري وأبثُّ شُقُوري، وأُطلِعُه طِلعَ عُجَري وبُجَري، وما لقيتُ في سفري من أُقَيوام يدّعون العلم والأدب، والأدبُ أدبُ النفس لا أدبُ الدرس، وهم أصفارٌ منها جميعاً، ولهم تصحيفاتٌ كنت إذا ردَدتُها عليهم، نَسَبوا التصحيف إليَّ، وصاروا إلباً عليَّ.

٢،٦،٢ لقيتُ أبا الفرج الزهرجيّ بآمدَ ومعه خِزانة كُتُبه، فعرضها عليّ فقلتُ: كتبك هذه يهوديّةٌ، قد برئت من الشريعة الحنيفية، فأظهر من ذلك إعظاماً وإنكاراً، فقلت له: أنت على المُجَرَّب، ومثلي لا يَهْرِف بما لا يعرف، وابلُغْ تَيْقَنْ. فقرأَ هو وولدُه وقال: صغَّرَ الخُبرُ الخَبَر. وكتب إليّ رسالةً يُقَرِّظُني فيها بطبعٍ له كريم وخُلُقٍ غير ذميم.

١،٧،٢ قال المتنبّي:

أذمُّ إلى هـذا الزمان أُهَـيلَهُ

صغَّرَهم تصغيرَ تحقيرٍ غير تكبير، وتقليل غير تكثير، فنَفَثَ مصدوراً، وأظهر ضميراً مستوراً. وهو سائغ في مجاز الشعر، وقائله غير ممنوعٍ من النَظْم والنثر ولكنه وضعَه غير موضعِه، وخاطَب به غير مستَحِقّه. وما يستَحِقّ زمانٌ ساعدَه بلقاءِ سيف الدولة أن يُطلِق على أهلِه الذمَّ. وكيف وهو القائل:

أَسيرُ إلى إقطاعِه في ثيابِه على طِرْفِ من دارِه بحُسامِهِ

وقد كان من حقّه أن يجعلهم في خِفارته، إذ كانوا منسوبين إليه محسوبين عليه. ولا يجب أن يشكو عاقلاً ناطقاً إلى غير عاقلٍ ولا ناطقٍ، إذ الزمان حركاتُ الفلك إلا أن يكون مِمَن يعتقد أن الأفلاك تَعقِل وتعلَم وتفهم، وتدري بمواقع أفعالها، بقصود وإرادات، ويَحمله هذا الاعتقادُ على أن يُقرِّب لها القرابين ويُدَخِّنَ الدُخن، فيكون مناقضاً لقوله

فتبّاً لدين عبيدِ النجومِ ومَن يَدّعي أنها تعقِلُ

أو يكونَ كما قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هؤُلاءِ﴾ ويوشك أن تكون هذه صفته.

٢،٧،٢ حكى القُطرَبُّلّي[1] وابن أبي الأزهر في كتابٍ اجتمعا على تصنيفه – وأهلُ بغداد وأهلُ مصر يزعمون أنه لم يُصَنَّف في معناه مثله، لِصِغَر حجمه وكِبَر علمه – يحكيان فيه أن المتنبّي أُخرِج ببغداد من الحبس إلى مجلس أبي الحسن عليّ بن عيسى الوزير – رحمه الله. فقال له: أنت أحمد المتنبي؟ فقال: أنا أحمد النبي، وكشف عن بطنه فأراه سَلْعة فيه وقال: هذا طابع نُبُوَّتي وعلامة رسالتي. فأمر بقلع جَمشَكه[2] وصَفعَه به خمسين، وأعاده إلى محبسه.

ويقول لسيف الدولة:

وتغضبونَ على مَنْ نال رِفْدَكُمُ حتى يُعاقِبَه التنغيصُ والمِنَنُ

وكذب والله، لقد كان يتحرّش بالمكارم ويتحكّك بها، ويحسد عليها أن تكون إلا منه وبه. وهذا غيرُ قادحٍ في طُلاوة شعره ورَونَق ديباجته.

١ ب: (القُطْرُبُّلّي) بضمة الراء وتشديد اللام، والصحيح ما أثبتناه. ٢ ب: (جُمْشُكِهِ)، والصحيح ما أثبتناه.

ولكني أغتاظ على الزنادقةِ والملحدين الذين يتلاعبون بالدين، ويرومون إدخال الشُبَهِ والشكوك على المسلمين، ويستَعذِبون القدح في نبوّة النبيّين، صلواتُ الله عليهم أجمعين، ويتظرّفون ويبتدئون إعجاباً بذلك المذهب: ١،٣

تِيهُ مُغَنٍّ وظَرْفُ زنديقِ

وقتل المهديّ بشّاراً على الزندقة، ولما شُهر بها وخاف، دافع عن نفسه بقوله:

يا ابن نِهيا[1] رأسِيَ عليَّ ثقيلُ واحتمالُ الرأسين عبءٌ ثقيلُ
فادْعُ غيْري إلى عبادةِ ربِّ نِ فإنّي بواحدٍ مشغولُ

وأحضر صالح بن عبد القدّوسِ وأحضر النطع والسيّاف، فقال: عَلامَ تقتلني؟ قال: على قولك: ٢،٣

رُبَّ سِرٍّ كتمتُه فكأنّي أَخرسٌ أَو ثَنَى لسانِيَ عَقْلُ
وَلَوآنِّي أَظهرتُ للناسِ ديني لم يكنْ لي في غير حَبْسِيَ أَكْلُ

ياعُدَيَّ الله وعُدَيَّ نَفسِه:

السِتْرُ دون الفاحشاتِ ولا يَلْقاكَ دونَ الخيْرِ من سِتْرِ

فقال: قدكنت زنديقاً وقد تُبت عن الزندقة. قال: كيف وأنت القائل

والشيخُ لا يَترُكُ عاداتِهِ حتى يُوَارَى في ثَرى رمْسِه
إذا ارْعَوى عاد إلى غَيِّه كذِي الضنَى عاد إلى نكْسِه

١ ب: (نَهْيا)، والصحيح ما أثبتناه.

وأخذ غَفلتَه السيّافُ، فإذا رأسه يتَدَهدأُ على النطع.

٣،٣ وظهر في أيامه في بلد خلف بخارى وراء النهر رجل قصّار أَعور، عمل له وجهاً من ذهب وخوطِبَ بربّ العِزَّة، وعمل لهم قمراً فوق جبلٍ ارتفاعُهُ فراسخُ فأنفذ المهديّ إليه فأُحيط به وبقلعته فحرق كل شيء فيها، وجمع كل مَن في البلد وسقاهم شراباً مسموماً، فماتوا بأَجمعهم، وشرب فلَحِق بهم، وعجّل الله بروحه إلى النار.

٤،٣ والصناديقيّ في اليمن كانت جيوشه بالمُدَيْخِرَةِ وسَفْهَنَةَ وخوطب برب العِزَّة، وكوتِبَ بها، فكانت له دار إفاضة يَجْمَعُ إليها نساء البلدة كلها ويُدْخِلُ الرجالَ[1] عليهنّ ليلاً. قال مَن يُوثَقُ بخبره: دخلت إليها لأَنظُر، فسمعتُ امرأةً تقول: يا بُنيَّ! فقال: يا أُمَّهْ، نريد أن نمضي أمر وليّ الله فينا!

وكان يقول: إذا فعلتم هذا لم يتميّز مال من مال ولا ولد من ولد، فتكونوا كنفس واحدة. فغزاه الحَسَنيّ من صنعاء فهزمه، وتحصّن منه في حِصْنٍ هناك، فأنفذ إليه الحسنيّ طبيباً بمِبْضع مسمومٍ ففصده به فقتله.

١،٥،٣ والوليد بن يزيد أقام في المُلكِ سنةً وشهرين وأياماً وهو القائل:

إذا متُّ يا أُمَّ الحُنَيْكِلِ فانْكِحي ... ولا تأْمِلي بعدَ الفراقِ تلاقِيا
فإنّ الذي حُدِّثْتِه من لقائِنا ... أَحاديثُ طَسْمٍ تتركُ العقْلَ واهيا

ورمى المصحف بالنشّاب وخرقه وقال:

إذا ما جئتَ ربَّكَ يومَ حشْرٍ ... فقُلْ: يا ربّ خَرَّقَني الوليدُ

١ ب: (ويُدْخِلُ عليهن ليلاً). د: (ويَدخُل الرجالُ). وفي ق و إف ما أثبتناه.

وأنفذ إلى مكّة بَنَّاءً مَجوسيًا ليبني له على الكعبة مَشرَبَة، فمات قبل تمام ذلك. فكان الحُجَّاجُ يقولون: لَبَّيْكَ اللّٰهمَّ لبيك، لبيك يا قاتل الوليد بن يزيد، لبيك!

وأحضر بُنابِجة[1] من ذهب وفيها جوهرةٌ جليلةُ القدر، على صورة رجلٍ. فسجد له وقبّله وقال: اسجُدْ له ياعِلج! قلت: ومن هذا ؟ قال: هذا ماني. شأنه كان عظيماً، اضمَحَلَّ أمرُه لطولِ المدّة. فقلت: لا يجوز السجود إلا لله. فقال: قُم عنا.

وكان يشرَبُ على سطحٍ وبين يديه باطية كبيرةٌ بِلَّور وفيها أقداحٌ، فقال لندمائه: أين القمر الليلة؟ فقال بعضهم: في الباطية. فقال: صدقتَ، أتيتَ على ما في نفسي، والله لأَشرَبَنَّ الهَفتَجَةَ، يعني شُرْبَ سبعة أسابيع متتابعة.

وكان بموضع حول دمشق يُقال له البَخراء[2] فقال:

تَلَعَّبَ بالنبوّةِ هاشميٌّ بلا وحْيٍ أَتاه ولا كتابِ

فقُتِلَ بها، ورأيت رأسه في الباطية التي أراد أن يُهَفتِجَ بها.

وأبو عيسى بن الرشيد القائل: ٢،٥،٣

دهَانِيَ شَهْرُ الصَوْمِ لا كان من شهرِ ولا صُمْتُ شهراً بَعْدَهُ آخِرَ الدهرِ
ولوكان يُعْديني الإمامُ بقدْرةٍ على الشهرِ لاستعديتُ دهري على الشَهرِ

عرض له في وقته صَرْعٌ فمات ولم يُدرِك شهراً غيره والحمد لله.

والجنّابيّ قتل بمكة أُلوفًا، وأخذ ستة وعشرين ألف جمل[3] خِفَافًا، وضرب آلاتهم وأثقالهم بالنار، واستملك من النساء والغلمان والصبيان من ضاق بهم الفضاء كثرةً ووفوراً، وأخذ حجر الملتزَم وظنّ أنها مغناطيسُ القلوب، وأخذ الميزابَ. قال: وسمعت قائلاً يقول لغلام دُحَيْمَانَ طُوال يرفل في بُرْدَيْه وهو فوق الكعبة: يا رَخَمة، اقلعْه وأسرعْ، يعني ميزاب الكعبة. فعلمتُ أن أصحاب الحديث صحّفوه فقالوا يقلعه ١،٦،٣

١ ب٤، إف، ق: (بُنايجةً). ك: (بُنابَجَةً). د: (بِنافجةٍ). ٢ ب، إف، ك، ق، د: (البحرا). ٣ ب٤، ك: (حملٍ).

غلام اسمه رَحْمة، كما صحّفوا على عليّ رضي الله عنه قوله: تهلك البصرة بالريح. فهلكت بالزنج، لأنه قتل علويُّ البصرة في موضع بها يقال له العقيق أربعة وعشرين ألفاً، عدُّوهم بالقَصَب، وحرق جامعها، وقال في خطبته يخاطب الزنج: إنكم قد أُعِنتُم بقُبح مَظْهَر فاشفعوه بقبح مَخْبَر: اجعلوا كل عامرٍ قفرًا وكلّ بيتٍ قبرًا! قال لي بدمشق أبو الحسين اليزيديّ الوَرْزَنينيّ[1]: على نَسَب جَدّي دخل وإيّاه ادَّعى.

٢،٦،٣ وقال أبو عبد الله بن محمد بن عليّ بن رِزام الطائيّ الكوفيّ: كنتُ بمكّة وسيف الجَنَابيّ قد أخذ الحاجَّ، ورأيت رجلاً منهم قد قتل جماعةً وهو يقول: يا كلاب، أليس قال لكم محمد المكّيّ: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾، أيُّ أمنٍ هنا؟ فقلت له: يا فتى العرب توَمّنني سيفَك أفسّر لك هذا؟ قال: نعم. قلت: فيها خمسة أجْوبة، الأول: ومَن دخله كان آمناً من عذابي يوم القيامة، والثاني: مِن فَرْضي الذي فرضْتُ عليه، والثالث: خرج مَخْرج الخبر وهو يريد الأمر كقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾، والرابع: لا يقام عليه الحدّ فيه إذا جني في الحِلّ، والخامس: مَنَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ فقال: صدقتَ، هذه اللحية إلى توبة؟ فقلت: نعم فخلاني وذهب.

١،٧،٣ والحسين بن منصور الحلاج من نيسابور وقيل: من مَرْو، يَدَّعي كل علم، وكان متهوّرًا جَسوراً يروم إقلاب الدوَل ويدَّعي فيه أصحابُه الإلهية، ويقول بالحلول، ويُظهر مذاهب الشيعة للملوك، ومذاهب الصوفية للعامّة، وفي تضاعيف ذلك يَدَّعي أن الإلهية قد حلّت فيه. وناظَره عليّ بن عيسى الوزير فوجده صِفراً من العلوم وقال: تَعَلُّمُك لطهورك وفَرْضِك أجدى عليك من رسائل أنت لا تدري ما تقول فيها، كم تكتب إلى الناس: تبارك ذو النور الشَّعْشَعاني الذي يلمع بعد شَعْشعته! ما أحْوجك إلى أدب!

حدّثني أبو علي الفارسيّ قال: رأيت الحلاج واقفاً على حلقة أبي بكر الشِبْليّ . . .[2] أنت بالله ستفسد خشيته.[3] فنفض كُمَّه في وجهه وأنشد:

---

١ ب، ق،د: (الوزيري). ك: (الوزير بن). ٢ النص ناقص على ما يظهر. ٣ في نسخة: (ستفسد خشبته)، وفي نسختين: (ستفسد خشبة)؛ وفي العبارة غموض.

يا سِـرَّ سِرٍّ يَـدِقُّ حـتـى يَجِلَّ عن وصْفِ كلِّ حَيّ
وظاهـرًا باطنًـا تَبَـدَّى من كلِّ شيءٍ لكلِّ شيّ
يا جُملَةَ الكُلِّ لستَ غيري فما اعتذاري إذًا إليّ

وهو يعتقد أن العارف من الله بمنزلة شُعاع[1] الشمس، منها بدأ وإليها يعود، ومنها يستمدّ ضَوءَه.

أنشدني الظاهر لنفسه: ٢،٧،٣

أَرى جِيلَ التصوُّفِ شرَّ جيلٍ فقـلِ لهـمُ، وأَهْوِنْ بالحـلولِ
أَقـال اللهُ حـين عَشقتُموه كُلُوا أَكلَ البهائِم وارقصوا لي؟

وحرّك يوماً يده فانتثر على قومٍ مسكٌ، وحرّك مرةً أُخرى فانتثر دراهم، فقال له بعض مَن حضر ممن يفهم: أَرِني دراهم غير معروفة، أُومنْ بك وخلقٌ معي إن أَعطيتَني درهماً عليه اسمك واسم أَبيك. فقال: وكيف هذا وهذا لا يُصنَع؟ قال: مَن أحضر ما ليس بحاضر، صنع ما ليس بمصنوع.

وكان في كتبه: إني مُغرِقُ قوم نوح ومُهلِك عادٍ وثَمودَ.

فلما شاع أمرُه وعرف السلطان خَبرَه على صحّة، وقّع بضربه[2] ألفَ سوط، وقطع يديه، ثم أحرقه بالنار في آخر سنة تسع وثلاثمائة. وقال لحامد بن العبّاس: أنا أُهلِكك. فقال حامد: الآن صحّ أنك تَدَّعِي ما قَرِفْتَ به.

وابن أبي العَزاقر أبو جعفر محمد بن علي الشَّلَمغاني أهله من قرية من قرى واسط تُعرف بشلمغان، وصورته صورة الحلاج ويدَّعي عنه قوم أنه إله، وأن الله حلّ في آدم ثم في شِيث ثم في واحدٍ واحدٍ من الأنبياء والأوصياء والأئمة حتى حلّ في الحسن بن عليّ العسكريّ وأنه حلّ فيه. وكان قد استغوى جماعةً منهم ابن أبي عَونٍ صاحب ٨،٣

١ كلمة (الشعاع) مأخوذة من هامش نسخة الأصل. ٢ ب٤: (بضربةٍ).

كتاب التشبيه، ومعه ضُربت عنقه. وكانوا يُبيحونه حرمهم وأموالهم يتحكّم فيهم، وكان يتعاطى الكيمياء، وله كتب معروفة.

٩،٣ وكان أحمد بن يحيى الراوَنْديّ من أهل مرو الرُّوذ حسن السِّتر جميل المذهب، ثم انسلخ من ذلك كله بأسباب عرضتْ له، ولأن علمه كان أكثر من عقله، وكان مثله كما قال الشاعر:

ومَنْ يُطيق مَرَدًّا عند صَبْوته ومَن يقومُ لمستورٍ إذا خَلَعا؟

صنّف:

كتاب التاج، يحتجّ فيه لِقِدَم العالَم، فنقضه أبو الحسين الخيّاط.

الزمُرُّذ، يحتجّ فيه لإبطال الرسالة. نقضه الخيّاط.

نعت الحكمة، سفّه الله - تعالى - في تكليف خَلْقِه أمره، نقضه الخيّاط.

الدامغ، يطعن فيه على نظم القرآن.

القضيب، يُثبتُ أنّ علم الله محْدَث، وأنه كان غير عالم حتى خلق لنفسه علماً، نقضه الخيّاط.

المرْجان، في اختلاف أهل الإسلام.

١،١٠،٣ علي بن العباس بن جُريج الرُّوميّ، قال أبو عثمان الناجم: دخلتُ عليه في علّته التي مات فيها، وعند رأسه جام فيه ماء مثلوج وخنجر مجرّد لو ضُرب به صدر خرج من ظهر، فقلت: ما هذا؟ قال: الماء أُبُلّ به حلقي فقلّما يموت إنسان إلا وهو عطشان. والخنجر، إن زاد عليّ الألم نحرتُ به نفسي. ثم قال: أقصّ عليك قِصّتي تستدلّ بها على حقيقة تَلَفي: أردتُ الانتقال من الكَرْخ إلى باب البصرة، فشاورتُ صديقنا أبا الفضل وهو مُشتَقٌّ من الإفضال، فقال: إذا جئتَ القنطرة فخُذْ على يمينك - وهو مشتقّ من اليُمْن - واذهبْ إلى سِكّة النعيمة - وهو مشتقّ من النعيم - فاسكنْ دار ابن المُعافَى -

وهو مشتقّ من العافية ـ فخالفتُه لتعسي ونحسي. فشاورتُ صديقنا جعفرًا – وهو مشتقّ من الجوع والفرار – فقال: إذا جئت القنطرة فخذ على شمالك – وهو مشتقّ من الشؤم – واسكن دار ابن قِلابة. وهي هذه لا جَرَمَ، قد انقلبت بي الدنيا، وأضرّما عليّ العصافير في هذه السِّدرة تصيح: سِيقْ سِيقْ: فها أنا في السياق، ثم أنشد:

أبا عـثمان أنتَ قريعُ قومِكْ وجُودُك للعشـيرةِ دونَ لَوْمِكْ
تمتَّعْ من أخيكَ فما أُراه يراكَ ولا تراه بعـد يومِكْ

وأَلَحَّ به البوْل فقلتُ له: البول مُلِحٌّ بك. فقال: ٢،١٠،٣

غـدًا ينـقـطعُ البولُ ويأتي الويـل والعَوْلُ
ألا إن لقـاءَ اللّـهِ هولٌ دونَـه الهولُ

ومات من الغد.

فأرجو أن يكون هذا القول توبةً له مما كان اعتقده من ذَبحِه نفسه، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: من وَجَأَ نفسه بحديدة حُشِرَ يوم القيامة وحديدته بيده يجأ بها نفسه خالدًا مخلّدًا في النار، من تردّى من شاهق حُشر يوم القيامة يتردَّى على مِنخريْه في النار خالدًا مخلّدًا، من تحسّى سُمًّا حُشر يوم القيامة وسمُّه بيده يتحسّاه خالدًا مخلّدًا في النار.

قال الحسن بن رَجاء الكاتب: جاءني أبو تمّام إلى خراسان فبلغني أنه لا يصلّي، فوكلتُ به من لازَمَه أياماً فلم يره صلّى يوماً واحداً، فعاتبته فقال: يا مولاي، قطعتُ إلى حضرتك من بغداد، فاحتملت المَشَّقَة وبُعْدَ الشُّقّة ولم أره يَثقُل عليّ، فلوكنت أعلم أن الصلاة تنفعني وتركُها يَضُرّني ما تركتُها. فأردتُ قتله فخشيت أن يُحمَل على غير هذا. ١١،٣

وفي تآريخ كثيرةٍ أنه أُحضر المازيار إلى المعتصم وقبل قدومه بيومٍ سخط على الأفشين ١٢،٣
لأن القاضي ابن أبي دُواد قال للمعتصم: أَغْزَلُ ويطأ امرأةً عربية! وهو كاتب المازيار، وزيّن له العصيان.

فأحضر كاتبه، وتهدده المعتصم فأقرّ أنه كتب إلى المازيار: لم يكن في الأرض ولا في العصر بَليّةٌ إلا أنا وأنت وبابَك، وقد كنت حريصاً على حقن دمه حتى كان من أمره ما كان، ولم يبق غيري وغيرك، وقد توجَّه إليك عسكرٌ من عساكر القوم، فإن هزمته وثَبْتُ أنا بمَلِكِهم في قرار داره، فظهر الدينُ الأبيض. فأجابه المازيار بجوابٍ هو عنده في سَفَط أحمر. فجمع بين الأفشين والمازيار، فاعترف المازيار بما حُكي عنه. وقيل للمعتصم: إن وراء المازيار مالاً جليلاً، فأنشد:

إن الأُسودَ أُسودَ الغابِ هِمَّتُها يوم الكريهة في المسلوب لا السَلَبِ

وذكروا أن اثنين قتلوا[1] ثلاثة آلاف ألف وخمسمائة ذبّاحٍ بالثياب الحُمُر والخناجر الطوال، وأنهم وجدوا أسماءهم في وقعةٍ وقعةٍ وفي بلد وبلد، وكانوا يأخذون من كل واحد علامةً: خاتمَه أو ثوبَه أو منديلَه أو تِكَّتَه: أتى الوادي فطَمَّ على القَرِيّ.

قد لقيتُ مَن يجادلني أن عليّاً، رضي الله عنه. . .[2] وكذلك الحاكم. ١٣،٣

وقد ظهر بالبصرة من يدّعي أنَّ جعفرَ ابنُ محمد عليهما السلام، وأنه متّصِلٌ به وروحه فيه ومُتصلةٌ به. ولو استقصيتُ القول في هذا الفنِّ لطال جدّاً ولكن:

لا بُدّ للصدور أن ينفثا وللذي في الصدر أن يُبْعَثَا

بل لو قلتُ كل ما أعلمه، أكلتُ زادي في محبسي، بل كنت أُنشد:

أحمِلُ رأسًا قد مللتُ حمْلَه ألا فتًى يحمل عِنِّي ثِقلَه

[1] كذا في ب؛ وفي ق، إف: (قتلا)؛ وفي العبارة عموض ولحن. [2] في النص نقص واضح.

وأستريح إلى أن أُنشد:

ليس يشفي كلومَ غيري كلومي ما به ما به، وما بِيَ ما بي[1]

١،٤ إن شكوتُ العصر وأحكامه، وذممتُ صروفه وأيامه، شكوتُ مَن لا يُشكي أبداً، وذممتُ مَن لا يُرضي أحداً، شيمتُه اصطِفاءُ اللئام، والتحامل على الكرام، وهمّته رفع الخامل الوضيع، ووضع الفاضل الرفيع إذا سمَحَ بالحِباء فأَبْشِرْ بوَشْكِ الاقتِضاء، وإذا أَعار فأحسبه قد أغار، فما بين أن يقبل عليك مستبشراً، ويولّي عنك متجهماً مستبسراً، إلا كلَمْحِ البصر واستطارة الشرر. لم يخترق ذكرُ الوفاء مَسامِعَه، ولم يَمْسس ماءُ الحياء مدامعه، ظاهره يسرّ ويؤنِس، وباطنه يسوء ويوئس، يُخيِّب ظنّ راجيه، ويُكذّب أمل عافيه، لا يسمع الشكوى ويشمتُ بالبلوى.

٢،٤ قد ذممت شيئاً ووقعت فيه أنا، كالغريق يطلب مَعْلَقاً، والأَسير يندب مطلقاً. وأستحسن قول عليّ بن العبّاس بن جُرَيج الروميّ:

أَلا ليس شيبُك بالمنتزَعْ فهل أَنتَ عن غيّهِ مُرْتَدِعْ؟
وهل أَنت تاركُ شكوى الزمانِ إذا شئتَ تشكو إلى مُستَمِعْ؟
فشَيبُ أَخي الشيبِ أُمنيَّةٌ إذا ما تناهى إليها هلَعْ

٣،٤ كنت في حال الحداثة أقربُ الناس إليَّ، وأعزُهم عليّ، وأقربُهم عندي وأجلُّهم في نفسي مرتبةً، من قال لي: نسأ الله في أَجَلِكَ، جعل الله لك أمدّ الأَعمار وأطولها. فلما بلغتُ عشر الثمانين جاء الجزعُ والهلع. فمِمَّ أرتاع وألتاع، وأخلد إلى الأطماع، وهو الذي كنت أتمنّى ويتمنّى لي أهلي؟ أمن صدوف الغواني عنّي؟ فأنا والله عنهنّ أصدفُ، وبهنّ وأدوائهنّ أعرف، إذا لست ممّن ينشد تحسُّرا عليهنّ:

---

١ ب: (ما بي بي)، والصحيح ما في سائر الطبعات.

للسودِ في السودِ آثارٌ تركنَ بها لُمعاً من البيض تثني أعينَ البيضِ

وقول الآخر:

ولما رأيتُ النسرَ عزَّ ابنَ دايةٍ وعشَّش في وكريْه جاشت له نفسي

ولا أنشد لأبي عُبادة البحتريّ:

إن أيّامه من البيض بيضٌ ما رأين المفارقَ السودَ سودا
وإذا المحلُ ثارَ ثاروا غيوثًا وإذا النقعُ ثار ثاروا أُسودا
يحسن الذكرُ عنهمُ والأحاديـ ـثُ إذا حدَّثَ الحديدُ الحديدا
بلدةٌ تنبت المعالي فما يثـ ـغِرُ الطفلُ فيهمُ أَو يسودا

٤،٤ وهذه صفة مَعرّةِ النعمان به – أدام الله تأييده – لا خلتْ منه ومن النعمة عليه وعنده، فقد وجدتُ أَهلَها معترفين بعوارفه، خلا أبي العبّاس أحمدَ بنِ خلف المُمَتَّع – أدام الله عزّه – فإني وجدتُ آثار تفضُّلِه عليه ظاهرةً، ولسانه رطباً بشكره وذكره، قد ملأ السماء دعاءً والأرض ثناء.

١،٥ قالت قريشٌ للنبي عليه الصلاة والسلام: أتباعك من هؤلاء الموالي بِلالٍ وعَمَّارٍ وصُهَيب، خيرٌ من قُصَيّ بن كلاب، وعبد مَناف وهاشم وعبد شمس؟ فقال: نعم، والله لئن كانوا قليلاً ليكثُرُنَّ، ولئن كانوا وُضَعاءَ ليَشْرُفُنَّ حتى يصيروا نجوماً يُهتدى بهم ويُقتدى، فيقال: هذا قول فلان وذكر فلان. فلا تُفاخروني بآبائكم الذين مُوِّتوا في الجاهلية، فلَمَا يُدَهْدِه الجُعَل بِمنخره خيرٌ من آبائكم الذين مُوِّتوا فيها. فاتَّبعوني أجعلكم أنساباً، والذي نفسي بيده، لتقتَسِمُنَّ كنوز كِسرى وقيصر.

فقال له عمُّه أبو طالب: أبقِ عليّ وعلى نفسك. فظنَّ عليه الصلاة والسلام أنه خاذلُه ومُسلِمه، فقال: ياعمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على

أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أَهلِك فيه ما تركتُه. ثم استعبر باكيًا، ثم قام. فلمّا ولّى ناداه: أقبِلْ يا ابن أخي. فأقبل. فقال: اذهبْ وقل ما شئتَ، فوالله لا أسلمتُك لسوء أبدًا.

٢،٥ فكان عليه الصلاة والسلام يذكر يوماً ما لقي من قومه من الجهد والشدة، قال: لقد مكثتُ أياماً وصاحبي هذا - يشير إلى أبي بكر - بضع عشرة ليلة ما لنا طعامٌ إلا البرير في شُعَب الجبال. وكان عُتبة بن غَزْوان يقول إذا ذكر البلاء والشدّة التي كانوا عليها بمكّة: لقد مكثنا زماناً ما لنا طعامٌ إلا ورق البَشام أكلناه حتى تقرحت أشداقُنا، ولقد وجدتُ يوماً تمرةً فجعلتُها بيني وبين سعد وما منا اليوم أحدٌ إلا وهو أمير على كُورة. وكانوا يقولون فيمن وجد تمرةً فقسّمها بينه وبين صاحبه: إن أسعدَ الرجلين من حصلت النَّواةُ في قسمه، يلوكها يومَه وليلته، من عَدَم القوت. وكذا قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: لقد رَعيتُ غُنيماتِ أهل مكّة لهم بالقراريط.

وابتداء أمره أنه وقف على الصَّفا ونادى: يا صباحاه، يا صباحاه! فجاءوا يهرعون فقالوا: ما دهَمك؟ ما طَرَقَك؟ قال: بم تعرفونني؟ قالوا: محمد الأمين. قال: أرأيتم إن قلتُ لكم إن خَيلاً قد طَرقَتكم في الوادي، وإن عسكرًا قد غشيكم من الفَجّ، أكنتم تُصدّقوني؟[1] قالوا: اللّهمَّ نعم، ما جرّبنا عليك كذِبًا قطّ. قال: فإن الذي أنتم عليه، ليس لله ولا من الله ولا يرضاه الله، قولوا: لا إله إلا الله، واشهدوا أني رسوله، واتبعوني تُطِعْكُم العرب وتملكوا[2] العجم، وإن الله قال لي: استخرِجْهم كما استخرجوك، وابعثْ جيشاً أبعثْ خمسة أمثاله، وضمن لي أنه ينصرُني بقومٍ منكم، وقال لي: قاتلْ بمن أطاعك من عصاك. وضمن لي أنه يغلب سلطاني سلطانَ كسرى وقيصر.

٣،٥ ثم إنه عليه الصلاة والسلام غزا تَبوك في ثلاثين ألفًا، وهذا من قِبَل الله الذي يجعل من لا شيء كلَّ شيء، ويجعل كل شيء لا شيء، يُجمِّد المائعات ويُميع الجامدات، يُجمِّد

١ ق، إف: (تصدقوني). ٢ في النسخ: (تملكون).

البحر ثم يفجّر الصخر. وما مَثَله في ذلك إلا كمثل من قال: هذه الزجاجة الرقيقة السخيفة، أَحكُّ بها هذه الجبال الصلْدة الصلْبة المُنيفة، فترضّها وتفُضّها، وهذه النملة الضعيفة اللطيفة، تهزم العساكر الكثيرة المُعَدّة!

وكذا حقيقة أمره عليه الصلاة والسلام، حتى لقد قال عُروة بن مسعود الثَّقَفيّ لقريش، وكان رسولهم إليه صلّى الله عليه وسلّم بالحُدَيْبِيَةِ: لقد وردتُ على النَّجاشي وكسرى وقيصر ورأيتُ جندهم وأتباعهم، فما رأيت أطوع ولا أوقَرَ ولا أهْيب من أصحاب محمد لمحمدهم، هم حوله وكأن الطير على رؤوسهم، فإن أشار بأمرٍ بادروا إليه، وإن توضّأَ أقتسموا وضوءه، وإن تَنَخَّمَ دَلكوا بالنُخامة وجوهَهم ولِحاهم وجلودهم. وكانوا له بعد موته أطوع منهم في حياته، حتى لقد قال بعض أصحابه: لا تَسُبّوا أصحاب محمد فإنهم أسلموا من خوف الله، وأسلم الناس من خوف أسيافهم.

٤،٥ فتأمّلْ، كيف استفتحَ دعوتَه – وهو ضعيفٌ وحده – بأن هذا سيكون، فرآه العدوّ والوليّ. وما كان مَثَله في ذلك إلا مَثل من قال: هذه الهباءةُ تعظم وتصير جبلاً يُغَطّي الأرض كلّها، ثم أنذر الناس بها في حال ضعفها.

وجاء صلّى الله عليه وسلّم يوماً ليدخل الكعبة، فدفعه عثمان بن طَلْحة العبْدَريّ فقال: لا تفعل يا عثمان، فكأنك بمفتاحها بيدي أضعه حيث شئتُ. فقال: لقد ذَلَّت يومئذ قريشٌ وقَلَّتْ. قال: بل كثُرت وعزَّت.

١،٦ وأنا أستعين بعصمة الله وتوفيقه، وأجعلهما مُعِينَيَّ على دفع شهواتي، واشكو إليه عكوفي على الأماني، وأسأله فهماً لمواعظ عِبَرِ الدنيا، فقد عميتُ عن كلوم غِيَرها، بما جَثَمَ على خواطري من الشعف بها. ولست أجد مُنْصفاً لي منها، ولا حاجزًا لرغبتي فيها عنها، وأين ودائعُ العقول وخزائن الأفهام يا أولي الأبصار؟ صفِّحنا عن مساوئ

الدنيا إغماضاً لعاجل مُوبِق[1] الشغيص، وتومئ إليه يد الزوال، وتكُمن له الآفات. قال كُثيّر:

كأَنّي أُنادي صخرةً حين أَعرضَتْ من الصُّمِّ لو تمشي بها العُصْمُ مزلَّتِ

٢،٦ وأقول على مذهب كُثيّر: يا دنيا، في كل لحظة لطرْفي منك عبرة، وفي كل فكرة لي منك حسرة! يا مُرنِقَةَ الصفا ويا ناقضة عهد الوفا؛ ما وُفق لحظة من عرَجَ نَحوَك، ولا سعِد من آثر المُقام على حسن الظن بك، هيهات يا معشر أبناء الدنيا، لكم في الظاهر اسم الغِنى، وفي الباطن أهل التقلُّل لهم نفس هذا المعنى. كم من يوم لي أَغرّ كثير الأهلّة، قد صحَتْ سماؤه وامتدّ عليَّ ظلّه، تمدّني ساعاته بالمُنى، ويضحك لي عن كل ما أهوى، حتى إذا اتّصل بكلّ أسبابي[2] نَفِسَت عليّ به الدنيا فسعت بالتشتيت إلى أُلفَتِه، والنقص إلى مُدّته، فكسفت بَهْجتَه كسوفاً، وأرهقت نضرتَه وحشيةُ الفراق، وقطّعتنا فرقاً في الآفاق، بعد أن كنّا كالأعضاء المؤتلفة، والأغصان اللدنة المنعطفة:

واحسرتي في يوم يجـ ـمعُ شِرَّتي كَفٌّ ولَحْدُ
ضيَّعتُ ما لا بُدَّ منـ ـه بالذي لي منه بُدُّ

وأُنشد قولَ ابن الروميّ:

أَلا ليس شيبُكَ بالمنتزعْ فهل أَنتَ عن غَيِّهِ مرتدِعْ

فأَقلِقُ وأبكي بكاءً غير نافع ولا ناجع، ويجب أن أبكي على بكائي وأُنشد:

لساني يقولُ ولا أَفعلُ وقلبي يريدُ ولا أَعملُ
وأَعرِف رُشدي ولا أَهتدي وأَعْلَمُ لكنّني أَجهلُ

١ ب٤، إف: (مُونِق). ب: (مونِق). ق: (مونق). ورجحنا أن الصحيح ما أثبتناه. ١٢ كع، د: (بكل أسبابي وامتزج سروره بفرحي وروحي وأترابي).

عرض عليّ بعض الناس كأس خمر، فامتنعتُ منها وقلت: خلُّوني والمطبوخَ على مذهب الشيخ الأوزاعيّ. وقلت لهم: عَرَض إبراهيم بن المهديّ على محمد بن حازم الخمرة فامتنع وأنشد: ٣،٦

أَبعدَ شيبيَ أَصبو ... والشيبُ للجهل حَرْبُ
سِنٌّ وشيبٌ وجهلٌ ... أَمرٌ لَعَمرُكَ صَعْبُ
يا ابنَ الإمامِ فَأَلاّ ... أَيامَ عُودِيَ رطْبُ
وإذ مَشيبي قليلٌ ... ومَنهلُ الحبّ عذبُ
وإذ شفاءُ الغواني ... مِنِّي حديث وقُربُ
فالآنَ لما رأَى بي الـ ... ـعُذّالُ ما قد أَحبّوا
وآنَسَ الرشدَ منّي ... قوم أُعابُ وأَصبو؟
آليتُ أَشربُ خمرًا ... ما حَجّ للهِ ركْبُ

وأقبلت على نفسي مخاطباً، ولها معاتباً، والخطاب لغيرها والمعنى لها: ١،٤،٦

لقد أَمهَلكم حتى كأنه أهملكم! أما تستحيون من طول ما لا تستحيون! فكنْ كالوليد تُقَلِّبُه يد اللطف به على فراش العطف عليه، تُصرَف إليه المنافع بغير طلب منه لصغره، وتُصرف عنه المضارّ بغير حذر منه لعجزه. أما سمعتَ الرسول عليه الصلاة والسلام إذ يقول في دُعائه: اللّهم اكلأْني كلاءةَ الوليد الذي لا يدري ما يُراد به ولا ما يريد. ألا متعلق بأذيال دليله؟[٢] ألا مُعِدٌّ مطيّةً ورَحلاً ليوم رحيله؟ يا هلاه! الدُلجةَ الدلجة! إنه من لم يسبق إلى الماء يَظْمَ. إنما منعتُك ما تشتهي ضنًّا بك وغيرةً عليك، قال الرسول عليه الصلاة والسلام: إذا أحبَّ الله عبداً حماه الدنيا، وأنت تشكوني إذا حميتُك، وتكره صيانتي إذا صُنتُك. ألا لائذٌ بفنائنا ليعزّ؟ ألا فارّ إلينا لا فارّ منا؟ يا من له بدّ من كل شيء، أرحم من لا بدّ له منك على كل حال! الله يُغني بشيء عن شيء، وليس يغنَى عنه بشيء، فلهذا قال جبريل للخليل: ألك حاجةٌ؟ قال: أما إليك

١ د: (شفاه). ٢ ب: (ألا مُتَعَلِّقٌ والإذلالُ أذيالُ دليلِه). ق،إف،د: (ألا مُتَعَلِّقٌ والأذيالُ أذيالُ دليلِه).

فلا، الله يستحقّ أن يُسأل وإن أغنى، لأنه لا يُغنَى بشيء عنه. أطِعْه لتطيعه ولا تطعه ليطيعك فتفتر وتملّ. من ترك تدبيره لتدبيرنا أرحناه! جلّ من لَوالِب القلوب والهمم بيده، وعزائم الأحكام والأقسام عنده:

أَنسِيتَ ذكرَ أَحِبَّة ... ينْسَونَ ذنبكَ عند ذكرِكْ؟ ٢،٤،٦
وجفوتَهم ولطالما ... كانوا خِلافَكَ طوعَ أَمركْ
وصبرْتَ عند فراقِهم ... ما كان عذرُكَ عند صبرِك؟

تترك من إذا جفوتَه ونسيتَ ذكره وتعدّيتَ حدّه وتركتَ نهْيه وضيّعتَ أمره، وتُبتَ إليه وعَوّلتَ في تفضُّله عليك عليه، وقلت: يا ربّ، قال لك: لبّيك ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ إن كان الذُّباب بوجهك فاتّهِمْك، وإن قطعت أنا أعضاءك فلا تتّهِمْني، أنت الذي إذا أعطيتك ما أمّلت تركتني وانصرفت: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾. يا واقفاً بالتُّهم كم كم؟ أليس يقول لك: ما غرّك بي؟ تقول حِلمك، وإلا لو أرسلتَ عليَّ بَقّةً لجمعتني عليك إذا أردتَ أن تجمعني:

أَمِنْ بعدِ شُربِكَ كأْسَ النُّهى ... وشَمّكَ رَيحانَ أَهلِ التُّقَى
عشقتَ فأَصبحتَ في العاشقي ... نَ أَشهرَ من فَرَسٍ أَبلَقَا؟
أَدنايَ من غَمرِ بَحرِ الهوى ... خُذِي بيدي قبل أَن أَغرقا
أنا لكِ عبدٌ فكوني كمَنْ ... إذا سرّه عبدُه أعتقا

٥،٦ كان ببغداد رجل كبير الرأس فِيليّ الأُذنين اسمه فاذوه رأسه في الأزمنة الأربعة مكشوفٌ، لا يتورّع عن ركوب مُخزية، يقال له: يا فاذوه، ويْلَك! تُب إلى الله. فيقول: يا قوم، لِمَ تدخلون بيني وبين مولاي وهو الذي يقبل التوبة من عباده؟

فكان في بعض الشوارع يوماً ذاهباً، والشارع قد اتّسع أسفله وضاق أعلاه والتقى جَناحانِ فيه، فناولَت جارةٌ جارتَها مِهْراساً، انسَلَّ من يدها على رأس فاذوه فهرس

رأسه، وخُلِطَ كخلط الهريسة، وأعجله عن التوبة. وكان لنا واعظ صالح يقول لنا: احذروا ميتة فاذوه.

قال جبريل في حديثه: خشيتُ أن يتمّ فرعون الشهادة والتوبة، فأخذت قطعةً من حال البحر فضربتُ بها وجهه - يعني طينه، والحال ينقسم ثمانية أقسام منها الطين - فكيف يصنع من عنده أن التوبة لا تصِحّ من ذنب مع الإقامة على آخر؟ فلا حول ولا قوة.

١٠٧ بلغني عن مولاي الشيخ - أدام الله تأييده - أنه قال وقد ذُكِرتُ له: أعرفه خَبَرًا، هو الذي هجا أبا القاسم بن عليّ بن الحسين المغربيّ. فذلك منه - أدام الله عزّه - رائع لي، خوفًا أن يستشرّ طبعي، وأن يتصوّرني بصورة مَن يضع الكفر موضعَ الشكر. وهو بتعريف التنكير أنفع لي عنده لجلالة قَدره ودينه ونُسكِه، وأنا أُطلِعه طِلعَه، ليعرف خفضه ورفعه، وفُؤاداه وجمعه.

٢٠٧ كنت أدرس على أبي عبد الله بن خالَوَيْه رحمه الله، وأختلف إلى أبي الحسن المغربيّ، ولما مات ابن خالويه سافرت إلى بغداد ونزلت على أبي علي الفارسي وكنت أختلف إلى علماء بغداد: إلى أبي سعيد السِيرافيّ، وعليّ بن عيسى الرُمّانيّ، وأبي عبيد الله المرزُبانيّ، وأبي حفص الكَتّانيّ صاحب أبي بكر بن مُجاهِد. وكتبت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلّغتُ نفسي أغراضها جهدي والجهد عاذر. ثم سافرت منها إلى مصر، ولقيت أبا الحسن المغربي فألزَمَني أن لَزمته لزوم الظلّ، وكنت منه مكان المِثل، في كثرة الإنصاف، والحنو والتحافّ. فقال لي سرًا: أنا أخاف هِمّة أبي القاسم أن تَنْزُوَ به إلى أن يوردنا وِردًا لا صَدَر عنه. وإن كانت الأنفاس مما تُحفَظ وتُكتَب، فاكتُبْها واحفظْها وطالعْني بها.

فقال لي يومًا: ما نرضى بالخمول الذي نحن فيه. قلت: وأي خمول هنا؟ تأخذون من مولانا - خلّد الله مُلكَه - في كل سنة ستّةَ آلاف دينار، وأبوك من شيوخ

الدولة وهو معظَّمٌ مُكرَّم. فقال: أريد أن تُصار إلى أبوابنا الكتائبُ والمواكبُ والمقانبُ، ولا أرضى بأن يُجرَى علينا كالوِلدان والنِسوان! فأعدتُ ذلك على أبيه فقال: ما أخوفني أن يَخضِبَ أبو القاسم هذه من هذه، وقبض على لِحيَته وهامته. وعَلِمَ أبو القاسم بذلك، فصارت بيني وبينه وَقْفَةٌ.

٣.٧ وأنفذ إليّ القائدُ أبو عبد الله الحسين بن جوهر فشرفني بشريف خدمته، فرأيتُ الحاكم كلما قتل رئيساً أنفذ رأسه إليه وقال: هذا عدُوّي وعدوّك يا حسين فقلت:

مَنْ يَرَ يَوْمًا يُرَ بِهْ والدهرُ لا يُغْتَرُّ بِهْ

وعلمت أنه كذا يُفعَل به. فاستأذنتُه في الحج فأذِنَ،فخرجت في سنة سبع وتسعين، وحجتُ خمسة أعوام وعدتُ إلى مصر وقد قتله،فجاءني أولادُه سرًّا يرومون الرجوع إليهم، فقلت لهم: خيرُ ما لي ولكم الهربُ، ولأبيكم ببغداد ودائعُ، خمسمائة ألف دينار، فاهربوا وأهرب. ففعلوا وفعلتُ، وبلغني قتلُهم بدمشق وأنا بطرابلس.

٤.٧ فدخلتُ إلى أنطاكِيَة وخرجت منها إلى مَلَطْية وبها المايَسْطرِيَّة، خَوْلة بنت سعد الدولة، فأقمت عندها إلى أن وَرَدَ عليّ كتابُ أبي القاسم فسِرت إلى ميافارقين فكان يُسِرُّ حَسْوًا في ارتغاء.

قال لي يوماً من الأيام: ما رأيتُكَ! قلت: أَعرَضَت حاجةٌ؟ قال: لا، أردت أن ألعنك. قلت: فالعنّي غائبًا! قال: لا، في وجهك أشفى! قلت: ولم؟ قال:لمخالَفَتك إياي فيما تعلم. وقلت له ونحن على أنس بيني وبينه:لي حُرُماتٌ ثلاث: البلدية، وتربية أبيه لي، وتربيتي لإخوته. قال: هذه حُرَمٌ مُهتَتَكَةٌ: البلدية نسب بين الجدران، وتربية أبي لك مِنَّةٌ لنا عليك، وتربيتك لإخوتي بالخِلَع والدنانير.

أردت أن أقول له: استَرَحْتَ من حيث تَعِبَ الكرام فخشيت جنون جنونه، لأنه كان جنونُه مجنوناً، وأصحُّ منه مجنونٌ، وأجنُّ منه لا يكون. وقد أُنشد:

جنونُك مجنونٌ ولستَ بواجدٍ طبيباً يداوي من جنونِ جنونِ

بل جُنَّ جِنّانه، ورقص شيطانه:

بـه جِنَّـةٌ مجـنونةٌ غيرَ أَنـها إذا حصـلَتْ منه أَلَبُّ وأَعقلُ

٥،٧ وقال لي ليلةً: أريد أن أجمع أوصاف الشمعة السبعة في بيت واحد وليس يسنح لي ما أرضاه. فقلتُ: أنا أفعل من هذه الساعة. قال: أنت جُذَيلها المحكَّك وعُذَيقها المُرَجَّب. فأخذتُ القلم من دواته وكتبت بحضرته:

لقد أَشبهتْني شمعةٌ في صبابتي وفي هَوَلٍ ما أَلقى وما أَتوقَّعُ
نحولٌ وحرقٌ في فَناءٍ ووحدةٍ وتسهيدُ عَيْنٍ واصفرارٌ وأَدمُعُ

فقال: كنتَ عملت هذا قبل هذا الوقت! فقلتُ: تمنعني سرعةَ الخاطر وتُعطيني عِلم الغيب؟ وقلت: أنت ذاكرٌ قول أبيك لي ولك وللبَتّيّ الشاعر وللمحسّن[1] الدمشقيّ، ونحن في الطارمة: اعملوا قطعةً قطعةً، فمن جوَّد جعلتُ جائزته كَتْبها فيها، فقلت:

بَلَغَ السماءَ سُمُوُّ بيـ ـتٍ شِيدَ في أَعلى مكانِ
بيتٍ علا حتى تغوَّ رَ في ذُراه الفرقدانِ
فانعَمْ به لا زلتَ مِنْ ريْبِ الحوادثِ في أَمانِ

فاستجاد سُرعتها وكتبها في الطارمة، وخلع عليّ.

١،٦،٧ وكان أبو القاسم ملولا، والمَلول ربما ملّ الملالَ، وكان لا يملّ أن يملّ، ويحقد حقد من لا تلين كَبِدُه، ولا تنحلّ عُقَدُه.

---

١ في النسخ: (ولمحسن).

وقال لي بعض الرؤساء معاتباً: أنت حقودٌ ولم يكن حقوداً. فقلت له: أنت لا تعرفه، والله ما كان يُحنى عُودُه، ولا يُرجَى عَوده. وله رأيٌ يُزَيّن له العُقوق، ويُمقّت إليه رعاية الحقوق، بعيد من الطبع الذي هو للصد صَدود، وللتآلف أَلوفٌ وَدود. كأنه من كِبره قد ركب الفلك واستوى على ذاتِ الحُبُك. ولست ممن يرغب في راغبٍ عن وصْلَته، أو ينزع إلى نازعٍ عن خُلَّته. فلما رأيته سادراً، جارياً في قلة إنصافي على غُلَوائه، حَوّتُ ذكره عن صفحة فؤادي، واعتددتُ وُدَّه فيما سال به الوادي:

ففي الناسِ إن رَثَّت حِبالُكَ واصلٌ وفي الأَرضِ عن دارِ القِلى مُتحوَّلُ

٢،٦،٧

وأنشدت الرجلَ أبياتاً أعتذر بها في قطعي له:

فلو كان منه الخيرُ إذ كان شَرُّه عتيداً، لقلنا: إن خيراً مع الشرِّ
ولو كان - إذ لا خيرَ - لا شرَّ عنده صَبَرْنا وقُلنا لا يَرِيشُ ولا يبْري
ولكنه شرٌّ ولا خيرَ عنده وليس على شرٍّ إذا دام من صَبْرِ

ونُغضي له - شهد الله - حيّاً ومَيّتاً، أوجبه أخذُه محاربَ الكعبة، الذهب والفضّة. وضربها دنانير ودراهم وسمّاها الكعبية، وأنهب العرب الرَّملة. وخرّب بغداد وكم دمٍ سفك، وحريم انتهك، وحُرّة أرمل، وصبيّ أيتم!

٨

وأنا معتذر إلى الشيخ الجليل من تقريظه مع تفريطي[١] فيه، لأنه قد شاع فضلُه في جميع البشر، وصار غُرّةً على جبهة الشمس والقمر. خُلّد ذلك في بدائع الأخبار، وكُتِبَ بسواد الليل على بياض النهار. وأنا في مكاتبة حضرته بمنظومٍ ومنثور، كمن أمدّ النار بالشرر، وأهدى الضوء إلى القمر، وصبّ في البحر جُرعةً، وأعار سير الفلك سُرعة، إذ كان لا يحلّ النقص بواديه، ولا يطور السهو بناديه.

١ في النسخ: (تقريظي).

ولقد سمعتُ من رسائله عقائل لفظٍ إن نعتُّها فقد عِبتُها، وإن وصفتُها فما أنصفتها. وأطربتْني - يشهد الله - إطراب السماع. وبالله لو صَدَرَت عن صدر مَن خِزانتُه وكتبه حوله، يُقلّب طرفه في هذا ويرجع إلى هذا - فإن القلم لسان اليد وهو أحد البلاغتين - لكان ذلك عجيباً صعباً شديداً. ووالله لقد رأيت علماء، منهم ابن خالَويه إذا قُرِئَت عليهم الكتب، ولا سيما الكبار، رجعوا إلى أصولهم كالمقابلين يتحفظون من سهو وتصحيف وغلط.

والعجب العجيب والنادر الغريب، حِفظُه - أدام الله تأييده - لأسماء الرجال والمنثور، كحفظ غيره من الأذكياء المبرّزين المنظوم، وهذا سهل بالقول صعب بالفعل، من سمعه طمع فيه، ومن رامه امتَنَعَت عليه معانيه ومبانيه.

١٠٩ حدّثني أبو علي الصِقلّيّ بدمشق قال: كنت في مجلس ابن خالَويه إذ وردت عليه من سيف الدولة مسائل تتعلّق باللغة، فاضطرب لها ودخل خِزانته وأخرج كتب اللغة، وفرّقها على أصحابه يُفتّشونها ليجيب عنها. وتركتُه وذهبت إلى أبي الطيّب اللُغَوي وهو جالس وقد وردت عليه تلك المسائل بعينها وبيده قلم الحُمْرة، فأجاب به ولم يُغَيِّره، قُدرةً على الجواب. وقال أبو الطيّب: قرأت على أبي عُمَرَ الفصيح وإصلاح المنطق حفظاً. وقال لي أبو عمر: كنت أُعلّق اللغة عن ثعلب على خَزَف، وأجلس على دِجلةَ أحفظها وأرمي بها.

٢٠٩ وأنا تعبت وحفظت نصف عمري، ونسيت نصفه. وذاك أني درست ببغداد وخرجت عنها وأنا طَرِيُّ الحفظ، ومضيت إلى مصر فأمرجتُ نفسي في الأغراض البهيمية، والأعراض المَوثمية، وأردت بزَعْمي وخديعة الطبع المُلِيم أن أذيقها حلاوة العيش، كما صبرتُ في طلب العِلم والأدب، ونسيت أن العلم غذاء النفس الشريفة وصيقل الأفهام اللطيفة. وكنت أكتب خمسين ورقة في اليوم، وأدرس مائتين، فصرت الآن أكتب ورقة واحدة وتحكّني عيناي حَكًّا مؤلِماً، وأدرس خمس أوراق وتكلّ.

ثم دُفعتُ إلى أوقات ليس فيها من يرغب في علم ولا أدب، بل في فضّة وذهب، فلو كنت إياساً صرت باقلاً. وأضع كتاباً عن يميني وأطلبه عن شمالي، وأريد مع ضعفي أرتاد لنفسي معاشاً بظهرٍ غير ظهير، بل كسير عقير، وصُلبٍ غير صليب، إن جلستُ فهو كالدُمّل، وإن مشيت فجُلّتي دماميل. ومعي بقيّة نزرة يسيرة من جملة كثيرة، لو وجدت ثقة أعطيته إياها ليعود عليّ بما أُرفّه به عن جسمي من الحركة، وقلبي من الشغل. وأنا أجد من أدفعها إليه وبقي أن يرُدّها إليّ!

٣،٩ دفع رجل إلى صديقٍ جاريةً أودعها عنده وذهب في سفره، فقال بعد أيام لمن يأنس به وتسكن نفسه إليه: يا أخي، ذهبتْ أمانات الناس، أودعني صديق لي جارية في حسابه أنها بِكرٌ، جرّبتُها فإذا هي ثيّب!

ومن طريف[1] الأخبار أن بنت أختي سرقت لي ثلاثة وثمانين ديناراً، فلما هدّدها السلطان – أطال الله بقاءه، ومدّ مدّته، وأدام سموّه ورفعته – وأخرجت إليه بعضها قالت: والله لو علمتُ أن الأمر يجري كذا، كنت قتلته فاعجبوا من هريستي وزَبوني!

١،١٠ والله لولا ضعفي وعجزي عن السفر لخرجت إليه متشرفاً بمجالسته ومحاضرته، فأما مذاكرته فقد يئستُ منها لما قد استولى عليّ من النسيان، واحتوى على قلبي من الهموم والأحزان. وإلى الله الشكوى لا منه، وليس يحسن أن أشكو من يرحمني إلى من لا يرحمني، وليس بحكيم من شكا رحيماً إلى غير رحيم.

وكان أبو بكر الشِبلي يقول: ليس غير الله غيرٌ، ولا عند غير الله خيرٌ. وقال يوماً: يا جواد! ثم أمسك مُفكّراً ورفع رأسه ثم قال: ما أوقحَني! أقول لك يا جواد، وقد قيل في بعض عبيدك:

ولو لم يكنْ في كَفّه غيرُ نفسِه لجاد بها فليتَّقِ الله سائلُهْ

[1] في كل الطبعات: (ظريف).

وقد قيل في آخر:

تـراه إذا مـا جـئتَه مُـتهـلّلا كأَنك مُعطيه الذي أَنتَ سائلُهْ

ثم قال: بلى، أقول: ياجواداً فاق كل جواد، وبجوده جاد من جاد.

ودخل ابن السَمّاك على الرشيد فقال له: عِظْني - وفي يد الرشيد كوز ماء. فقال: ٢،١٠
مهلاً يا أمير المؤمنين، أرأيتَ إن أقدرَ الله عليك مُقدِّراً فقال: لن أمكّنك من شربة إلا بنصف مُلكِك، أكنت فاعلاً ذلك؟ قال: نعم. قال: اشرب، هنّاك الله. فلما شرب قال: أرأيت يا أمير المؤمنين، أن لو أُسِفتَّ نفس هذا المقدَّر عليك فقال: لن أمكّنك من إخراج هذا الكوز إلا بأن استبدّ بملكك دونك، أكنت فاعلاً ذلك؟ قال: نعم. قال: فاتقِ الله في مُلكٍ لا يساوي إلا بَولةً.

وكيف أشكو من قاتني وعالني نيّفاً وسبعين سنة: كان قميصي ذراعين، فوكل بي ١،١١
والدَين حدبين مُشفقيْن، يتناهيان في دقته ورقته وطيبه، فلما صار اثني عشر ذراعاً تَوَلاه هو وطعامي، فما أجاعني قط ولا أعراني: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ خاطب ربّه بالأدب فقال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ فنسب المرض إلى نفسه، لأنها تنفر من الأعراض والأمراض. وكلّ شيء يطرأ على الإنسان لا يقدر على دفعه، مثل النوم واليقظة والضحك والبكاء والغم والسرور والخصب والجدب والغنى والفقر، فهو منه تقدّست أسماؤه. ألا ترى أنه لا يتوعّد على فعله، ولا يعاقب عليه؟ وما يقدر على دفعه فهو منه، مثل أن يريد الكتابة فلا يقع منه البناء، ويريد البناء فلا تقع منه الكتابة. ومن به الرعشة لا يقدر على إمساك يدٍ، ومن ليست به يقدر على إمساكها.

كنت بتنيّس وبين يديّ إنسان يقرأ ويُحرّن: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ﴾ ويبكي، فخطر ٢،١١
لي خاطر فقلت: أنا بضدّ هؤلاء القوم صلوات الله عليهم، أنا لا أنذر ولا أفي، ولا أخاف شقاء ولا عناء، ولوكنت أخاف ما أصبحت[١] محموماً، وكنته.

وحدّثني مَن أثق به ولا أتّهِمه، عن أبيه - وكان زاهداً - قال: كنت مع أبي بكر الشبلي ببغداد، في الجانب الشرقيّ بباب الطاق، فرأينا شاوياً قد أخرج حملاً من التنّور كأنه بُسْرة نضجاً، وإلى جانبه قد عمل حَلاوِيٌّ فالوذجا. فوقف ينظر إليهما وهو ساهٍ يُفكّر، فقلت: يا مولاي دعني آخُذ من هذا وهذا ورِقاقاً وخبزاً، ومنزلي قريب، تُشَرّفني بأن تجعل راحتك اليوم عندي. فقال: يا هذا، أظننتَ أني قد اشتهيتُهما؟ وإنما فكري في أن الحيوان كله لا يدخل النار إلا بعد الموت، ونحن ندخلها أحياء:

يا ربِّ عفوَكَ عن ذي شيبَة وَجِلٍ ... كأنّه من حذارِ النارِ مجنونُ
قد كان قدّم[٢] أفعالاً مُذمَّمَةً ... أيّامَ ليس له عقلٌ ولا دينُ

تمت الرسالة والحمد لله ذي الإفضال،[٣] وصلواته على محمد وخيرة الآل. ١٢

ما فرغتُ من السوداء حتى ثارت بي السوداءُ، وأنا أعتذر من خَطَل فيها أو زلل، فإن الخطأ مع الاعتذار والاجتهاد والتحرّي، موضوعٌ عن المخطئ:

ومَن ذا الذي يؤتى الكمالَ فيكملُ

قال عمر بن الخطّاب: رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبي.

وأسأله - أدام الله عزّه - تشريفي بالجواب عنها، فإن هذه الرسالة - على ما بها - قد استُحْسِنَت وكُتِبَت عني وسُمِعَت مني، وشرّفتُها باسمه، وطرّزتُها بذكره. والرسالة التي كتبها الزَهْرَجي إليّ، كانت أكبر الأسباب في دخولي إلى حلب. وإذا جاء جواب هذه، سيّرتُها بحلب وغيرها إن شاء الله، وبه الثقة، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وسلّم.

١ بياض في الأصل، والسياق يقتضي زيادة (إلا)، كما في ب. ٢ ب: (ذمّم). ٣ في كل الطبعات ما خلا كم: الأفضال.

رسالة الغفران

المجلّد الأوّل

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم يسّر وأعن

١،١ قد عَلِمَ الجَبْرُ الذي نُسب إليه جبرئيل، وهو في كلّ الخيْرات سبيل، أن في مَسْكَني حَماطةٌ ما كانت قطّ أفانِيَة، ولا الناكِزةُ بها غانِيَة، تُثْمر من مَوَدّة مولاي الشيخ الجليل، كبت الله عَدُوَّه، وأدام رَواحَه إلى الفضل وغُدوَّه، ما لو حملتْه العاليةُ من الشجر، لدَنَتْ إلى الأرض غصونُها، وأُذيلَ من تلك الثمرة مَصونُها.

والحَماطة ضربٌ من الشجر يقال لها إذا كانت رطْبة: أفانية، فإذا يبِست فهي حماطة. قال الشاعر:

إذا أمّ الوُليّد لم تطِعْني حنوتُ لها يدي بعَصا حَماطِ
وقلتُ لها عليكِ بني أُقَيْشٍ فإنكِ غيرُ مُعجِبة الشَّماطِ

وتوصَف الحماطةُ بإلفِ الحيّات لها، قال الشاعر:

أُتيحَ لها وكان أخا عِيالٍ شُجاعٌ في الحماطة مستكِنُّ

وأن الحماطة التي في مَقَرّي لَتجِد من الشوق حماطةً، ليست بالمصادَفة إماطة. والحماطة حُرقة القلب، قال الشاعر:

وهَمٍّ تُمْلأُ الأحشاءُ منه

فأما الحماطة المبدوء بها فهي حَبّة القلب، قال الشاعر:

رمتْ حماطةَ قلبٍ غير منصرفٍ عنها بأسْهُمِ لحْظٍ لم تكن غَرَبا

وأنّ في طِمِرّي لِحضْباً وُكّل بأذاتي، لو نطق لَذكر شَذاتي، ما هو بساكن في الشِّقاب، ولا بمتشرف على النِّقاب، ما ظهر في شتاء ولا صيف، ولا مرّ بجبل ولا خيف، يُضْمِر من محبّة مولاي الشيخ الجليل، ثبت الله أركان العلم بحياته، ما لا تُضمِره للولد أُمّ، أكان سمُّها يُذكر أم فُقد عندها السُّم. وليس هذا الحضب مجانساً للذي عناه الراجز في قوله:

وقد تطوّيتُ انطواءَ الحِضْبِ

٢،١ وقد علم، أدام الله جمالَ البَراعة بسلامته، أن الحِضْب ضرب من الحيات، وأنه يقال لحبّة القلب حضب. وأنّ في منزلي لأسْود، هو أعزُّ عليّ من عَنْتَرة على زَيبة، وأكرم عندي من السُّليك عند السُّلكة، وأحقُّ بإيثاري من خُفاف السُّلَميّ بخبايا نَدْبةَ وهو أبدًا محجوب، لا تُجاب عنه الأغْطِيةُ ولا يحجوب، لو قدر لسافر إلى أن يلقاه، ولم يَحِدْ عن ذلك لشقاءٍ يَشْقاه.

وإنه إذ يُذْكَر، ليؤنَّث في المنطق ويذكَّر، وما يُعلم أنه حقيقيُّ التذكير، ولا تأنيثُه المعتمد بنكير.

لا أفتأُ دائبًا فيما رَضي، على أنه لا مدفع لما قُضي. أُعظِمه أكثرَ من إعظام لَخْمِ الأسْودَ بن المُنْذِر وكِنْدةَ الأسْودَ بن مَعْدِ يكرِب، وبني نَهْشَل بن دارم الأسْود بن يَعْفُر ذا المقال المُطْرِب. ولا يَبْرَح مُولَعًا بذكره كإيلاع سُحَيْم بعُمَيْرَة في مَحْضَره ومَبْداه، ونُصيب مولى أُميّةَ بسُعْداه.

٣،١ وقد كان مِثلُه مع الأسْود بن رَمْعة، والأسْود بن عبد يَغوث والأسودين اللذيْن ذكرهما اليَشْكُري في قوله:

فهداهم بالأسودَيْنِ وأمرُ الله بَلْغٌ يَشْقى بـه الأشقياءُ

ومع أسوَدان الذي هو نَبْهان بن عمرو بن الغوْث بن طَيء، ومع أبي الأسود الذي ذكره امرؤ القيس في قوله:

وذلكَ من خبرٍ جاءني وَنُبِّئته عن أبي الأسْوَدِ

وما فارَقَه أبو الأسْود الدؤلي في عمره طَرْفةَ عين، في حال الراحة ولا الأين، وقارن سُوَيْد بن أبي كاهل يَرِدُ به على المَناهل. وحالَفَ سُويد بن الصامت، ما بين المبتهج والشامت. وساعَفَ سُويد بن صُمَيْع، في أيّام الرَّتَب والرَّبَع. وسُويد هذا الذي يقول:

إذا طلبوا مِني اليمين منحتُهم يميناً كبُرْد الأتْحَميّ الممزّقِ
وإن أحلفوني بالطّلاق أتيتُها على خيرِ ما كُنّا، ولم نتفرقِ
وإن أحلفوني بالعِتاق فقد درى عُبَيْدٌ غُلامي أنه غيرُ مُعْتَقِ

٤،١ وكان يألف فِراش سَودةَ بنت زَمْعة بن قيس امرأة النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويعرف مكانَه الرسولُ، ولا ينحرف عنه السُّول، ودخل الجَدَث مع سَوادة بن عَديّ، وما ذلك بزوْل بديّ، وحضر في نادٍ حَضَرَه الأسْودان اللذان هما الهَنَم والماء، والحَرّة الغابرة والظَّلْماء. وإنه لَيَنْفِرعن الأبيضيْن، إذا كانا في الرَّهَج معرَّضيْن، الأبيضان اللذان ينفر منهما: سيفان، أو سيف وسِنان، ويصبِر عليهما إذا وجدهما، قال الراجز:

الأبيضانِ أبردا عِظامي الماءُ والفَثُّ[1] بلا إدامِ

ويرتاح إليهما في قول الآخر:

ولكنه يمضي لِيَ الحوْلُ كلُّه وما لِيَ إلاّ الأبْيضيْن شرابُ

١ ب٤، إف، ق: (والفَتُّ).

فأمّا الأبيضان اللذان هما شحمٌ وشَباب، فإنّما تفرح بهما الرَبّاب، وقد يبتهج بهما عند غيري، فأمّا أنا فيئسا من خيري. وكذلك الأحامرة والأحمران، يجب لهما أسْودُ رانٍ، فيتبعه حليفُ سِترٍ، ما نزل به حادثُ هِتر.

٢ وقد وصلت الرسالة التي بحرُها بالحِكَم مسجور، ومن قرأها مأجور، إذ كانت تأمر بتقبُّل الشرع، وتَعيب من ترك أصلاً إلى فرع. وغرِقتُ في أمواجٍ بدَعها الزاخرة، وعجبتُ من اتّساق عقودها الفاخرة، ومثلها شَفَع ونَفَع، وقرّب عند الله ورفع. وألفيتُها مفتتحةً بتمجيدٍ، صدّر عن بليغٍ مُجيد، وفي قدرة ربّنا، جلَّت عَظَمته، أن يجعل كلّ حرف منها شَبَحَ نور، لا يمتزج بمقال الزُّور؛ يستغفر لمن أنشأها إلى يوم الدين، ويذكُره ذِكرَ محبٍّ خدين. ولعلّه، سبحانه، قد نصب لسطورها المُنجية من اللَّهب، معاريجَ من الفِضّة أو الذَّهب، تعرُج بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء، وتكشِف سجوفَ الظلماء، بدليل الآية: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾. وهذه الكلمة الطيّبة كأنها المَعْنيّة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ، أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ، تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها﴾. وفي تلك السطور كَلِمٌ كثير، كلّه عند الباري، تقدّس، أثير.

١،٣ فقد غُرِسَ لمولاي الشيخ الجليل، إن شاء الله، بذلك الثناء، شجرٌ في الجنة لذيذُ اجتناء، كلُّ شجرةٍ منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظِلٍّ غاطٍ، ليست في الأعيُن كذاتِ أنواطٍ. وذات أنواطٍ، كما يَعلم، شجرةٌ كانوا يعظّمونها في الجاهلية. وقد روي أن بعض الناس قال: يا رسول الله، اجعَلْ لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذات أنواطٍ، وقال بعض الشعراء:

لنا المُهَيْمِن يكْفِينا أعادِيَنا كما رفضْنا إليه ذاتَ أنواطِ

والولدان المخلَّدون في ظِلال تلك الشجر قِيام وقُعود، وبالمغْفِرة نِيلت السُّعود؛ يقولون، والله القادر على كلِّ عزيز: نحن وهذه الشجر صِلَة من الله لعليّ بن منصور، نُخْبَأ له إلى نفْخِ الصُّور. وتجري في أصول ذلك الشجر أنهارٌ تُختلَج من ماء الحيوان، والكوثَر يمُدُّها في كلّ أوان؛ من شرب منها النُّغْبة فلا موت، قد أمِنَ هنالك الفوْت. وسُعُدٌ من اللبن متخرِّقات، لا تُغيَّر بأن تطول الأوقات. وجَعافُر من الرحيق المختوم، عزَّ المقتدر على كلّ محتوم. تلك الراح الدائمة، لا الذميمة ولا الذائمة، بل هي كما قال عَلْقَمة مفتريًا، ولم يكن لعفْوٍ مقتريًا:

تشفي الصُّداعَ ولا يؤذيه صالبُها ولا يخالط منها الرأسَ تدويمُ

٢،٣ ويعمِد إليها المغترف بكؤوس من العَسْجَد، وأباريقَ خُلقت من الزَّبَرْجَد، ينظر منها الناظر إلى بَديّ، ما حلم به أبو الهِنْديّ، رحمه الله، فلقد آثَرَ شرابَ الفانية، ورغِب في الدّنية الدّانية. ولا ريْبَ أنه يروي ديوانَه، وهو القائل:

سيُغْنِي أبا الهِنْديّ عن وَطْبِ سالِمٍ أباريقُ لم يَعْلَقْ بها وَضَرُ الزُّبْدِ
مفدَّمةٌ قَرْنًا كأنّ رِقابَها رقابُ بناتِ الماء أفرعها الرَّعْدُ

هكذا يُنْشَد على الإقواء وبعضهم ينشد:

رقابُ بناتِ الماءِ رِيعت من الرعدِ

والرواية الأولى إنشادُ النحويين. وأبو الهندي إسلاميّ، واسمه عبد المؤمن بن عبد القدُّوس، وهذان اسمان شرعيان، وما استُشهد بهذا البيت إلا وقائلُه عند المستشهِد فصيح، فإن كان أبو الهنديّ ممن كتب وعرف حروفَ المعجم فقد أساء في الإقواء، وإن كان بنى الأبياتَ على السكون، فقد صحَّ قول سعيد بن مَسْعَدة في أن الطويل من الشِّعر له أربعةُ أضرُب.

ولو رأى تلك الأباريقَ أبو زُبَيْد لعلم أنه كالعبد الماهن أو العُبَيْد، وأنه ما تشبّب بخيرٍ، ورضي بقليل المِيْر وهَزئ بقوله: ٣٠٣

وأباريقُ مِثلُ أعناق طيرِ الـ ـماءِ قد جِيبَ فوقَهنّ خنيفُ

هيهات! هذه أباريقَ، تحِلها أباريق، كأنها في الحُسن الأباريق.

فالأُولى هي الأباريق المعروفة، والثانية من قولهم: جاريةٌ إبريقٌ، إذا كانت تبرق من حُسنها: قال الشاعر:

وغيداءَ إبريقٍ كأنّ رُضابها جَنى النحلِ ممزوجاً بصَهباءِ تاجرِ

والثالثة من قولهم: سيفٌ إبريقٌ، مأخوذ من البريق. قال ابن أحمر:

تقلدتَ إبريقًا وعلّقتَ جَعْبةً لتُهلِكَ حيًّا ذا رُهاءٍ وجاملِ

ولو نظر إليها علقمةُ لبرِق وفرِق، وظنَّ أنه قد طُرق، وأين يراها المسكينُ علقمةُ، ولعله في نار لا تَغِير، ماؤها للشارب وَغِيرٌ. ما ابن عَبَدةَ وما فريقُه؟ خُسِر وكُسِر إبريقُه! أليس هو القائل:

كأنَّ إبريقهم ظبيٌ برابيةٍ مجلَّلٌ بسَبا الكَتّان مفدومُ
أبيضُ أبرزه للضّحّ راقبُه مقلَّدٌ قُضُبَ الرَّيحان مفغومُ

نظرةٌ إلى تلك الأباريق، خيرٌ من بنت الكرْمة العاجلية ومن كل رِيقٍ، ضمِنتْه هذه الدارُ الخادعة، التي هي لكلّ شَمَمٍ جادعةٌ.

ولو بصر بها عَدِيّ بن زيد، لشغل عن المُدام والصَّيد، واعترف بأن أباريق مُدامه، وما أَدرك من شَرْب الحِيرة ونِدامه، أمرٌ هيّنٌ لا يُعدَل بنابتٍ من حَمَصيص، أو ما حَقُر من خَرْبَصيص.

٤،٣ وكنت بمدينة السّلام فشاهدتُ بعض الورّاقين يسأل عن قافيّة عَديّ بن زيد التي أوّلها:

بَكَرَ العاذلاتُ في غَلَس الصُّبـ ـحِ يعاتبنه أما تستفيقُ
ودعا بالصَّبوح فجرًا فجاءت قينةٌ في يمينها إبريقُ

وزعم الورّاق أن ابن حاجب النعمان سأل عن هذه القصيدة وطُلبت في نُسَخ من ديوان عديّ فلم توجد. ثمّ سمعتُ بعد ذلك رجلاً من أهل أستراباذ يقرأ هذه القافيّة في ديوان العِباديّ، ولم تكن في النسخة التي في دار العلم.

٥،٣ فأمّا الأُقَيْشِر الأسديّ فإنه مُني بقاشر، وشقي إلى يومٍ حاشر، قال ولعله سيندم، إذا تفرّى الأَدَم:

أفنى تِلادي وما جمّعتُ من نَشَبٍ قرعُ القواقيزِ أفواهَ الأباريقِ

ما هو وما شرابه؟ تقضَّت في الخائنة آرابُه. لو عاين تلك الأباريقَ لأيقن أنه فُتن بالغرور، وسُرَّ بغير مُوجِب للسرور. وكذلك إياس بن الأرتّ، إن كان عجب لأباريق كإوَزّ الطَّفّ، فإن الحوادث بسطتْ له أقبضَ كفّ. فكأنه ما قال:

كأنَّ أباريق المُدامة بينهم إوزٌّ بأعلى الطَّفّ عُوجُ الحناجرِ

ورحم الله العجّاج، فإنه خلط في رجزه العُلَبِط والسَّجاج، أين إبريقه الذي ذكر فقال:

قطَفَ من أعنابها ما قطَفا فغنَمَها حوْلين ثمّ استوْدفا
صهباءَ خُرطومًا عُقارًا قَرْقَفا فسَنَّ في الإبريق منها نُزَفا
من رَصَفٍ نازَعَ سيْلاً رَصَفا

٦،٣ وكم على تلك الأنهار من آنيةِ زَبَرْجَدٍ محفور، وياقوتٍ خُلق على خلق الفُور، من أصفر وأحمر وأزرق، يُخال إن لُمس أحرق، كما قال الصنوْبريُّ:

تخيَّلُه ساطعًا وهْجُه فتأبى الدُّنوَّ إلى وهْجِهِ

وفي تلك الأنهار أوانٍ على هيئة الطير السابحة، والغانية عن الماء السائحة، فمنها ما هو على صور الكَرَاكيّ، وأُخَر تُشاكل المكاكيّ، وعلى خلق طواويس وبَطّ، فبعضٌ في الجارية وبعضٌ في الشَّطّ، ينبُع من أفواهها شرابٌ، كأنه من الرِّقّة سَرابٌ، لو جرع جُرعةً منه الحَكَميُّ لحكم أنه الفوز القدَميُّ. وشهد له كلُّ وُصّاف الخمر، من محْدَثٍ في الزمن وعتيق الأمر، أنّ أصناف الأشربة المنسوبة إلى الدار الفانية، كخمر عانةَ وأذْرِعات، وهي مَظِنّةٌ للنُّغَات؛ وغزةَ وبيت راس والفِلَسطية ذوات الأحراس؛ وما جُلب من بُصْرى في الوسوق، تُبغى به المرابحة عند سوق، وما ذخره ابن بُجْرةَ بوَجّ، واعتمد به أوقاتَ الحجّ، قبل أن تُحرَّم على الناس القهوات، وتُحظَر لخوف الله الشهوات. قال أبو ذؤيب:

ولو أنَّ ما عند ابن بُجرةَ عندها من الخمر لم تبلُل لَهاتي بناطلِ

وما اعتُصر بصَرْخَد أو أرض شِبام لكلّ ملكٍ غير عَبام، وما تردَّد ذكره من كُميتِ بابل وصِريفين واتُّخذ للأشراف المُنيفين، وما عُمل من أجناس المسْكرات، مفوّقاتٍ للشارب وموكّرات، كالجعة والبِتْع والمِزْر والسُّكُركة ذات الوِزر، وما وُلد من النخيل، لكريمٍ يُعترف أو بخيل، وما صُنع في أيّام آدم وشِيثٍ، إلى يوم المبعث من معجَّلٍ أو مكيث، إذ كانت تلك النُّطفة مِلكةً، لا تصلح أن تكون برعاياها مشتبكة.

ويعارض تلك المدامة أنهارٌ من عسلٍ مصفًّى ما كسبته النحل الغادية إلى الأنوار، ولا هو في مُومٍ متوارٍ، ولكن قال له العزيز القادر: كُنْ فكان، وبكرمه أعطي الإمكان. واهاً لذلك عسلاً، لم يكن بالنار مُبْسَلا، لو جعله الشارب المحرور غذاءه طول الأبد ما قُدر له عارضُ مُوم، ولا لبس ثوب المحموم؛ وذلك كلُّه بدليل قوله: ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ﴾ فليت شعري عن النَّمِر ابن تَوْلَبٍ العُكْليّ، هل يقدر له أن يذوق ذلك الأَرْي، فيعلم أن شُهْد الفانيةِ إذا قيس إليه وُجد يشاكِهُ الشَّرْي؛ وهو لمّا وصف أمّ حِصْن، وما رُزقته في الدَّعة والأمن، ذكر حُوّارَى بسَمْن، وعسلٍ مصفًّى؛ فرحمه الخالق متوفًّى، فقد كان أسلم وروي حديثاً منفرداً، وحسبنا به للكلم مسرّداً. قال المسكين النمر:

ألِمّ بصُحبتي وهُمُ هجوعٌ خيالٌ طارقٌ من أمّ حِصْنِ
لها ما تشتهي عسلاً مصفّى إذا شاءت وحُوّارَى بسَمْنِ

٧،٣

وهو، أدام الله تمكينه، يعرف حكاية خَلَف الأحمر مع أصحابه في هذين البيتين، ومعناها أنه قال لهم: لو كان موضعَ أمّ حِصْن أمُّ حَفْص، ما كان يقول في البيت الثاني؟ فسكتوا، فقال: حوّارى بلَمْص، يعني الفالُوذ. ويفرّع على هذه الحكاية فيقال: لو

١،٨،٣

كان مكانَ أمّ حصن أمُّ جَزْء وآخره همزةٌ، ما كان يقول في القافية الثانية؟ فإنّه يحتمل أن يقول: وحوارى بكَشْء، من قولهم: كشأت اللحم إذا شويته حتى ييبَس، ويقال: كشأ الشواء إذا أكله. أو يقول بوَزْء، من قولهم: وزأت اللحم إذا شويته. ولو قال: حوّارى بنَسء لجاز وأحسن ما يُتأوّل فيه، أن يكون من نسأ اللهُ في أجله، أي لها خبزٌ مع طول حياة، وهذا أحسن من أن يُحمَل على أن النسء اللبنُ الكثير الماء، وقد قيل: إن النسء الخمر، وفسّروا بيت عُروة بن الوَرْد على الوجهين:

سقوني النّسءَ ثم تكنّفوني عُداةُ الله من كذبٍ وزُورِ

ولو حُمل حوّارى بنسء على اللبن أو الخمر لجاز، لأنها تأكل الحوّارى بذلك، أي لها الحوّارى مع الخمر، وقد حدّث محدّثٌ أنه رأى بَسيلَ[1] ملك الروم وهو يغمِس خبزًا في خمرٍ ويصيب منه.

ولو قيل: حوّارى بلَزء، من قولهم: لزأ إذا أكل لما بعُد، [وتكون الباء في بلزء بمعنى في].[2]

ولا يمكن أن يكون رويُّ هذا البيت ألفًا، لأنها لا تكون إلاّ ساكنة، وما قبل الرويّ هاهنا ساكنٌ، فلا يجوز ذلك.

فإن خرج إلى الباء فقال: من أمّ حرْب، جاز أن يقول: وحوّارى بصَرْب، وهو اللبن الحامض، ويجوز بإرْب، أي بعُضوٍ من شواءٍ أو قديد، ويجوز بكَشْب وهو أكل الشواء. ٢،٨،٣

فإذا قال: من أمّ صَمْت، جاز أن يقول: وحواري بكَمْت، يعني جمع تمرةٍ كُميت، وذلك من صفات التمر، وينشَد للأسود بن يعفُر:

وكنتُ إذا ما قُرِّب الزاد مُولَعًا بكلّ كُميتٍ جَلْدةٍ لم تَوَسَّفِ

وقال الآخر:

---

١ راجع ب عن اختلاف النسخ: (يسيل)، (يسبيل)، (بسل)، (أيسئل) وكلها تحريفات. ٢ هذه العبارة موجودة بهامش بعض النسخ وترجّحت بنت الشاطئ أن العبارة من أصل النصّ.

ولستُ أُبالي بعدما أكَلَتْ مِرْبَدي من التمر أن لا يُمطر الأرضَ كوكبُ

ويجوز وحُوّارى بِحَمْت، من قولهم: تمرٌ حمتٌ، أي شديد الحلاوة.

فإن أخرجه إلى الثاء فقال: من أمّ شَثّ، قال: وحوّارى بِثّ، والبثُّ: تمرٌ لم يُجَد كنزُه فهو متفرق.

فإن أخرجه إلى الجيم فقال: أمّ لُجّ، جاز أن يقول: وحوّارى بُدُجّ، والدُّجُّ: الفَرُّوج، جاء به العُمانيُّ في رجزه. ٣،٨،٣

فإن خرج إلى الحاء، فقال: من أمّ شُحّ، جاز أن يقول: وحوارى بِحُحّ، وبِيُحّ، وبِرُحّ، وبِحُحّ، وبِسُحّ. فالحُحُّ: محّ البيضة، وبِحٌّ: جمع أبحَّ، من قولهم: كِسرٌ أبحُّ، أي كثير الدّسَم، وقال:

وعاذلةٍ هبّت عليّ تلومني وفي كفّها كِسرٌ أبحُّ رَذومُ

ويجوز أن يُعنى بالبحّ القِداح، أي هذه المرأة أهلها أيسار، كما قال السُّلَميُّ:

قروا أضيافَهم رَبَحًا بِبُحّ يعيش بفضلهنّ الحيُّ سُمْرِ

ورُحٌّ: جمع أرحَّ، وهو من صفات بقر الوحش، أي يصاد لهذه المرأة، ويقال لأظلاف البقر: رُحٌّ، قال الشاعر الأعشى:

ورِحٌّ بالزّماع مردّفاتٌ بها تَنْضو الوَغَى وبها تَرودُ

والسُحُّ: تمرٌ صغار يابس. والبُحُّ: صغار البطيخ قبل أن ينضج. ٤،٨،٣

فإن قال: أمُّ دُخّ، قال: حوّارى بِمُخّ، ونحو ذلك.

فإن قال: أمّ سَعْد، قال: حوّارى بِثَعْد، وهو الرُّطَب الذي لا نوى كلُّه.

فإن قال: أمّ وَقْذ، قال: حوّارى بِشقْذ، وهي فراخ الحَجَل.

فإن قال: أمّ عمرو، فإنَّ أشبه ما يقول: حوّارى بتمر.

فإن قال: أمّ كُزّ، فإن أشبه ما يقول: وحوّارى بأُرْز، وفيه لغات ستّ: أَرُزٌّ على وزن أَشُدّ، وأُرِزّ على وزن صُمُلّ، وأُرُزٌّ على وزن شُغُل، وأُرْزٌ في وزن قُفْل، ورُزّ مثل جُدٍّ، ورُنْز، بنونٍ وهي رديئة.

فإن قال: أمّ ضِبْس، قال: وحوّارى بدِبْس. والعرب تسمّي العسل دبساً. وكذلك فسّروا قول أبي زُبيد:

فنهزةٌ من لقُوا حسبتُهُمُ أشهى إليه من بارد الدِّبِسْ[1]

حرّك للضرورة.

فإن قال: من أمّ قَرْش، جاز أن يقول: حوّارى بوَرْش، والورش: ضربٌ من الجُبن، ويجوز أن يكون مولّداً، وبه سمّي ورشٌ الذي يروي عن نافع واسمه عثمان بن سعيد.

والصاد قد مضت. ٥،٨،٣

فإن قال: أمّ غَرْض، جاز أن يقول: حوّارى بفَرْض، والفرض: ضربٌ من التمر، قال الراجز:

إذا أكلتُ لبناً وفَرْضا ذهبتُ طولاً وذهبتُ عَرْضا

وفي نَصبِ طُول وعَرض اختلافٌ بين المبرّد وسيبويه.

فإن قال: من أمّ لَقْط، جاز أن يقول: حوّارى بأَقْط، يريد أَقِط على اللغة الرَبَعية.

فإن قال: من أمّ حظْ، فإن الأطعمة تقلُّ فيها الظاء، كقلّتها في غيرها، لأن الظاء قليلةٌ جدّاً، ويجوز أن يقول: حوّارى بكَظْ، أي يكظّها الشِّبَع، أو نحو ذلك من الأشياء التي تدخل على معنى الاحتيال.

---

١ في البيت غموض ولعله محرّف.

فإن قال: أمّ طَلْع، جاز أن يقول: حوّارى بخَلْع، والخلع: هو اللحم الذي كان يُطبخ ويحملونه في القروف وهي أوْعِيةٌ من أَدَم، ويُنشَد: ٦،٨،٣

كُلي اللحم الغريض فإنَّ مزادي لَمِن خَلَعٍ تضمّنُه القُروفُ

فإن قال: أمّ فَرْع، جاز أن يقول: حوّارى بضَرْع، لأن الضروع تُطبخ، وربّما تطرب إلى أكلها الملوكُ.

فإن قال: أمّ مُبْغ، قال: حوّارى بصِبْغ، والصبغ ما تُغمس فيه اللقمة من مَرَقٍ أو زيت أو خلٍّ.

فإن قال: أمّ نَخْف، قال: حوّارى برَخْف، والرخف زُبدٌ رقيق، والواحدة رخفة، قال الشاعر:

لنا غَنَمٌ يُرضي النزيلَ حليبُها ورخفٌ يغاديه لها وذبيحُ

فإن قال: أمّ فَرْق، قال: حوّارى بعَرْق، والعرق: عظمٌ عليه لحمٌ من شواءٍ أو قديد.

فإن قال: أمّ سَبْك، جاز أن يقول: حوّارى برَبْك، أو بلَبْك، من قولهم: ربكت الطعامَ أو لبكته، إذا خلطته، وكان ذلك ممّا فيه رطوبةٌ، مثل أن يخالطه لبنٌ أو سمنٌ، أو نحو ذلك، ولا يقال: ربكت الشعيرَ بالحنطة، إلاّ أن يستعار.

فإن قال: أمّ نَخْل، قال: حوّارى برَخْل، يريد الأنثى من أولاد الضأن، وفيه أربع لغات: رَخِل ورَخْل ورِخْل ورِخِل. ٧،٨،٣

فإن قال: أمّ صِرْم، قال: حوارى بطِرْم، والطرم: العسل، وقد يسمّى السمن طِرماً.

وقد مضت النون في أمّ حِصْن.

فإن قال: أمّ دَوّ، قال: حوارى بحَوّ، والحَوُّ: الجدْي، فيما حكى بعض أهل اللغة في قولهم: ما يعرف حَوًّا من لَوٍّ، أي جَدْيًا من عَناقٍ.

فإن قال: أمّ كُرْه، قال: حوّارى بوُرْه، يريد جمع أوْرَه، من قولهم: كبْشٌ أوره، أي سمين.

فإن قال: أمّ شَرْي، قال: حوارى بأَرْي، أي عسل.

وهذا فصل يتّسع، وإنمّا عرض في قولٍ نامٍ، كخيال طرق في المنام.

١،٩،٣ ولو خالط مَنًا من عسل الجنان، وما خلقه الله، سبحانه، في هذه الدار الخادعة، كالصاب والمقَر والسَّلَع والجَعْدة والشِّيح والهَبيد، لعاد ذلك كلُّه، وغيره من المُعْقِيات، يُعَدُّ من اللذائذ المرتقيات، فآض ما كُره من الصَّاب، كأنه المعتصَر من المُصاب، والمصاب: قصب السكّر، وأمسى الحدَج وكأنه المتّخذ بالأهواز، إلّا يكُن السُّكَّر، فإنه موازٍ؛ ولصارت الراعية في الإبل، إذا وجدت الحنظلة أتحفتْ بها السيدةَ المُحَظَّلة، وهي التي تعظُم عليها الغَيْرة، من قولهم: حظل نساءه، إذا أفرط في الغيرة عليهنَّ، قال الراجز:

ولا ترى بعْلاً ولا حلائلا كَهُ ولا كَهُنَّ إلا حاظِلا

وانقطعت معايشُ أرباب القصب في ساحل البحر، وصُنع من المرّ الفالوذ المُحكم بلا سِحْر، أي بلا خَدْع.

٢،٩،٣ ولو أن الحارث بن كَلَدة طعِم من ذلك الطِّرْيَم لعلم أن الذي وصفه يجري من هذا المنعوت، مجرى الدِّفْلى الشّاقّة من الرِّعديد، ومَدوف ما يُكره من القنديد، وذكرتُ الحارث بقوله:

فما عَسَلٌ بباردِ ماءِ مُزنٍ على ظَمَإٍ لشاربه يُشابُ
بأشهى من لُقِيّكُمُ إلينا فكيف لنا به ومتى الإيابُ

وكذلك السَّلْوى التي ذكرها الهُذَلي هي عند عسل الجنّة كأنها قارٌ رَمْليّ، والقار: شجرٌ مُرّ ينبُت بالرَّمل، قال بشرٌ:

يُرَجُّون الصِّلاح[1] بذات كهفٍ وما فيها لهم سَلَعٌ وقارُ

وعنيتُ قول القائل:

فقاسمَها بالله جهدًا لأنتُمُ ألذُّ من السَّلوى إذا ما نَشورُها

١٠،٣ وإذا منّ الله تبارك اسمه بورود تلك الأنهار، صاد فيها الواردُ سمكَ حلاوةٍ لم يُرَ مثله في مُلاوة، لو بصُر به أحمد بن الحسين لاحتقر الهديّة التي أُهديت إليه فقال فيها:

أقلُّ ما في أقلّها سَمَكٌ يلعب في بِركةٍ من العَسَلِ

فأمَّا الأنهار الخمريّة، فتلعب فيها أسماكٌ هي على صُوَر السَّمك بحريّةٌ ونهريّة، وما يسكن منه في العيون النَّبعية، ويظفَر بضروب النَّبَت المرعيّة، إلا أنه من الذَّهب والفضّة وصنوف الجواهر، المقابَلة بالنُّور الباهر. فإذا مدّ المؤمن يده إلى واحدةٍ من ذلك السَّمك، شرب من فيها عذبًا لو وقعت الجرعة منه في البحر الذي لا يستطيع ماءه الشاربُ لحَلَتْ منه أسافلُ وغوارب؛ ولصار الصَّمَر كأنه رائحة خُزامى سهْلٍ، طلّتْه الداجنة بدَهْل، والدَّهل: الطائفة من اللَّيل، أو نشرُ مدامٍ خَوّارةٍ، سَيّارةٍ في القُلَل سَوّارة.

[1] ب، إف، ي: (الصَّلاح).

١٠٤ وكأني به، أدام الله الجمال ببقائه، إذا استحقَّ تلك الرُّتبة، بيقين التوبة، وقد اصطفى له نُدامى من أُدباء الفردوس: كأخي ثُمالةَ، وأخي دوْسٍ، ويونس بن حبيب الضَّبّيّ، وابن مَسْعَدةَ المُجاشعيّ، فهم كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ، لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ﴾ فصدر أحمد بن يحيى هنالك قد غُسل من الحِقْد على محمد بن يزيد، فصارا يتصافَيان ويتوافَيان، كأنها نَدْمانا جَذيمةَ: مالكٌ وعَقيل، جمعها مَبيتٌ ومَقيل.

وأبو بِشْر عمرو بن عثمان سيبويه، قد رُحضت سُويْداء قلبه من الضَّغْن على علي ابن حَمْزةَ الكِسائي وأصحابه، لما فعلوا به في مجلس البرامكة. وأبو عُبيدة صافي الطوية لعبد الملك بن قُريب، قد ارتفعت خُلّتهما عن الرَّيب، فهُما كأربدَ ولَبيد أَخَوانِ، أو ابني نُوَيْرةَ فيما سبق من الأوان، أو صَخْرٍ ومُعاويةَ ولديْ عمرو، وقد أخمدا من الإحَن كلّ جَمْر. ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدّارِ﴾ وهو أيَّد الله العلم بحياته، معهم كما قال البَكريُّ:

نارعتُهُم قُضُبَ الرّيحان مرتفِقاً ... وقَهوةً مُزَّةً راووقُها خَضِلُ
لا يستفيقون منها وهْي راهنةٌ ... إلا بِهاتٍ وإن عَلُّوا وإن نهلوا
يَسعى بها ذو زُجاجات له نُطَفٌ ... مقلّصٌ أسفلَ السربال معتِلُ
ومستجيبٌ لصوت الصَّنْج يَسمعه ... إذا تُرجّع فيه القينةُ الفُضُلُ

وأبو عُبيدة يذاكرهم بوقائع العرب ومَقاتل الفُرسان، والأصمعيُّ ينشدهم من الشعر ما أحسن قائلُه كلَّ الإحسان.

وتهَشّ نفوسُهم للَّعِب فيقذِفون تلك الآنية في أنهار الرحيق، ويصفّقها الماذيُّ المعترض أيّ تصفيق، وتقترع تلك الآنية فيُسمَع لها أصواتٌ، تُبْعَث بمثلها الأموات.

٢،٤ فيقول الشيخ، حسّن الله الأيّام بطول عمره: آه لمَصْرَع الأعشى ميمون وكم أعملَ من مَطيَّةٍ أَمون! ولقد وددتُ أنه ما صدّته قُريشٌ لمّا توجّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإنّما ذكرتُه الساعة لمّا تقارعتْ هذه الآنية بقوله في الحائيّة:

وشَمولٍ تحسب العينُ إذا صُفّقتْ جُنْدُعَها نَوْرَ الذُّبَحْ
مثل ريح المسك ذاكٍ ريحُها صبّها الساقي إذا قيل: تَوَحْ
من مَزاق التَّجْر في باطِيَةٍ جَوْنةٍ حاريّةٍ ذاتِ مَرَوَحْ
ذاتِ غَوْرٍ، ما تبالي يومَها غَرَف الإبريقُ منها والقَدَحْ
وإذا ما الراح فيها أزبدت أَفَلَ الإمزبادُ عنها فَصَحْ
وإذا مَكّوكها صادَمَه جانباها كرَّ فيها فسَبَحْ
فترامت بزجاجٍ مُعْمَلٍ يُخْلِف النَّامِزُ منها ما نَزَحْ
وإذا غاضت رفعْنا زِقَّنا طُلُقَ الأوداج فيها فانسَفَحْ

ولو أنه أسلم لجاز أن يكون بيننا في هذا المجلس، فينشدنا غريبَ الأوزان، ممّا نظم في دار الأحزان، ويحدّثنا حديثَه مع هَوْذة بن عليّ، وعامر بن الطُّفيل، ويزيد بن مُسْهِر وعلقمة بن عُلاثة، وسَلامة بن ذي فائش، وغيرهم ممّن مدحه أو هجاه، وخافه في الزمن أو رجاه.

١،٥ ثمّ إنه، أدام الله تمكينه، يخطِر له حديثُ شيءٍ كان يسمّى النُّزهة في الدار الفانية، فيركب نجيباً من نُجُب الجنّة خُلق من ياقوتٍ ودُرٍّ، في سَجْسَجٍ بعُد عن الحَرّ والقرّ، ومعه إناءُ فيْهج، فيسير في الجنّة على غير مَنهج، ومعه شيءٌ من طعام الخلود، ذُخر لوالد سعِدَ أو مولودٍ، فإذا رأى نجيبه يُمْلِع بين كُثبان العنبر، وضَيْمُرانٍ وُصِل بصَعْبِرٍ، رفع صوتَه متمثّلاً بقول البكريّ:

ليت شِعْري متى تخُبُّ بنا النا ... قةُ نحو العُذيب فالصّيْمُونِ
مُحْقِباً رُكْرةً وخُبْزَ رُقاقٍ ... وحِباقًا وقطعةً من نُونِ

يعني بالحباق جُرزة البَقل.

٢،٥ فيهتِف هاتفٌ: أتشعر أيّها العبد المغفور له لمن هذا الشّعر؟ فيقول الشيخ: نعم، حدّثنا أهل ثِقتنا عن أهل ثقتهم، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر، حتى يصِلوه بأبي عمرو بن العَلاء، فيرويه لهم عن أشياخ العرب، حَرَشةِ الضِّباب في البلاد الكَلَدات، وجُناةِ الكَمْأة في مَغاني البُداة، الذين لم يأكلوا شِيراز الألبان، ولم يجعلوا الثمر في الثِّبان، أنّ هذا الشعر لميْمون بن قيس بن جَنْدَلٍ أخي بني ربيعةَ بن ضُبيعة بن قيس بن ثَعْلَبة بن عُكابة بن صَعْب بن عليّ بن بكر بن وائلٍ. فيقول الهاتف: أنا ذلك الرَّجل، منّ الله عليَّ بعدما صِرتُ من جهنّم على شفير، ويئستُ من المغفرة والتكفير.

فيلتفت إليه الشيخ هَشّاً بَشّاً مرتاحاً، فإذا هو بشابٍّ غُرانِق غَبَرَ في النعيم المُفانق، وقد صار عَشاه حَوَراً معروفاً، وانحناءُ ظهره قَواماً موصوفاً، فيقول: أخبِرْني كيف كان خلاصُك من النار، وسلامتك من قبيح الشِّنار؟ فيقول:

سحبتني الزبانِيَةُ إلى سَقَر، فرأيت رجلاً في عَرَصات القيامة يتلألأ وجهه تلألؤ القمر، والناس يهتِفون به من كلّ أوْبٍ: يا محمّدُ يا محمّد، الشَّفاعةَ الشّفاعة! نمتُّ بكذا ونمتُّ بكذا. فصرختُ في أيدي الزبانية: يا محمّد أغِثْني فإنّ لي بك حُرمةً! فقال: يا عليُّ

بادرْه فانظُرْ ما حرمته. فجاءني عليُّ بن أبي طالبٍ، صلوات الله عليه، وأنا أُعْتَل كي أُلْقى في الدَّرَك الأسفل من النار، فزجرهم عني، وقال: ما حرمتك؟ فقلت: أنا القائل:

ألا أيهذا السائِلي أين يمّمتْ ... فإنّ لها في أهل يَثْرِبَ موْعِدا
فآليتُ لا أرثي لها من كَلالة ... ولا من حَفًى حتى تلاقي مُحَمّدا
متى ما تُناخي عند باب ابن هاشمٍ ... تُراحي وتَلْقَيْ من فواضله نَدا
أَجِدَّك لم تسمعْ وَصاةَ محمّدٍ ... نبيّ الإله حين أوْصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحَلْ بزادٍ من التُّقى ... وأبصرتَ بعد الموت من قد تزوَّدا
ندِمتَ على أن لا تكون كمثْله ... وأنك لمْ تُرْصِدْ لما كان أرصدا
فإيّاك والمَيْتاتِ لا تقربَنّها ... ولا تأخُذنْ سهماً حديداً لتقصِدا
ولا تقربَنَّ جارةً إنّ سِرَّها ... عليك حرامٌ فانكِحَنْ أو تأبّدا
نبيٌّ يرى مالا يرَوْن وذِكْره ... أغار لَعَمْري في البلاد وأنجدا

وهو، أكمل الله زينة المحافل بحضوره، يعرف الأقوال في هذا البيت، وإنّما أذكُرها لأنه ٣٠٥
قد يجوز أن يقرأ هذا الهَذَيان ناشئٌ لم يبلُغه: حكى الفرّاء وحدَه أغار في معنى غار، إذا أتى الغوْر، وإذا صحّ هذا البيت للأعشى فلم يُرِدْ بالإغارة إلا ضدَّ الإنجاد. ورُوي عن الأصمعيّ روايتان: إحداهما أنّ أغار في معنى عَدا عَدْواً شديداً، وأنشد في كتاب الأجناس:

فعَدِّ طِلابهَا وتَسَلَّ عنه ... بناجيةٍ إذا رُجِرتْ تُغِيرُ

والأخرى أنه كان يقدّم ويؤخّر فيقول: لعمري غار في البلاد وأنجدا، فيجيء به على الزِّحاف. وكان سعيد بن مَسْعَدة يقول: غار لعمري في البلاد وأنجدا، فيَحْرمه في النصف الثاني.

٤،٥ ويقول الأعشى: قلت لعليٍّ: وقد كنت أُومن بالله وبالحساب وأصدّق بالبعث وأنا في الجاهليّة الجَهْلاء، فمن ذلك قولي:

فما أَيْبُليٌّ على هيكلٍ بناه وصلَّب فيه وصارا
يراوح من صلوات المليـ ـكِ طوْرًا سجودًا وطوْرًا جؤارا
بأعْظمَ منك تُقًى في الحسابِ إذا النَّسَماتُ نفضْن الغُبارا

فذهب عليٌّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، هذا أعشى قيسٍ قد رُوي مدحُه فيك، وشهِد أنك نبيٌّ مُرْسَلٌ. فقال: هلاّ جاءني في الدار السابقة؟ فقال عليٌّ: قد جاء، ولكن صدَّته قريشٌ وحبُّه للخمر. فشفع لي، فأُدخلتُ الجنّة على أن لا أشرب فيها خمرًا؛ فقرّت عيناي بذلك، وإنّ لي مَنادحَ في العسل وماء الحيوان. وكذلك من لم يتُبْ من الخمر في الدار الساخرة، لم يُسقَها في الآخرة.

١،٥،٥ وينظر الشيخ في رياض الجنّة فيرى قصرَيْن مُنيفيْن، فيقول في نفسه: لأبلغنَّ هذين القصرين فأسأل لمن هما. فإذا قرُب إليهما رأى على أحدهما مكتوبًا: هذا القصر لزُهير بن أبي سُلْمى المُزَني وعلى الآخر: هذا القصر لعَبيد بن الأبرص الأسديّ فيعجب من ذلك ويقول: هذان ماتا في الجاهليّة، ولكنَّ رحمة ربنا وسِعت كلَّ شيء؛ وسوف ألتمس لقاء هذين الرجلين فأسألهما بم غُفر لهما.

٢،٥،٥ فيبتدئ بزهير فيجده شابًّا كالزَّهْرة الجنيّة، قد وُهب له قصرٌ من ونيَّة، كأنه ما لبس جِلباب هَرَمٍ، ولا تأفَّف من البَرَم. وكأنه لم يقل في الميميّة:

سئمتُ تكاليفَ الحياة ومن يعِشْ ثمانين حولاً لا أبا لكَ يسأمِ

ولم يقل في الأخرى:

ألم ترني عُمِّرتُ تسعين حِجّةً وعَشْرًا تِباعًا عشْتُها وثمانيا

فيقول: جيّر جيّر! أنت أبو كعب وبُجير؟ فيقول: نعم. فيقول، أدام الله عزّه: بم غُفر لك وقد كنتَ في زمان الفَترة والنّاس هَمَلٌ، لا يحسُن منهم العمل؟ فيقول: كانت نفسي من الباطل نَفوراً، فصادفتُ مَلِكاً غَفوراً، وكنت مؤمناً بالله العظيم، ورأيت فيما يرى النائم حبلاً نزل من السَّماء، فمن تعلّق به من سُكّان الأرض سلِم، فعلمت أنه أمرٌ من أمر الله، فأوصيتُ بَنيَّ وقلت لهم عند الموت: إن قام قائمٌ يدعوكم إلى عبادة الله فأطيعوه. ولو أدركتُ محمّداً لكنت أوّلَ المؤمنين. وقلت في الميمية، والجاهليّة على السّكِنة والسَّفَه ضاربٌ بالجِران:

فلا تكتُمُنّ اللهَ ما في نفوسكمْ ... ليَخْفى ومهْما يُكْتَمِ اللهُ يَعلمِ
يؤخَّرْ فيوضَعْ في كتابٍ فيُدَّخرْ ... ليوم الحساب أو يعجَّلْ فيُنقَمِ

فيقول: ألست القائل:

وقد أغدو على ثُبَةٍ كرامٍ ... نَشاوى واجدين لما نشاءُ
يجُرُّون البرودَ وقد تمشَّتْ ... حُمَيّا الكأس فيهمْ والغِناءُ

أفأُطلقتْ لك الخمرُ كغيرك من أصحاب الخلود؟ أم حُرّمتْ عليك مثلما حُرّمت على أعشى قيسٍ؟ فيقول زهيرٌ: إن أخا بكرٍ أدرك محمّداً فوجبت عليه الحُجّة، لأنه بُعث بتحريم الخمر، وحظْرِ ما قَبُح من أمر؛ وهلكتُ أنا والخمر كغيرها من الأشياء، يشربها أتباع الأنبياء، فلا حجّة عليَّ.

٣،٥،٥ فيدعوه الشيخ إلى المنادمة، فيجده من ظِراف النُّدَماء، فيسأله عن أخبار القُدَماء. ومع المِنْصَف باطِيَةٌ من الزُّمُرُّد، فيها من الرَّحيق المختوم شيءٌ يُمزج بزَنْجَبيل، والماء أُخذ من سَلْسَبيل. فيقول، زاد الله في أنفاسه: أين هذه الباطية من التي ذكرها السَّرَويُّ في قوله:

ولنا باطيةٌ مملوءةٌ جَونةٌ يتْبعها بِرْزِينُها[1]
فإذا ما حاردتْ أو بكأتْ فُتَّ عن خاتَمِ أُخرى طينُها

١ ب، إف، ق: (بَرْذينُها) تحريف.

ثم ينصرف إلى عَبيد فإذا هو قد أُعطي بقاءَ التأبيد،[1] فيقول: السلام عليك يا أخا بني أسدٍ. فيقول:وعليك السلام، وأهل الجنة أذكياء، لا يخالطهم الأغبياء، لعلّك تريد أن تسألني بم غُفر لي؟ فيقول: أجلْ، وإنّ في ذلك لَعَجَبًا! أألفيتَ حُكمًا للمغفرة مُوجِباً، ولم يكن عن الرَحمة مُجنّباً؟ فيقول عبيدٌ: أُخبرك أني دخلت الهاويةَ، وكنت قلت في أيّام الحياة: ١،٦

من يسألِ الناس يَحْرِموه وسائلُ الله لا يخيبُ

وسارهذا البيت في آفاق البلاد، فلم يزل يُنشَد ويخفُّ عني العَذاب حتى أُطلقتُ من القيود والأصفاد، ثم كُرِّر إلى أن شملتني الرحمة ببركة ذلك البيت، ﴿وَإِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فإذا سمع الشيخ، ثبّت الله وطأته، ما قال ذانِك الرّجلان، طمِع في سلامةٍ كثير من أصناف الشعراء.

فيقول لعبيدٍ: ألك علمٌ بعَديّ بن زيدٍ العِباديّ؟ فيقول: هذا منزلُه قريباً منك. فيقف عليه فيقول: كيف كانت سلامتُك على الصِّراط ومَخْلَصك من بعد الإفراط؟ فيقول: إنّي كنت على دين المسيح ومن كان من أتباع الأنبياء قبل أن يُبعَث محمد فلا بأس عليه، وإنّما التَّبِعة على مَن سجد للأصنام، وعُدّ في الجَهَلة من الأنام. فيقول الشيخ: يا أبا سَوادة، ألا تُنشدني الصاديّة، فإنها بديعة من أشعار العرب. فينبعث منشداً: ١،٢،٦

أبلِغْ خليلي عبدَ هِندٍ فلا زلْتَ قريبًا من سَواد الخُصوصْ
مُوازيي الفُورة أو دونها غيرَ بعيدٍ من غُمير اللُّصوصْ
تُجْنَى لك الكمْأةُ رَبْعيّة بالحَبّ تندَى في أصُول القَصيصْ
تَقْنِصك الخيلُ وتصطادك الـ ـطيرُ ولا تُكْعَم لهْوَ القنيصْ

[1] ب٤، إف، ق: (التأييد) وهو تحريف.

تأكل ما شئتَ وتعتلُّها حمراءَ مِلْحُصّ كلوْن الفُصوصْ
غُيّبتَ عِنّي عبدُ في ساعة الـ ـشَّرّ وجُنّبتَ أوانَ العويصْ ٢،٢،٢،٦
لا تنسَيَنْ ذِكْرِي على لذّة الـ ـكأس وطوْفٍ بالحَذوف النَّحوصْ
إنّك ذو عهدٍ وذو مَصْدَقٍ مُخالفًا هَدْيَ الكَذوب اللّموصْ
يا عبدُ هل تذكُرُني ساعةً في موْكبٍ أو مرائدًا للقنيصْ
يومًا مع الرَّكْب إذا أوفضوا نَرفع فيهمْ من نَجاء القَلوصْ
قد يُدْرك المبْطئُ من حظّه والخيرُ قد يسْبِق جهْدَ الحريصْ
فلا يزلْ صدرُك في رِيبَةٍ يذكر مِنّي تَلَفي أو خُلوصْ
يا نفسِ أبْقِي واتّقي شتْمَ ذي الـ ـأعراض إنّ الحِلْم ما إن يَنوصْ
يا ليت شِعْري وانَ ذو عَجّةٍ متى أرى شَرْبًا حَوالَيْ أصيصْ ٣،٢،٢،٦
بيتِ جلوفٍ بامردٍ ظلُّه فيه ظِباء ودواخيلُ خوصْ
والرَّبرب المكفوف أردانُه يمشي رُويْدًا كتوقّي الرَّهيصْ
ينفَخ من أردانه المِسْكُ والـ ـعَنْبر والغَلْوى ولُبْنى قَفوصْ
والمَشْرِف المشمول نُسقَى به أخضرَ مطموثًا بماء الخريصْ
ذلكُ خيرٌ من فُوجٍ على الـ ـسباب وقَيْدَيْن وغُلٍّ قَروصْ
أو مرتقى نِيقٍ على نِقْنِقٍ أدْبرَ عوْدٍ ذي إكافٍ قَموصْ
لا يُثْمِن البيعَ ولا يَحْمل الـ ـرِّدفَ ولا يُعْطى به قلبُ خوصْ
أو من نسورٍ حول موْتًى معًا يأكلن لحْمًا من طريّ الفريصْ

فيقول الشيخ: أحسنتَ والله أحسنت، لوكنتَ الماء الراكد لما أسنْت. وقد عمل أديبٌ من أدباء الإسلام قصيدة على هذا الوزن، وهو المعروف بأبي بكر بن دُريدٍ، قال: ٣،٦

يسعَد ذو الجَدِّ ويشْقى الحريصْ ليس لخلْقٍ عن قضاءٍ مَحيصْ

ويقول فيها:

أين ملوك الأرض من حِمْيَرٍ أكرَمُ مَن نُصَّت إليهم قَلوصْ
جيفَرٌ الوهّاب أوْدى به دهرٌ على هدْم المَعالي حريصْ

إلا أنك يا أبا سَوادة أحرزت فضيلة السَّبق.

وما كنت أختار لك أن تقول: يا ليت شعري وانَ ذو عَجَّةٍ، لأنك لا تخلو من أحد أمرَيْن: إمّا أن تكون قد وصلتَ همزةَ القطع وذلك رديء، على أنهم قد أنشدوا:

إن لم أقاتِلْ فالْبِسوني بُرقُعًا وفَخَّاتٍ في اليدينِ أربعا

ويزيد ما فعلتَ من إسقاط الهمزة بُعدًا أنك حذفتَ الألف التي بعد النون، فإذا حُذفت الهمزةُ من أوّل الكلمة بقيتْ على حرفٍ واحدٍ، وذلك بها إخلال. وإمّا أن تكون حقَّقتَ الهمزة فجعلتها بيْنَ بيْنَ، ثم اجترأت على تصييرها ألفًا خالصةً، وحسْبُك بهذا نقضًا للعادة، ومثل ذلك قول القائل:

يقولون: مهلاً ليس للشيخ عيِّلٌ فها أنا قد أعْيَلتُ وانَ رَقوبُ

ولو قلت: يا ليت شعري أنا ذو عجّةٍ بحذفتَ الواو، لكان عندي أحسن وأشبه. فيقول عَديُّ بن زيد: إنّما قلت كما سمعتُ أهل زمني يقولون، وحدثتْ لكم في الإسلام أشياءُ ليس لنا بها علم، فيقول الشيخ: لا أراك تفهم ما أريده من الأغراض، ولقد هممت أن أسألك عن بيتك الذي استشهد به سيبويه، وهو قولك:

أمَرواحٌ مودَّع أمْ بُكورُ أنت فانظرْ لأيِّ حالٍ تصيرُ

فإنه يزعم أنّ أنت يجوز أن يرتفع بفعلٍ مُضْمَرٍ يفسّره قولك: فانظر، وأنا استبعد هذا المذهب ولا أظنُّك أردتَه. فيقول عديّ بن زيدٍ: دعْني من هذه الأباطيل، ولكني كنت في الدار الفانية صاحب قَنْص.

ولعلّه قد بلغك قولي: ١،٤،٦

ولقد أغدوا بطِرْفٍ مزانَه ... وجهُ منزوفٍ وخدٌّ كالمِسَنّ
ذي تليلٍ مُشْرِقٍ قائدَه ... يَسَرٍ في الكفِّ نَهْدٍ ذي غُسَنّ
مُدْمَجٍ كالقِدْح لا عيبَ به ... فيُرى فيه ولا صَدْع أُبَنّ
رمَّه البارِي فسوّى دَرْأَه ... غَمْزُ كفّيه وتخليقُ السَّفَنّ
أيُّ ثغرٍ ما يُخَفْ يُنْدَب له ... ومتى يُخْلَ من القوْد يُصَنّ
كربيب البيت يَفْري جُلَّه ... طاعةُ العُضّ وتسحير اللَّبَنّ
فبلغْنا صنْعَه حتى شتا ... ناعمَ البال لَجوجاً في السَّنَنّ
فإذا جال حمارٌ مُوحِش ... ونَعام نافرٌ بعد عَنَنّ
شاءنا ذو ميْعةٍ يُبْطِرنا ... خَمَرَ الأرضِ وتقديمَ الجُنَنّ
يرأب الشدَّ بسَيْحٍ مُرْسَلٍ ... كاحتفال الغيث بالمرّ اليَفَنّ
أنسلَ الذِّرعانَ غَرْبٌ خَذِمٌ ... وعلا الرَّبربَ أزمٌ لم يُدَنّ
فالذي يُمْسكه يحمَده ... تَئِقٌ كالسِّيد ممتدُّ الرَّسَنّ
وإذا نحن لدينا أربعٌ ... يهتدي السائلُ عنّا بالدَّخَنّ

وقولي في القافية: ٢،٤،٦

ومَجُودٍ قد اسْجَهرَّ تناويـ ... ـرَ كلون العهون في الأعلاقِ
عن خريف سقاه نوءٌ من الدَّلْـ ... ـوِ تدَلّى ولم تَوارَ العَراقي
لم يعبْه إلا الأداحي فقدْ وبّـ ... ـرَ بعضُ الرِّئال في الأفلاقِ
وإرانُ الثِّيران حول نِعاجٍ ... مُطْفَلاتٍ يَحْمين بالأرواقِ
وتراهن كالأعِزّة في المَحْـ ... ـفِل أو حين نَعمةٍ وارتفاقِ
قد تبطّنْتُه بكُفْءٍ خِرّيـ ... ـجٍ من الخيل فاضلٍ في السِّباقِ
يَسَرٌ في القياد نهْدٌ ذفيف الـ ... ـعَدْو عبلُ الشَّوى أمين العُراقِ

لم يقيّل حرَّ المقيظ ولم يُلِ ـجَمْ لطوفٍ ولا فسادِ نزاقِ
غيرَ تيسيره لرغباءَ إن كا نت وحربٍ إن قلّصتْ عن ساقِ
وله النَّجمة المريُّ تجاهَ الـ ـرُّكْبِ عِدْلاً بالنابئ المِخراقِ
والخِدَبُّ العاري الزَّوائد مِلْحَفّـ ـانِ داني الدِّماغ للآماقِ

٥،٦ فهل لك أن نركب فَرَسيْن من خيل الجنّة فنبعثهما على صِيرانها، وخِيطان نَعامها، وأسراب ظِبائها، وعانات حُمُرها؟ فإن للقنيص لذّة قد تنغضتُ[١] لك بها. فيقول الشيخ: إنّما أنا صاحب قلَم وسَلِمَ، ولم أكن صاحب خيل، ولا ممَّن يسحَب طويل الذيل، وزرتُك إلى منزلك مهنّئا بسلامتك من الجحيم، وتنعُّمك بعفو الرحيم. وما يؤمِنني إذا ركبتُ طِرفًا زَعِلاً رَتَعَ في رياض الجنّة فآض من الأَشَرِ مستعلاً، وأنا كما قال القائل:

لم يركبوا الخيل إلّا بعْدما كبِروا فهمْ ثِقالٌ على أكْتافها عُنُفُ

أن يَلحقني ما لحِق جَلَمًا صاحب المتجرِّدة لمّا حُمل على اليحْموم، والتَّعرض لما لم تسبق به العادةُ من المُوم، وقد بلغك ما لقِي ولد زُهيرٍ، لمّا وُقص عن العَتِد ذي المِرّ، فسلك في طريق وَعْبٍ، وما انتفع ببُكاء كَعْب؛ وكذلك ولدك عَلْقمة، حلَّت في العاجلة به النَّقِمة، لمّا ركِب للصَّيد، فأصبح بجَدِّه زيد، وقلت فيه:

انعَمْ صَباحًا علقمَ بن عديّ أثَويتَ اليومَ لم ترحَلْ

وإنّي لأَحارُ يا مَعاشرَ العرب في هذه الأوزان التي نقلها عنكم الثقات، وتداولتها الطبقات؛ ومن كلمتك التي على الراء، وأوّلها:

١ في النسخ: (تنغصت) كما في إف، ق، ي و(تنقصت).

قد آن أن تصحوَ أو تُقصِرْ وقد أتى لِما عهِدتَ عُصُرْ
عن مُبرِقات بالبُرِينَ وتَبْ ـدو بالأُكُفّ اللامعات سُوُرْ
بِيضٌ عليهنَّ الدِّمَقْس وبالـ ـأعناق من تحْتِ الأَكِفّة دُرَرْ

ويجوز أن يقذِفني السابح على صخور رُمُرٍ فيكسِر لي عَضُدًا أو ساقًا، فأصيرَ ضُحكةً في أهل الجنان.

٦،٦ فيتبسَّم عديّ ويقول: ويحك! أما علمتَ أنّ الجنة لا يُرهَب لديها السَّقَم،ولا تنزل بسَكَنها النِّقَم؟ فيركبان سابحيْن من خيل الجنة، مَركَبُ كلِّ واحدٍ منهما لو عُدل بممالك العاجلة الكائنة من أوّلها إلى آخرها لرجح بها، وزاد في القِيمة عليها. فإذا نظر إلى صِوار ترتَع في دَقاري الفردوس، والدَّقاريُّ: الرياض، صوّب مولاي الشيخُ المِطْرَد، وهو الرُّمح القصير، لأخنس ذَيّال، قد رتع هناك طويلَ أيام وليال؛ فإذا لم يبق بين السِّنان وبينه إلا قيدُ ظُفرٍ، قال: أمسِكْ، رحمك الله، فإني لست من وحْش الجنة التي أنشأها الله سبحانه ولم تكن في الدار الزائلة، ولكني كنت في محلة الغرور أرُود في بعض القِفار، فمرَّ بي ركْبٌ مؤمنون قد كرِيَ زادُهم، فصرعوني واستعانوا بي على السَّفَر، فعوّضني الله، جلَّت كلمته، بأن أسكنني في الخلود. فيكُفُّ عنه مولاي الشيخ الجليل.

ويعمِد لعِلْجٍ وحشيٍّ، ما التَّلَفُ عنده بمخشيّ، فإذا صار الحِرصُ منه بقدْر أُنمُلة قال: أمسِكْ يا عبد الله، فإن الله أنعم عليَّ ورفع عني البؤس، وذلك أني صادني صائد بِمخْلَب، وكان إهابي له كالسَّلَب، فباعه في بعض الأمصار، وصراه للسَّانية صارٍ، فاتُّخذ منه غرْبٌ، شُفي بمائه الكَرْب، وتطهّر بنزيعه الصالحون، فشملتْني بركةٌ من أولئك، فدخلتُ الجنّة أُرزَقُ فيها بغير حساب.

فيقول الشيخ: فينبغي أن تتميّزن، فما كان منكنَّ دخل الفانية فما يجب أن يختلط بوحوش الجنّة. فيقول ذلك الوحشيُّ: لقد نصحتَنا نُصْح الشفيق، وسوف نمتثل ما أمرتَ.

١٠٧ وينصرف مولاي الشيخ الجليل وصاحبه عديّ فإذا هما برجلٍ يحتلب ناقةً في إناءٍ من ذهب، فيقولان: من الرَّجل؟ فيقول: أبو ذؤيب الهُذَليُّ. فيقولان: حُيِّيت وسعِدتَ، لا شقِيتَ في عيشك ولا بعدت، أتحتلب مع أنهار لبن؟ كأنّ ذلك من الغَبَن. فيقول: لا بأس! إنما خطر لي ذلك مثلما خطر لكما القنيص، وإني ذكرت قولي في الدهر الأول:

وإنّ حديثًا منكِ لو تعليـنه جَنى النَّحل في ألبان عُوذٍ مَطافلِ
مطافيلَ أبكارٍ حديثٍ نتاجُها تُشاب بماءٍ مثلِ ماء المفاصلِ

فقيَّض الله بقُدرته لي هذه النّاقة عائذًا مطفلًا، وكان بالنِّعَم متكفّلًا، فقمت أحتلب على العادة، وأريد أن أشوب ذلك بضَرْب نحلٍ، تَبْغِي في الجنّة طريقة النحل.

فإذا امتلأ إناؤه من الرّسل، كوّن الباري، جلّت عظمته، خليّةً من الجوهر، رتع ثوّلُها في الزَّهَر، فاجتنى ذلك أبو ذؤيب، ومزج حليبه بلا ريب، فيقول: ألا تشربان؟ فيجرَعان من ذلك المحلَب جُرَعًا، لو فُرّقت على أهل سَقَر لفازوا بالخُلد شَرَعًا. فيقول عديُّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ. لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ. وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ، أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

٢٠٧ ويقول، أدام الله تمكينه، لعديّ: جئت بشيئين في شعرك وددتُ أنك لم تأت بهما، أحدهما قولك:

فصافَ يُفرّي جُلَّه عن سَراته يَبُذُّ الرِّهانَ فارهًا متشابعا

والآخر قولك:

فليْتَ دفعتَ الهمَّ عنّي ساعةً فنُمسي على ما خيَّلتْ ناعمَيْ بالِ

فيقول عديّ بعَباديته: يا مكبور، لقد رُزقتَ ما يَكِبُ أن يشغلك عن القريض، إنما ينبغي أن تكون كما قيل لك: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. قوله يامكبور، يريد: يا مجبور، فجعل الجيم كافًا، وهي لغةٌ رديئةٌ يستعملها أهل اليمن. وجاء في بعض الأحاديث أن الحارث بن هانئ بن أبي شَمِر بن جَبَلة الكِنْدي استُلحم يومَ ساباطَ فنادى: يا حُكَر يا حُكَر، يريد: يا حُجْر بن عديّ الأدبر. فعطف عليه فاستنقذه. ويَكِب في معنى يَجِب. فيقول، زاد الله في أنفاسه: إنّي سألتُ ربّي عزّ سلطانه، ألا يحرمني في الجنّة تلذُّذًا بأدبي الذي كنت أتلذّذ به في عاجلتي، فأجابني إلى ذلك، ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾.

٣٠٧ ويمضي في نُزْهته تلك بشابَّيْن يتحادثان، كلُّ واحدٍ منهما على باب قصرٍ من دُرٍّ، قد أُعفي من البؤس والضُّرّ. فيسلّم عليهما ويقول: من أنتما رحمكما الله، وقد فعل؟ فيقولان: نحن النابغتان، نابغةُ بني جَعْدةَ ونابغةُ بني ذُبْيان. فيقول، ثبَّت الله وطأته: أمّا نابغةُ بني جعدة فقد أستوجب ما هو فيه بالحنيفيّة، وأمّا أنت يا أبا أُمامةَ فما أدري ما هَيّانُك،[1] أي ما جِهَتك، فيقول الذُّبياني: إني كنت مُقِرًّا بالله، وحجّت البيت في الجاهليّة، ألم تسمع قولي:

فلا لَعَمْرُ الذي قد زرْتُه حِجَجًا ... وما هُريقَ على الأنصاب من جَسَدِ
والمؤمنِ العائذات الطيرِ تمسَحها ... رُكبانُ مكّةَ بين الغيل والسَّنَدِ

ووقولي

حلفْتُ فلم أترك لنفسكَ ريبةً ... وهل يأثَمَنْ ذو إمّةٍ وهْو طائعُ
بمصطحباتٍ من لَصافٍ وثُبَرةٍ ... يزُرْن إلالًا سَيْرُهنّ تَدافُعُ

[1] في النسخ: هياتك، هيئتك، هيئاتك.

ولم أُدرك النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فتقومَ الحُجّة عليَّ بخلافه. وإنَّ الله تقدَّست أسماؤه، عزَّ مَلِكًا وجلَّ، يغفر ما عظُم بما قلَّ.

١،٤،٧ فيقول، لا زال قوله عاليًا: يا أبا سَوادة، ويا أبا أُمامة، ويا أبا ليلى، اجعلوها ساعةَ منادَمةٍ، فإنّ من قول شيخنا العِباديّ:

أيّها القلب تعلَّلْ بدَدَنْ إنّ همّي في سماعٍ وأَذَنْ
وشرابٍ خُسْروانيٍّ إذا ذاقه الشيخُ تغنّى وارْجَحَنْ

وقال:

وسماعٍ يأذَن الشيخُ له وحديثٍ مثل ماذيٍّ مُشارْ

فكيف لنا بأبي بَصير؟ فلا تتمّ الكلمة إلا وأبو بصيرٍ قد خَمَسَهم، فيسبّحون الله ويقدّسونه ويحمدونه على أن جمع بينهم، ويتلو، جمّل الله بقائه، هذه الآية: ﴿هُوَعَلَىٰجَمۡعِهِمۡ إِذَايَشَآءُقَدِيرٌ﴾.

٢،٤،٧ فإذا أكلوا من طيّبات الجنة، وشربوا من شرابها الذي خزنه الله لعباده المتّقين قال، كتَّ الله أنفَ مُبْغِضه: يا أبا أمامة إنك لحصيف الرأي لبيبٌ، فكيف حسَّن لك لبُّك أن تقول للنُّعمان بن المُنْذر:

زعم الهُمامُ بأنَّ فاها بارِدٌ عذْبٌ إذا ما ذُقْتَه قلتَ ازْدَدِ
زعم الهُمامُ ولم أذُقْه بأنه يُشْفى بيَرد لَثاتها العَطِشُ الصَّدِى

ثمَّ استمرَّ بك القول حتى أنكره عليك خاصّةٌ وعامّةٌ.

فيقول النابغة بذكاءٍ وفهْم: لقد ظلمني من عاب عليَّ، ولو أنصف لعلم أنني احترزتُ أشدَّ احترازٍ. وذلك أنّ النعمان كان مستهترًا بتلك المرأة، فأمرني أن أذكُرها في

شعري، فأدرتُ ذلك في خَلَدي فقلت: إن وصفتُها وصفاً مُطلَقاً، جاز أن يكون بغيرها معلَّقاً. وخشيت أن أذكر اسمها في النَّظم، فلا يكون ذلك مُوافقاً للملك، لأنّ الملوك يأنَفون من تسمية نسائهم، فرأيت أن أُسنِد الصّفةَ إليه فأقول: زعم الهمامُ، إذ كنتُ لو تركتُ ذكره لظنَّ السّامع أن صفتي على المشاهَدة، والأبيات التي جاءت بعدُ داخلةٌ في وصف الهمام، فمن تأمّل المعنى وجده غير مختلٍّ. وكيف ينشدون:

وإذا نظرْت رأيْت أقمَرَ مُشْرِقًا

وما بعده؟ فيقول، أرغم الله أنفَ شانئه: نُنشد: وإذا نظرتَ، وإذا لمستَ، وإذا طعنتَ، وإذا نزعتَ، على الخِطاب. فيقول النابغة: قد يسوغ هذا، ولكنّ الأجْود أن تجعلوه إخباراً عن المكلّم، لأنّ قولي: زعم الهمامُ يؤدّي معنى قولنا: قال الهمام، فهذا أسلمُ، إذ كان الملك إنما يحكي عن نفسه. وإذا جعلتموه على الخطاب قبُح: إن نسبتموه إليَّ فهو مُنْديةٌ، وإن نسبتموه إلى النّعمان فهو إزراءٌ وتنقُّص.

فيقول: أيَّدَ الله الفضل بزيادة مُدّته: الله دَرُّك يا كوكب بني مُرّةَ. ولقد صحّف عليك أهلُ العلم من الرُّواة، وكيف لي بأبويْ عمرو: المازنيّ والشّيبانيّ، وأبي عُبيدة، وعبد الملك، وغيرهم من النَّقَلة لأسألهم: كيف يروون، وأنت شاهدٌ، لتعلم أني غير المتحرّص ولا الولاَغ؟

٣،٤،٧ فلا يقرُّ هذا القول في حُذُنّة أبي أُمامةَ إلاّ والرواةُ أجمعون قد أحضرهم الله القادر، من غير مَشقّةٍ نالتهم، ولا كُلفةٍ في ذلك أصابتْهم، فيسلّمون بلطفٍ ورفقٍ. فيقول، أعلى الله قوله: مَن هذه الشّخوص الفردوسيّة؟ فيقولون: نحن الرُّواة الذين شئتَ إحضارهم آنفاً. فيقول: لا إله إلا الله مكوّناً مدوّناً، وسبحان الله باعثاً وارثاً، وتبارك الله قادراً لا غادراً! كيف تروون أيها المرحومون قولَ النابغة في الداليّة: وإذا نظرْت، وإذا لمسْت، وإذا طعنْت، وإذا نزعْت، أبفتح التاء أم بضمّها؟ فيقولون: بفتحها. فيقول: هذا شيخنا أبو أمامة يختار الضَّمّ، ويخبر أنه حكاه عن النُّعمان. فيقولون: هو كما جاء في الكتاب الكريم: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ماذا تأْمُرِينَ﴾

فيقول، ثبّت الله كلمتَه على التوفيق: مضى الكلام في هذا يا أبا أمامة، فأنشِدْنا كلمتك التي أوّلها: ٥،٧

أَلِمّا عـلى المطـمورة المـتأبّدَهْ أقـامت بها في المَـرْبَع المـتجرّدَهْ
مضمّخةً بالمسْك مخضوبةَ الشَّوى بـدُرٍّ وياقوتٍ لها مـتقلِّدَهْ
كأنّ ثنـاياها ومـا ذُقتُ طعْمَها مُجـاجةُ نحْلٍ فـي كُمَيْتٍ مبرَّدهْ
لِيَـقْرِرْ بها النُّعمانُ عـينًا فإنّها له نِعمـةٌ فـي كلّ يومٍ مجـدَّدَهْ

فيقول أبو أمامة: ما أذكر أني سلكتُ هذا القَريَّ قطُّ. فيقول مولاي الشيخ، زيَّن الله أيّامه ببقائه: إن ذلك لعَجَبٌ، فمَن الذي تطوَّع فنسبها إليك؟ فيقول: إنها لم تَنسَب إليَّ على سبيل التَّطوّع، ولكن على معنى الغَلَط والتَّوهّم، ولعلَّها لرجل من بني ثَعلبة بن سعد.

فيقول نابغة بني جَعْدة: صحبني شابٌّ في الجاهليّة ونحن نريد الحِيرة، فأنشدني هذه القصيدة لنفسه، وذكر أنه من ثعلبة بن عُكابة، وصادف قدومُه شَكاةً من النُّعمان فلم يصلْ إليه. فيول نابغة بني ذُبيان: ما أجدرَ ذلك أن يكون!

ويقول الشيخ، كتب الله له مَثوبة المتقيّن، لنابغة بني جعدة: يا أبا ليلى، أنشِدْنا كلمتك التي على الشين التي تقول فيها: ١،٦،٧

ولقـد أغـدو بشَرْبٍ أُنُفٍ قبل أن يظْهَرَ في الأرض رَبَشْ
مـعـنا رِزقٌ إلى سُـمَّهـةٍ[1] تَسِقُ الآكالَ من رَطْبٍ وهَشّ
فـنـزلنـا بمَـليـعٍ مُـقْـفِـرٍ مسّـه طـَلٌّ من الدَّجْن ورَشّ
ولدينا قـينةٌ مُسْمِعةٌ ضخْمة الأرداف من غيـر نَفَشْ
وإذا نحن بإجْـلٍ نافـرٍ ونَعـامٍ خِيطُه مثـلُ الحَبَشْ
فحـملْنا مـاهنًا يَنْصِفنا فوق يَعْبوبٍ من الخيـل أَجَشّ

١ في النسخ: (سمه)، (سهمه)، وفي ي: (سُهَمَةٍ).

ثمّ قلنا: دونَك الصَّيدَ به تُدرك المحبوبَ منّا وتَعِشْ
فأتانا بشَبوبٍ ناشطٍ وظليمٍ معه أمُّ خُشَشْ
فاشتوينا من غريضٍ طيّبٍ غير ممنونٍ وأُبْنا بغَبَشْ

فيقول نابغة بني جعدة: ما جعلت الشّين قطُّ رويًّا، وفي هذا الشعر ألفاظٌ لم أسمع بها قطُّ: رَبَش وسُمَّهة وخُشَش.

فيقول مولاي الشيخ الأديب المُغْرَم بالعلم: يا أبا ليلى، لقد طال عهدك بألفاظ الفُصحاء، وشَغَلَك شرابٌ ما جاءتك بمثله بابلُ ولا أذرِعات، وثنتك لحومُ الطَّير الراتعة في رياض الجنة، فنسيتَ ما كنت عرفت، ولا مَلامةَ إذا نسيتَ ذلك، ﴿إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ، هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ، لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ﴾

أمّا رَبَش، فمن قولهم: أرضٌ رَبْشاء إذا ظهرت فيها قِطَعٌ من النَّبات وكأنها مقلوبةٌ عن بَرْشاء، وأمَّا السُّمّهة فشبيهةٌ بالسُّفرة تتَّخذ من الخُوص، وأمّا خُشَش فإنّ عمرو الشَّيبانيّ ذكر في كتاب الخاء أن الخُشَش ولد الظَّبْية.

فكيف تنشد قولك: ٢،٦،٧

وليس بمعروف لنا أن نرُدّها صِحاحًا ولا مستنكَرًا أن تعقَّرا

أتقول: ولا مستنكرًا، أم مستنكرٍ؟ فيقول الجعديُّ: بل مستنكرًا. فيقول الشيخ: فإن أنشد منشدٌ: مستنكرٍ، ما تصنع به؟ فيقول: أزجُره وأزبُره، نطق بأمرٍ لا يخبُره.

فيقول الشيخ، طوّل الله له أَمَد البقاء: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ما أرى سيبويه إلا وَهِم في هذا البيت، لأنّ أبا ليلى أدرك جاهليةً وإسلاماً، وغُذِيَ بالفصاحة غلاماً.

ويثني إلى أعشى قيس فيقول: يا أبا بصير أنشدنا قولك: ٧٠٧

أمِنْ قَتْلَةَ بالأنقا ءِ دارٌ غير محلولَهْ
كأن لم تصحب الحيَّ بها بيضاءُ عُطْبولَهْ
أناةٌ يُنْزِلُ القُوسِ يَّ منها مَنْظَرٌ هُولَهْ
وما صهباءُ من عانَ ـةَ في الذارع محمولَهْ
تولَّى كرْمَها أصهـ ـبُ يَسْقيه ويغْدو لَهْ
ثوتْ في الخَرْس أعواماً وجاءت وهْيَ مقتولَهْ
بماء المُزْنة الغرّا ءِ راحت وهْيَ مشمولَهْ
بأَشْهى منكِ للظَمْآ نِ لو أنكِ مبذولَهْ

فيقول أعشى قيس: ما هذه ممّا صدر عنّي، وإنك منذ اليوم لَمُولَعٌ بالمنحولات.

١٠٨ ويُمـرُّ رِفٌّ من إوَزّ الجنّة، فلا يلبث أن ينزل على تلك الرَّوضة ويقف وقوفَ منتظرٍ لأمرٍ، ومن شأن طير الجنّة أن يتكلّم، فيقول: ما شأنكنّ؟ فيقلن: أُلهِمْنا أن نسقُط في هذه الرَّوضة فنغنّي لمن فيها من شَرَبٍ. فيقول: على بركة الله القدير. فينتفضن، فيصرن جواريَ كواعبَ يرفُلن في وشْي الجنّة، وبأيديهنّ المَزاهر وأنواع ما يُلتمس به المَلاهي. فيعجَب، وحُقَّ له العجب، وليس ذلك ببديعٍ من قدرة الله جلّت عَظَمته، وعزّت كلمته، وسبَغَت على العالَم نعمته، ووسِعت كلَّ شيءٍ رحمته، ووقعت بالكافر نِقمته.

٢٠٨ فيقول لإحداهنّ على سبيل الامتحان: اعمَلي قول أبي أُمامة، وهو هذا القاعد:

أمِنَ آلِ مَـيّةَ رائحٌ أو مغتدِ عَجْـلانَ ذا زادٍ وغـيرَ مـزوَّدِ؟

ثقيلاً أوّل. فتصنَعه، فتجيء به مُطْرِباً، وفي أعضاء السامع متسرِّباً. ولو نُحِت صَنَمٌ من أحجار، أو دَفٌّ أُشِر عند النجّار، ثمّ سمع ذلك الصوت لَرَقَص، وإن كان متعالياً هَبَط ولم يراعِ أن يُوقَص. فيرِد عليه، أو رد الله قلبه للمَحابّ، زَوْلٌ، تعجَز عنه الحِيَل والحوْل، فيقول: هلُمّ خفيف الثقيل الأوّل! فتنبعث فيه بنَغَمٍ لو سمعه الغريض، لأقرَّ أنّ ما ترنَّم به مَريضٌ. فإذا أجادته، وأعطته المِهَرة وزادته، قال: عليكِ بالثقيل الثاني، ما بين مَثالثك والمَثاني؛ فتأتي به على قَرِيّ لو سمعه عبد الله بن جعفر لقرن أغانيَّ بُدَيح إلى هدير ذي المِشفَر. فإذا رأى ذلك قال: سبحان الله! كلّما كُشِفت القدرة بدتْ لها عجائب، لا تثبت لها النجائب؛ فصيري إلى خفيف الثقيل الثاني، فإنّك لَمُجيدةٌ مُحسنة، تُطرِد بغنائك السّنةُ. فإذا فعلتْ ما أمر به، أتت بالبُرَحين، وقالت للأنفُس: ألا تمرَحين؟ ثمّ يقترح عليها: الرَّمَل وخفيفه، وأخاه الهَزَج وذفيفه؛ وهذه الألحان الثمانية، للأُذن تَمْنيها المانِيَة.

فإذا تيقّن لها حَذافةً، وعرف منها بالعُود لَباقةً، هلّل وكبّر، وأطال حمد ربّه واعتبر. وقال: ويحكِ! ألم تكوني الساعة إوَزّةً طائرة، والله خلقك مَهْديّة لا حائرة؟ فمن أين لك هذا العلم، كأنك لِجَذَل النفس خِلْ؟ لو نشأتِ بين مَعْبَدٍ وابن سُرَيج، لما هِجْتِ السامع بهذا الهيج، فكيف نفضتِ بَلَهَ إوزّ، وهززتِ إلى الطَّرَب أشدَّ الهَزّ؟ فتقول:

وما الذي رأيتَ من قدرة بارئك؟ إنّك على سِيفِ بحرٍ، لا يُدرَك له عِبرٌ، سبحان ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.

فبينا هم كذلك، إذ مرَّ شابٌّ في يده مِخْنَقُ ياقوت، ملكه بالحُكم الموقوت، فيسلّم عليهم ١،٣،٨
فيقولون: من أنت؟ فيقول: أنا لَبيد بن رَبيعة بن كِلاب. فيقولون: أُكرمتَ أكرمت! لو قلت: لبيدٌ وسكتّ، لَشُهرتَ باسمك وإن صمتَّ. فما بالك في مغفرة ربّك؟ فيقول: أنا بحمد الله في عيشٍ قصّر أن يصِفه الواصفون، ولديَّ نواصف وناصفون، لا هَرَم ولا بَرَم. فيقول الشيخ: تبارك الملك القدُّوس، ومن لا تُدرِك يقينَه الحُدوس، كأنك لم تقل في الدار الفانية:

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها وسؤالِ هذا الناس: كيف لبيدُ؟

ولم تَفُهْ بقولك:

فمتى أهْلِكْ فلا أحفِلُه بَجَلِي الآن من العيْش بَجَلْ
من حياةٍ قد مِللنا طولَها وجديرٌ طولُ عيشٍ أن يُمَلّ

فأنشدنا ميميّتك المعلّقة. فيقول: هيهات! إنّي تركت الشعر في الدار الخادعة، ولن أعود إليه في الدار الآخرة، وقد عُوّضت ما هو خيرٌ وأبرّ.

فيقول: أخبِرْني عن قولك: ٢،٣،٨

تَرّالُ أمْكِنةٍ، إذا لم أَرْضَها أو يرتبِط بعضَ النُّفوس حِمامُها

هل أردتَ ببعض معنى كلٍّ؟ فيقول لبيد: كلا، إنّما أردت نفسي، وهذا كما تقول للرَّجل: إذا ذهب مالُك أعطاك بعضُ الناس مالاً، وأنت تعني نفسك في الحقيقة، وظاهر الكلام واقعٌ على كلّ إنسان، وعلى كلّ فِرقة تكون بعضاً للناس. فيقول، لا فتئ خَصمُه

مُفْهِمًا: أخبِرْني عن قولك: أو يرتبِط، هل مَقصِدك: إذا لم أرضها أو يرتبط، فيكون: لم يرتبط؟ أم غرضُك: أترك المنازلَ إذا لم أرضها، فيكون[1] يرتبط كالمحمول على قولك: ترّاك أمكنةٍ؟ فيقول لبيد: الوجه الأوّل أردتُ

فيقول، أعظم الله حظّه في الثواب: فما مَغْزاك في قولك:

وصَبوح صافيةٍ وجَذْبِ كرينةٍ بموتّرٍ تأْتالُهُ إبهامُها

فإن الناس يروون هذا البيت على وجهيْن: منهم من ينشده تأْتالُه، يجعله تفتعله من آلَ الشيءَ يؤُوله إذا ساسَه، ومنهم من ينشد: تأْتا لَهُ من الإتيان. فيقول لبيد: كِلا الوجهيْن يحتمله البيتُ، فيقول، أرغم الله حاسَده: إنّ أبا عليّ الفارسيّ كان يدّعي في هذا البيت أنه مثلُ قولهم: استحى يستحي، على مذهب الخليل وسيبويه لأنهما يريان أنّ قولهم: استحَيْتُ إنما جاء على قولهم استحايَ، كما أن استقَمْتُ على استقام، وهذا مذهبٌ طريفٌ، لأنه يعتقد أنّ تأْتَى مأخوذة من أوى، كأنه بُنِيَ منها افتعل، فقيل: ائتايَ، فأُعِلّت الواو كما تُعَلُّ في قولنا: اعتان من العوْن، واقتال من القول. ثمّ قيل: ائتيْتُ، فحُذفت الألف، كما يقال: اقتَلْتُ. ثمّ قيل في المستقبَل بالحذف، كما قيل: يستحي. فيقول لبيد: معترِضٌ لعَنَنٍ لم يَعْنِه، الأمرُ أيْسرُ ممّا ظنّ هذا المتكلّف.

ويقول لبيد: سبحان الله يا أبا بصير، بعد إقرارك بما تعلم، غُفر لك وحصلتَ في جنة عَدْن؟ فيقول مولاي الشيخ متكلّمًا عن الأعشى: كأنك يا أبا عَقيلٍ تعني قوله: ٤٠٨

وأشرَبُ بالرّيف حتى يقا لَ قد طال بالريف ما قد رَجَنْ
صَريفيّةً طيّباً طعْمُها تصفّقُ ما بين كُوبٍ ودَنّ
وأقورتُ عيني من الغانيا تِ إمّا نِكاحًا وإمّا أُرَنّ

وقولَه:

[1] هذه العبارة مضافة من هامش نسخة الأصل والأرجح أنها من النصّ الأصليّ.

فبِتُّ الخليفةَ من بَعْلها وسيِّدَ تيّا ومُستادِها

وقولَه:

فظلِلتُ أَرعاها وظلَّ يحوطُها حتى دنوتُ إذ الظّلامُ دنا لَها
فرميتُ غَفْلةَ عينِه عن شاتِه فأصبْتُ حَبّةَ قلبِها وطِحالَها

ونحوَ ذلك ممّا رُوي عنه؛ فلا يخلو من أحد أمرين: إمّا أن يكون قاله تحسيناً للكلام على مذهب الشُّعراء، وإمّا أن يكون فَعَله فغُفر له. ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، إِنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعًا، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾.

ويقول، رفع الله صوته، لنابغة بني جَعْدة: يا أبا ليلى، إنّي لأستحسنُ قولك: ١،٥،٨

طيّبةُ النَّشْر والبُداهة والـ ـعِلات عند الرُّقاد والنَّسَمِ
كأنّ فاها إذا تُنبّهُ من طِيب مَشمٍّ وحُسنِ مبتسَمِ
يُسَنُّ بالضِّرْو من بَراقِشَ أو هيلانَ أو ضامرٍ من العُتُمِ
رُكِّزَ في السام والزَّبيب أقا حيٌّ كثيبٍ تُعَلُّ بالرِّهَمِ
بماء مُزْنٍ من ماء دوْمةَ قد جُرِّد في ليلِ شَمْألٍ شَبِمِ
شُجّت به قَرْقَفٌ من الراح إسْـ ـفَنْطُ عُقارٍ قليلةُ النَّدَمِ
أُلْقِيَ فيها فِلجانِ من مِسْكِ دا رِينَ وفِلجٌ من فُلفُلٍ ضَرِمِ
رُدّت إلى أكلَفِ المَناكب مرْ سومٍ مُقيمٍ في الطِّين محتدِمِ
جوْزِيّ كجوْزِ الحمار جرَّده الـ ـبيْطارُ لا ناقسٍ ولا هَزِمِ
تهدِر فيه وساورتْه كما رُجِّع هَدْرٌ من مُصْعَبٍ قَطِمِ

٢،٥،٨ أين طِيب هذه الموصوفة من طيبِ من تُشاهده من الأتراب العُرُب؟ كلاّ والله! أين الأهل من الغُرُب؟ وأين فوها المذكّر من أفواهٍ ما وَلَب إليها المُنكَر؟ إنها لَتفضُل على تلك فضلَ الدُّرّة المختزَنة على الحَصاة المُلْقاة، والخيراتِ الملتمَسة على الأعراض المتّقاة.

ما سامُك أيّها الرَّجل وزبيبك؟ ما حسُن في العاجلة حبيبُك. وإنَّ ثغرًا يفتقر إلى قضيب البَشام لَيُحْشِمُ حليفَه بعضَ الإحشام! لولا أنه ضَرِيَ بالخَبَر ما افتقر إلى ضِرْو مطلوب، أو غُصنٍ من العُتْم مجلوب. وما الماء الذي وصفتَه من دوْمة، وغيرُه ينافي اللَّومة؟ أليس هو إن أقام أَجَنَ، ولا يدوم للماكث إذا دَجَنَ؟ وإن فقد بَرْدَ الشَّمْأل، رجع كغيره من السَّمَل. تُلْقِي الغَسَر فيه الهابة، وتُشْبِهُ الغَرّاءُ الشابّة. والغَرّاء: الهاجرة ذات السَّراب. وما قَرْقَفك هذه المشجوجة، ولو أنها للشَّرَبة مجوبة؟ قُرْبَتَ من حاجتك فلا تَنُطْ، لا كانت الفيهجُ ولا الإسْفَنْط؛ طالما ثملتَ في رُفْقتك فندِمتَ، وأنفقتَ ما تملِك فعدِمتَ. ما عَقارك وما فِلّجاك؟ زالت عن مُقْلتك دُجاك! ولو دخل مِسكُ دارينَ، جنةَ ربّنا الموهوبة لغير المُمارين، لَعُدَّ في ترابها الذَّفِرِ كصِيق المقتول، أو دَنَسِ قَدَم مبتول.

زعمتَ أنها تُطَيَّب بالفُلفُل، وشبّهها غيرك بنسيم القَرَنْفُل! إنّ في هذه المنزلة لَنَشْرًا، لا يزيد على نشر الفانية عَشرًا، ولكن يشفُّ بعَددٍ لا يُدرَك، ليس وراءه مُتَّرَك. نزاهةً لهذه القهوة أن تُذَّخر في أكلَفِ مَناكب، مَن حفِظه عُدَّ الناكب! أصبح بطينها مرسوماً،[1] وضع فيه المتربصُ وُسوماً، فهو جوْن كجَوْز الحمار، لا سلِم ذُخرًا للخمّار! ليس بناقسٍ ولكن منقوس، ذمّه المتحنّف ومَن فِناؤه القُوس، تهدِر فيه الصهباء المعتصَرة وهي في قُرب نِتاج، كالسِّقاب الموضوعة بغير إخداج. فإذا وصلتْ سنَّ البازل بَطَل الهديرُ، وأدارها في الكأس مُدير.

١ ب: (مَوسُومًا).

١٠٩ ويخطِر له، جعل الله الإحسان إليه مربوباً، وودَّه في الأفئدة مشبوباً، غِناءُ القِيان بالفُسطاط ومدينة السلام. ويذكر ترجيعهنَّ بيميّة المخبَّل السَّعْدي فتندفع تلك الجواري التي نقلتهنّ القدرة من خِلَق الطَّير اللاقطة، إلى خِلَقِ حُورٍ غير متساقطة، تلحّن قول المخبَّل السَّعديّ:

ذَكَرَ الرِبَابَ وذِكْرُها سُقْمُ وصَبا وليس لمن صبا عزْمُ
وإذا ألَمَّ خَيالها طرِفَتْ عيني فماءُ شؤونها سجْمُ
كاللؤلؤ المسجور توبعَ في سِلك النِظام فخانه النَّظْمُ

فلا يمرُّ حرف ولا حركة، إلا ويوقع مَسَرّةً لو عُدلتْ بمسرّات أهل العاجلة، منذ خلق الله آدم إلى أن طوى ذُرِيّته من الأرض، لكانت الزائدة على ذلك زيادةَ اللُّجِّ المتموج على دمعة الطِّفْل، والهَضْب الشامخ على الهَباءة المنتفضة من الكِفْل.

ويقول لنُدمائه: ألا تسمعون إلى قول السعديّ:

وتقول عاذِلتي وليس لها بِغدٍ ولا ما بعده عِلْمُ
إنَّ الثَّراء[1] هو الخلودُ وإنَّ المرء يكرب يومَه العُدْمُ
ولئن بنيتِ لِيَ المشقَّرَ في عَنْقاءَ تقصُر دونها العُصْمُ
لَتُنقِبَنْ عينيّ المَنيَّة إنَّ الله ليس لحُكمه حُكْمُ

٢٠٩ فيقول إنه المسكين، قال هذه الأبيات وبنو آدم في دار المِحَن والبَلاء، يقبضون من الشدائد على السُّلاّء؛ والوالدة تخاف المنيّة على الولد، ولا يزال رُعبها في الخَلَد؛ والفقر يُرْهَب ويُتَّقى، والمال يُطلب ويُستبقى؛ والسَّغَب موجود والظَّماء، والكَمَه معروف والكَماء؛ ولم يُكفَف للغير عِنان، ولا سُكنت بالعفو الجنان. ﴿فَالْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُور. الَّذِي أَحَلَّنَا دارَ الْمُقَامَةِ مِنْ

[1] في كل النسخ (الثواء) والصحيح ما في المراجع كالمفضّليّات.

فِضلِهِ، لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فيها لُغُوبٌ﴾. فتبارك الله القُدُّوس! نقل هؤلاء المُسمِعاتِ من زيِّ ربّات الأَجْنحة، إلى زيِّ ربّات الأَكْفال المترجّحة؛ ثمّ ألهمهنَّ بالحكمة حِفظَ أشعارٍ لم تمرُر قبلُ بمَسامعهنَّ، فجئن بها مُتْقَنةً، محمولة على الطَّرائق ملحَّنة، مُصيبةً في لحن الغِناء، منزَّهةً عن لحن الهُجَناء. ولقد كانت الجارية في الدار العاجلة، إذا تقرّستْ فيها النَّجابة، وأُحضرت لها الملحِّنة لتُلقي إليها ما تعرف من ثقيلٍ وخفيف، وتأخذها بمأخذٍ غير ذفيف؛ تقيم معها الشهر كريتاً، قبل أن تُلقَّن كذباً حَنْبَريتاً: بيتاً من الغَزَل أو بيتيْن، ثم تُعْطى المائةَ أو المائتين. فسبحان القادر على كل عزيز، والمميّز بفضله كلَّ مَزيز.

ويقول نابغة بني جعدة، وهو جالس يستمع: يا أبا بصير أهذه الرَّباب التي ذكرها السعديُّ هي رَبابك التي ذكرتَها في قولك: ١،٣،٩

بِعاصِي العواذلِ طَلْق اليدي ... نِ يُعْطي الجزيلَ ويُرْخي الإزارا
فما نطق الدِّيكُ حتى ملأْ ... تُ كوب الرَّباب له فاستدارا
إذا انكبَّ أزهرُ بين السُّقاةِ ... تراموْا بـه غَـرَبًا أو نُضـارا

فيقول أبو بصير: قد طال عمرك يا أبا ليلى، وأحسبك أصابك الفَنَد، فبقيت على فندك إلى اليوم! أما علمتَ أنّ اللواتي يُسمَّين بالرَّباب أكثر من أن يُحْصيْن؟ أفتظنّ أنّ الرَّباب هذه هي التي ذكرها القائل:

مـا بالُـــ قومِكِ يا ربابُـــ ... خُـزْرًا كأنهـم غِـضابُـــ
غاروا عـليكِ وكيْـف ذا ... كِ ودونكِ الخَـرْقُ اليَبابُـــ

أو التي ذكرها امرؤ القيس في قوله:

دارٌ لهندٍ والرَّبابِ وفَـرْتَنى ... ولميسَ قبل حوادث الأيامِ

ولعلّ أمّها أمُّ الرَّباب المذكورة في قوله:

وجارتِها أمِّ الرَّباب بمأْسَلِ

فيقول نابغة بني جعدة: أتكلّمني بمثل هذا الكلام يا خليع بني ضُبيعة، وقد مُتَّ كافرًا، ٢،٣،٩
وأقررتَ على نفسك بالفاحشة، وأنا لقيت النبيَّ، صلى الله عليه وسلّم، فأنشدته كلمتي التي أقول فيها:

بلغْنا السماءَ مَجْدُنا سناؤنا وإنّا لَنبغي فوق ذلك مَظْهرا

فقال: إلى أين يا أبا ليلى؟ فقلت: إلى الجنّة بك يا رسول الله! فقال: لا يفضُض الله فاك. أغَرّك أن عَدَّك بعض الجُهَّال رابعَ الشُّعراء الأربعة؟ وكذب مفضِلك، وإنّي لأطول منك نَفَسًا وأكثر تصرُّفًا. ولقد بلغتُ بعدد البيوت ما لم يبلغه أحد من العرب قبلي، وأنت لاهٍ بعَفارتك، تفتري على كرائم قومك. وإن صدقتَ فخِزيًا لك ولمُقارَك! ولقد وُفِقت الهِزّانيّةُ في تخلِيَتك: عاشرتْ منك النابح، عِشيَ فطاف الأحْوِيّة على العظام المنتبَذة، وحرص على انتباث الأجداث المنفردة.

فيغضَب أبو بصير فيقول: أتقول هذا وإنّ بيتًا ممّا بنيتُ لَيُعدَل بمائةٍ من بنائك؟ وإن أسهبتَ في مَنطقك، فإنَّ المُسْهِب كحاطب الليل. وإنّي لفي الجرثومة من رَبيعة الفَرَس، وإنك لمن بني جعدة، وهل جعدةُ إلاّ رائدةُ ظليم نَفور؟ أتعيّرني في مدح الملوك؟ ولو قدرتَ يا جاهل على ذلك لَهجرتَ إليه أهلَك وولدَك، ولكنّك خُلقت جَبانًا هِدانًا، لا تُدْلِج في الظلماء الدّاجية، ولا تهجّر في الوديقة الصاخدة. وذكرت لي طلاق الهِزّانية ولعلّها بانت عني مُسِرّةَ الكَمَد، والطلاق ليس بمنكَرٍ للسُّوَق ولا للملوك.

فيقول الجعديُّ: اسكتْ يا ضُلَّ بن ضُلّ، فأُقسم أنّ دخولك الجنّة من المنكَرات، ٣،٣،٩
ولكنَّ الأقضية جرت كما شاء الله لَحقُّك أن تكون في الدَّرَك الأسفل من النار، ولقد

صلي بها من هو خير منك، ولو جاز الغلطُ على ربِّ العزّة لقلت: إنّك غُلط بك! ألست القائل:

فدخلتُ إذ نام الرقيـ ـبُ فبتُّ دون ثيابِها
حتى إذا ما استرسلتْ للنوم بعـد لِعابِها
قسَّمتُها نِصفَيْن كلُّ مسوَّدٍ يُـرْمـى بِها
فـثنيتُ جِيدَ غريرةٍ ولمستُ بطنَ حِقابِها
كالحُقّة الصفراء صا ـنُ عبيرُها بملابِها
وإذا لهـا تامورةٌ مـرفوعـة لشَرابِها

واستقللتَ بيني جعدة، ولَيومٌ من أيّامهم يرجَح بمَساعي قومك. ورعمتَني جَبانًا وكذبت! لأنا أشجعُ منك ومن أبيك، وأصبرُ على إدلاج المُظلمة ذات الأريز، وأشدُّ إيغالاً في الهاجرة أمّ الصَّخَدان.

٤،٣،٩ ويثب نابغة بني جعدة على أبي بصير فيضربه بكُوز من ذهب. فيقول: أصلح الله به وعلى يديه: لا عَربدةَ في الجنان، إنّما يُعرف ذلك في الدار الفانية بين السَّفلة والمَهجاج، وإنك يا أبا ليلى لمتنزّع. وقد رُوي في الحديث أنّ رجلاً صاح بالبصرة: يا آل قيسٍ لفجاء النابغة الجعديُّ بعُصَيّةٍ له، فأخذه شُرَط أبي موسى الأشعريّ فجلده لأنّ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم قال: من تَعزّى بعَزاء الجاهليّة فليس منّا. ولو لا أنّ في الكتاب الكريم: ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْها ولا يَنْزِفُونَ﴾ لظننّاك أصابك نَزْفٌ في عقلك. فأمّا أبو بصيرٍ فما شرب إلّا اللّبن والعسل، وإنّه لَوقور في المجلس، لا يَخِفُّ عند حلِّ الحُبْوة. وإنّما مَثَلُه معنا مَثَلُ أبي نواسٍ في قوله:

أيها العاذلان في الراح لُوما ... لا أذوق المُدام إلا شميما
نالني بالعِتاب فيها إمامٌ ... لا أرى لي خِلافَه مستقيما
إنّ حَظّي منها إذا هي دارت ... أن أراها وأن أشُمَّ النسيما
فاصرِفاها إلى سِواي فإنّي ... لست إلا على الحديث نديما
فكأنّي وما أحسِن منها ... قَعَديٌّ يحسِن التحكيما
لم يُطِقْ حملَه السِّلاحَ إلى الحرْ ... بِ فأوْصى المُطيقَ ألا يقيما

فيقول نابغة بني جعدة: قد كان الناس في أيّام الخادعة يظهر عنهم السَّفَهُ بشُرب اللبن، لا سيمَّا إذا كانوا أرِقّاء لئاماً، كما قال الراجز:

يا ابنَ هشام أهلَكَ الناسَ اللَّبَنْ ... فكلُّهمْ يغدو بسيفٍ وقَرَنْ

وقال آخر:

ما دهرُ ضَبّةَ فاعلمْ نَحْتُ أثْلَتِنا ... وإنّما هاج من جُهّالها اللَّبَنُ

وقيل لبعضهم: متى يُخاف شرُّ بني فلانٍ؟ قال: إذا ألبنوا.

٥،٣،٩ فيريد، بلّغه الله إرادته، أن يُصلِح بين النُّدماء، فيقول: يجب أن يُحْذَر من ملَكٍ يعبُر فيرى هذا المجلس، فيرفع حديثَه إلى الجبّار الأعظم، فلا يجُرُّ ذلك إلا ما تكرَهان. واستغنى ربُّنا أن تُرفَع الأخبار إليه، ولكنْ جرى مَجْرى الحَفَظة في الدار العاجلة، أما علمْتُما أنّ آدم خرج من الجنّة بذنْبٍ حقير، فغيرُ آمنٍ مَن ولدَ أن يُقْدَر له مثلُ ذلك.

فسألتك يا أبا بصير بالله هل يحبس لك تَمِنّي المُدام؟ فيقول: كلا، واللهِ إنها عندي لَمِثلُ المَقِر لا يخطِر ذكرُها بالخَلَد. فالحمد لله الذي سقاني عنها السُّلوانة، فما أحفِل بأمّ زَنْبَقٍ أخرى الدهر.

٤٠٩ وينهض نابغة بني جعدة مُغْضَباً، فيكره، جنَّبه الله المكاره، انصرافَه على تلك الحال، فيقول: يا أبا ليلى، إنّ الله، جلَّت قدرته، منَّ علينا بهؤلاء الحُور العِين اللواتي حوَّلهنَّ عن خَلق الإوَزّ، فاخترْ لك واحدةً منهنَّ فلتذهبْ معك إلى منزلك، تُلاحنك أرقَّ اللِّحان، وتُسمعك ضروبَ الألحان.

فيقول لبيد بن ربيعة: إن أخذ أبو ليلى قينةً، وأخذ غيرُه مثلها، أليس ينتشر خبرُها في الجنّة، فلا يُؤمَن أن يُسمَّى فاعلو ذلك أزواجَ الإوزّ؟ فتُضرب الجماعةُ عن اقتسام أولئك القيان.

١،١٠ ويمرُّ حسَّان بن ثابت فقولون: أهلاً أبا عبد الرحمن، ألا تَحَدَّثُ معنا ساعة؟ فإذا جلس إليهم قالوا: أين هذه المشروبة من سبيئتك التي ذكرتها في قولك:

كأنَّ سبيئةً من بيت رأسٍ يكون مِزاجَها عَسَلٌ وماءُ
على أنيابها أو طعْمَ غَضٍّ من التُّفَّاح هصَّره اجتناءُ
على فيها إذا ما الليل قَلَّتْ كواكبُه ومال بها الغِطاءُ
إذا ما الأشربات ذُكِرْنَ يوماً فهنَّ لطيِّب الراح الفِداءُ

ويحك! ما استحييت أن تذكر مثلَ هذا في مِدْحتك رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ فيقول: إنه كان أسمحَ خُلُقاً مما تظنُّون، ولم أقلْ إلا خيراً،لم أذكر أني شربت خمراً، ولا ركبت ممّا حُظر أمراً، وإنّما وصفتُ رِيق امرأةٍ يجوز أن يكون حِلاً لي، ويمكن أن أقوله على الظَّنِّ. وقد شفع صلى الله عليه في أبي بصيرٍ بعد ما تهكَّم في مَواطن كثيرة، وزعم أنه مُسْتَرٍ، مفترياً أو ليس بمفترٍ. وما سُمع بأكرم منه صلى الله عليه: لقد أفكتُ فجلدني مع مِسْطَحٍ ثم وهب لي أختَ ماريةَ فولدتْ لي عبد الرحمن، وهي خالة ولده إبراهيم.

٢،١٠ وهو، زيّن الله الآداب ببقائه،يخطر في ضميره أشياءُ يريد أن يذكرها لحسّان وغيره، ثم يخاف أن يكونوا لما طلب غير مُحسنين، فيضرب عنها إكراماً للمجلس، مثلُ قول حسّان:

يكون مزاجَها عسلٌ وماءُ

يَعرض له أن يقول: كيف قلتَ يا أبا عبد الرحمن: أيكون مزاجَها عسلٌ وماءُ، أم مزاجُها عسلاً وماءُ، أم مزاجُها عسلٌ وماءُ على الابتداء والخبر؟ وقولِه:

فمن يمجو رسولَ اللهِ منكمْ ويمدَحه وينصُره سَواءُ

يذهب بعضهم إلى أنّ مَنْ محذوفة من قولك: ويمدحه وينصره، على أن ما بعدها صِلة لها. وقال قوم: حُذفت على أنها نَكِرة، وجُعل ما بعدها وصفًا لها، فأُقيمت الصفة مقامَ الموصوف.

ويقول قائل من القوم: كيف جُبْنك يا أبا عبد الرحمن؟ فيقول: ألي يقال هذا وقومي أشجع العرب؟ أراد ستّة منهم أن يميلوا على أهل الموسم بأسيافهم، وأجاروا النبيَّ على أن يحاربوا معه كلَّ عَنودٍ؛ فرمتهم ربيعةُ ومُضَرُ وجميع العرب عن قوس العَداوة، وأضمروا لهم ضِغْن الشَّنآن. وإن ظهر منّي تحرُّزٌ في بعض المواطن، فإنّما ذلك على طريقة الحزم، كما جاء في الكتاب الكريم: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

١،٣،١٠ ويفترق أهل ذلك المجلس بعد أن أقاموا فيه كهم الدُّنيا أضعافًا كثيرةً، فبينا هو يطوف في رياض الجنّة، لقيه خمسة نفرٍ على خمس أَينُق، فيقول: ما رأيت أحسن من عيونكم في أهل الجنان! فمن أنتم خَلَدَ عليكم النعيم؟ فيقولون: نحن عُورانُ قيسٍ: تميم بن مُقْبِلٍ العَجْلانيّ وعمرو بن أحمر الباهليُّ والشَّمّاخ مَعْقِل بن ضِرار، أحد بني ثَعْلَبة بن سعد بن ذُبيان، وراعي الإبل عُبيد بن الحُصين النُّمَيريّ، وحُميد بن ثَوْر الهِلاليّ. فيقول للشَّمّاخ ابن ضرار: لقد كان في نفسي أشياء من قصيدتك التي على الزاي، وكلمتك التي على الجيم، فأنشدْنيهما لا زلتَ مخلَّدًا كريمًا.

فيقول: لقد شغلني عنهما النَّعيم الدائم فما أذكر منهما بيتًا واحدًا. فيقول لفرط حُبّه الأدبَ وإيثارِه تشييدَ الفضل: لقد غفلْتَ أيها المؤمن وأضعْت! أما علمتَ أنّ كلمتيك، أنفع لك من ابنتيك؟ ذُكرتَ بهما في المواطن، وشُهرتَ عند راكب السَّفر والقاطن؛ وإنّ القصيدة من قصائد النابغة لأنفعُ له من ابنته عَقْرَب، ولعل تلك شانتْه، وما زانتْه، وأصابها في الجاهلية سِباء، وما وَفَرَ لأجْلها الحِباء. وإن شئت أن أنشدك

قصيدتيك، فإن ذلك ليس بمتعذرٍ عليّ. فيقول: أنشدْني، ضَفَتْ عليك نعمةُ الله، فينشده:

عفا من سُليمَى بطنُ قَوٍّ فعالِزُ فذاتُ الغَضا فالمُشْرِفاتُ النَّواشِزُ

فيجده بها غيرَ عليم. ويسأله عن أشياء منها، فيصادفه بها غير بصير، فيقول: شغلتني ٢،٣،١٠
لذائذُ الخلود عن تعهُّد هذه المُنكَرات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ، وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، إنّما كنت أَسِقُ هذه الأمور، وأنا آمُل أن أُفقَرَ بها ناقةً، أو أُعطَى كُلَّ عِيالي سنةً، كما قال الراجز:

لو شاكَ من رأسك عَظْمٌ يابسُ آلَـــ منك جَمَلٌ حُمارِسُ
سوَّى عليك الكِلَ شيخٌ بائسُ مثلَ الحَصى يجَب منه اللامسُ

وأنا الآن في تفضُّل الله، أغترف في مَرافد العَسْجَد من أنهار اللَّبن: فتارةً ألبان الإبل، وتارةً ألبان البقر، وإن شئت لبن الضأن فإنّه كثير جَمٌّ، وكذلك لبن المَعِيز، وإن أحببت وِرْدًا من رِسْل الأراويّ، فرُبّ نهرٍ منه كأنه دِجلةُ أو الفُرات. ولقد أراني في دار الشِّقوة أجْهَدُ أخلافَ شِياهٍ لِجباتٍ، لا يمتلئ منهنَّ القَعْب.

فيقول، لا زال مِقْوَلاً للخير: فأين عمرو بن أحمر؟ فيقول عمروٌ: ها أنا ذا. فيقول: أنشدْني ١،٤،١٠
قولك:

بان الشّبابُ وأخلفَ العَمْرُ وتغيَّرَ الإخوانُ والدّهْـرُ

وقد اختلف الناس في تفسير العَمْر، فقيل: إنّك أردت البَقاء، وقيل: إنّك أردت الواحد من عمور الأسنان، وهو اللِّثَة الذي بينها. فيقول عمرو متمثلاً:

خُذا وجهَ هَرْشَى أو قَفاها[1] فإنّه كِلا جانبيْ هَرْشى لهُنّ طريقُ

ولم تترك فيَّ أهوال القيامة غُبَرًا للإنشاد، أما سمعت الآية: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وَتَرَى النّاسَ سُكارَى وَما هُمْ بِسُكارَى وَلَكِنَّ عَذابَ اللهِ شَديدٌ﴾ وقد شهدتَ المَوْقف، فالعَجَب لك إذ بقي معك شيء من روايتك! فيقول الشيخ: إنّي كنت أُخْلِص الدُّعاء في أعقاب الصلوات، قبل أن أنتقل من تلك الدار، أن يُمتِعني الله بأدبي في الدُّنيا والآخرة، فأجابني إلى ما سألتُ وهو الحميد المجيد.

ولقد يُعْجِبني قولك: ٢،٤،١٠

ولقد غدوتُ وما يفزّعني خوفٌ أُحاذره ولا ذُعْرُ
رؤْدَ الشَّباب كأنني غُصُنٌ بحرامِ مكّةَ ناعمٌ نَضِرُ
كشرابِ قيلٍ عن مَطيّتِهِ ولكلِّ أمرٍ واقعٍ قَدَرُ
مُدَّ النَّهارُ له وطال عليْـ ـه الليلُ واستنعتْ به الخُمُرُ
ومُسِفّةٌ دَهْماءُ داجنةٌ ركدتْ وأُسبِل دونها السِّتْرُ
وجرادتانِ تغنّيانِ لهمُ وتلألأ المَرْجانُ والشَّذَرُ
ومجلجلٌ دانٍ مزَبرْجدُهُ حَدِبٌ كما يتحدَّب الدَّبَرُ
ونأى حنّانان بينهما وَتَرٌ أجَشُّ غِناؤه مزَمْرُ
وبَعيرُهم ساجٍ بجَرّتِه لم يؤْذه غَرْثٌ ولا نَفَرُ
فإذا تجرّرَ شَقّ بازلُهُ وإذا أصاخ فإنّه بَكْرُ
خَلّوا طريقَ الديْدَبون فقد وَلّى الصِّبا وتفاوتَ التَّجْرُ

[1] في نسخة الأصل: "(كلاها) والصواب ما أثبتت بنت الشاطئ.

فما أردت بقولك: كشراب قيلٍ: الواحد من الأقيال أم قيل ابن عِتْر من عاد؟ فيقول عمرو: إن الوجهين ليُتصوّران. فيقول الشيخ، بلّغه الله الأمانيَّ: ممّا يدُل على أنّ المراد قيل بن عتر، قولك: وجَرادتان تغنيّانهم، لأن الجرادتين، فيما قيل، مغنِّيَتان غنّتا لوفدِ عادٍ عند الجُرْهُميّ بمكة، فشُغلوا عن الطواف بالبيت وسؤال الله، سبحانه وتعالى، فيما قصدوا له فهلكَتْ عاد وهُمْ سامدون. ولقد وجدتُ في بعض كُتُب الأغاني صوتاً يقال غنَّته الجرادتان، فتفكّنتُ لذلك، والصوت: ٣،٤،١٠

أَقْفرَ من أهله المَصيفُ ... فبَطْنُ عَرْدةَ فالغَريفُ
هل تبلّغنّي ديارَ قومي ... مَهْرِيَّةٌ سَيرُها تلقيفُ
يا أمَّ عُثمانَ نوِّليني ... هل ينفع النائلُ الطّفيفُ

وهذا شعر على قريّ:

أقفرَ مِن أهله ملحوبُ

ومَن الذي نقل إلى المغنّين في عصر هارون وبعده أنّ هذا الشعر غنَّته الجرادتان؟ إنّ ذلك لَبعيد في المعقول، وما أجدرَه أن يكون مكذوباً. وقولك: ومُسِفّة دهماءُ داجنة، ما أردت به؟

وقولك: ومجلَجَل دانٍ زبرجدُه؟ فيقول ابن أحمر: أمّا ذكر الجرادتين فلا يدُلّ على أني خصصتُ قيل بن عترٍ وإن كان في الوفد الذي غنَّته الجرادتان، لأن العرب صارت تسمّي كلَّ قينةٍ جرادةً، حملاً على أنّ قينة في الدهر الأول كانت تُدعى الجرادة. قال الشاعر:

تُغنِّينا الجَرادُ ونحنُ شَرْبٌ ... نُعَلُّ الراحَ خالَطها المشُورُ

وأمّا المِسفّة الدَّهماء فإنّها القِدْر. وأمّا المجلجل الداني زبرجده، فهو العُود، وزبرجدُه ما حُسّن منه، أما تسمع القائل يسمّي ما تلوّن من السحاب زِبْرِجاً؟ ومن روى: مجلِجل، بكسر الجيم، أراد السحاب.

٤،٤،١٠ فيعجب الشيخ من هذه المقالة ويقول: كأنك أيها الرجل وأنت عربي صميم يُستشهد بألفاظك وقريضك، تزعُم أن الزَّبَرْجَد من الزِّبرِج، فهذا يقوّي ما ادّعاه صاحب العين من أنّ الدال زائدة في قولهم: صَلَخْدم، وأهل البصرة ينفرون من ذلك.

فيُلْهم الله القادر ابنَ أحمر عِلمَ التصريف، ليري الشيخ بُرهان القدرة، فيقول ابن أحمر: وماذا الذي أنكرتَ أن يكون الزبرج من لفظ الزَّبَرْجَد؟ كأنّ فعلاً صُرِف من الزبرجد، فلم يمكن أن يُجاء بحروفه كلّها، إذا كانت الأفعال لا يكون فيها خمسةُ أحرُفٍ من الأصول، فقيل: يُزَبرِج، ثم بُني من ذلك الفعل اسمٌ فقيل: زِبرج، ألا ترى أنهم إذا صغّروا فَرَزْدَقاً قالوا: فُرَيزِد، وإذا جمعوه قالوا: فَرازِد؟ وليس ذلك بدليل على أن القاف زائدة.

فيقول، خلّد الله ألفاظه في ديوان الأدب: كأنك زعمت أنّ فعلاً أُخذ من الزَّبرجد، ثم بُني منه الزِّبرج، فقد لزِمك على هذا أن تكون الأفعال قبل الأسماء. فيقول ابن أحمر: لا يلزَمني ذلك، لأني جعلتُ زبرجداً أصلاً، فيجوز أن يحدُث منه فروعٌ ليس حُكمها كحكم الأصول. ألا ترى أنهم يقولون: إنّ الفعل مشتقٌّ من المصدر؟ فهذا أصل، ثم يقولون: الصِّفة الجارية على الفعل، يعنون: الضارب والكريم وما كان نحوهما، فليس قولهم هذه المقالة بدليلٍ على أنّ الصفة مشتقّة من الفعل، إذا كانت اسماً، وحقُّ الأسماء أن تكون قبل الأفعال، وإنّما يراد أنه يُنطَق بالفعل منها كثيراً. ولمدَّعٍ أن يقول: الفعل مشتقٌّ من المصدر فهو فرعٌ عليه، والصِّفة فرع آخَر، فيجوز أن يتقدّم أحد الفرعين على صاحبه.

ثمّ يذكُر له أشياءَ من شعره، فيجده عن الجواب مستعجِماً، إن نطق نطق مجّاً.

فيقول: أيكم تميم بن أُبَيّ فيقول رجل منهم: ها أنا ذا. فيقول أخبرْني عن قولك: ٥،١٠

يا دارَ سَلْمى خَلاءً لا أُكلِّفها إلا المَرانةَ حتى تَسْأم الدِّينا

ما أردت بالمرانة؟ فقد قيل: إنك أردت اسم امرأة، وقيل: هي اسم ناقةٍ، وقيل: العادة. فيقول تميم: والله ما دخلتُ من باب الفردوس ومعي كلمة من الشعر ولا الرَّجز، وذلك أني حوسبتُ حساباً شديداً، وقيل لي: كنتَ فيمن قاتل عليَّ بن أبي طالب. وانبرى لي النَّجاشيّ الحارثيّ، فما أفلتُّ من اللّهَب حتى سفعني سَفَعاتٍ. وإن حِفظك لَمُبْقٍ عليك، كأنك لم تشهد أهوالَ الحساب، ومُنادي الحشر يقول: أين فلان بن فلان؟ والشُّوس الجبابرة من الملوك تجذِبهم الزَّبانِيَةُ إلى الجحيم، والنِّسْوة ذوات التِّيجان يُصَرْن بألسِنةٍ من الوَقود، فتأخذ في فروعهنَّ وأجسادهنَّ، فيصِحْن: هل من فِداء؟ هل من عُذرٍ يقام؟ والشباب من أولاد الأكاسرة يتضاغَوْن في سلاسل النار ويقولون: نحن أصحاب الكنوز، نحن أرباب الفانية، ولقد كانت لنا إلى الناس صنائعُ وأيادٍ فلا فادِيَ ولا مُعين!

فهتف داعٍ من قِبَل العرْش: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَصِيرٍ﴾ لقد جاءتكم الرُّسُل في زمانٍ بعد زمانٍ، وبذلتْ ما وُكِّد من الأمان،[1] وقيل لكم في الكتاب: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فكنتم في لذّات الساخرة واغلين، وعن أعمال الآخرة متشاغلين، فالآنَ ظهر النبأ، لا ظُلْمَ اليومَ إنّ الله قد حكم بين العِباد.

١ ب٤: (الأيمان) كما في بعض النسخ وفي ي، إف، ق؛ وفي ب: (الأمان) كما في نسخة الأصل.

فيقول، أنطقه الله بكل فضل، إن شاء ربُّه أن يقول: ١،١١

أنا أقُصّ عليك قِصّتي: لما نهضتُ أنتفض من الرَّيم، وحضرتُ حَرَصاتِ القيامة، والحرصات مثل العَرَصات، أُبدِلت الحاء بالعين، ذكرتُ الآية: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ فطال علي الأَمَد، واشتدّ الظمأ والوَمَد، والومد: شدَّة الحرّ وسكوت الريح، كما قال أخوكم النُّمَيري:

كأنّ بيْضَ نَعامٍ في مَلاحفها جَلاه طَلٌّ وقَيْظٌ ليلُه وَمِدُ

وأنا رجل مِهْيافٌ، أي سريع العَطَش، فافتكرت فرأيت أمرًا لا قِوام لمثلي به. ولقيني المَلَكُ الحفيظ بما زُبِر من فعل الخير، فوجدتُ حَسَناتي قليلةً كالنُّفا في العام الأرمل، والنُّفأ الرياض، والأرمل قليل المطر. إلا أن التوبة في آخرها كأنها مصباح أبيلٍ، رُفع لسالك السبيل.

فلمّا أقمت في الموقف زُهاءَ شهر أو شهرين، وخِفتُ في العرَق من الغرق، زيّنتْ لي ١،٢،١١ النفس الكاذبة أن أنظِم أبياتًا في رِضْوان، خازن الجنان، عملتها في وزن:

قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبيبٍ وعِرْفانِ

ووسمتُها برضوان. ثمّ ضانكتُ الناس حتى وقفتُ منه بحيث يسمع ويرى، فما حفل بي، ولا أظنّه أَبِهَ لما أقول. فغبرتُ بُرهة، نحو عشرة أيام من أيّام الفانية، ثم عملتُ أبياتًا في وزن:

بانَ الخليطُ ولو طُووِعْتُ ما بانا وقطَّعوا من حِبال الوصْل أقْرانا

ووسمتُها برضوان، ثمّ دنوتُ منه ففعلت كفعلي الأوّل، فكأني أحرّك ثبيرًا، وألتمس من الغِضرِم[1] عبيرًا، والغَضرِم: تُرابٌ يُشْبه الجِصّ، فلم أزل أتتبع الأوزان التي يمكن أن يُوسَم بها رضوان حتى أفنيتُها، وأنا لا أجد عنده مَغوثةً، ولا ظننته فَهِمَ ما أقول، فلمّا استقصيتُ الغَرَض فما أبحثُ، دعوتُ بأعلى صوتي: يا رضوان، يا أمين الجبّار الأعظم على الفراديس، ألم تسمع ندائي بك واستغاثتي إليك؟

٢،٢،١١ فقال: لقد سمعتُك تذكر رضوان وما علمتُ ما مَقْصِدُك، فما الذي تطلب أيها المسكين؟ فأقول: أنا رجل لا صبر لي على اللُّواب، أي العَطَش، وقد استطلتُ مُدّة الحساب، ومعي صَكٌّ بالتوبة، وهي للذنوب كلّها ماحِيَة، وقد مدحتُك بأشعارٍ كثيرة ووسمتُها باسمك.

فقال: وما الأشعار؟ فإني لم أسمع بهذه الكلمة قطّ إلا الساعة. فقلت: الأشعار جمع شِعْرٍ، والشعر كلام موزون تقبَله الغريزة على شرائط، إن زاد أو نقص أبانه الحِسّ، وكان أهل العاجلة يتقرّبون به إلى الملوك والسادات، فجئت بشيء منه إليك لعلك تأذن لي بالدُّخول إلى الجنة في هذا الباب، فقد استطلتُ ما الناس فيه، وأنا ضعيف مَنين؛ ولا رَيب أنّي ممن يرجو المغفرة، وتصحُّ له بمشيئة الله تعالى. فقال: إنك لَغبين الرأي! أتأمل أن آذَن لك بغير إذن من ربّ العزة؟ هيْهات هيْهات! ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

٣،١١ فتركتُه وانصرفت بأَمَلي إلى خازن آخَر يقال له زُفَر، فعملت كلمةً ووسمتها باسمه في وزن قول لبيد:

تَمَنّى ابنتايَ أن يعيشَ أبوهما وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مُضَرْ

وقُرِئتُ منه فأنشدتها، فكأني إنّما أخاطب رَكودًا صَمّاء، لأستنزل أَبودًا عَصْماء. ولم أترك وزنًا مقيّدًا ولا مُطْلَقًا يجوز أن يُوسَم بزُفَر إلا وسمتُه به، فما نجع ولا غيّر.

---

١ في كل النسخ (العضرم) وهو تصحيف.

فقلت: رحمك الله! كنّا في الدار الذاهبة نتقرّب إلى الرئيس والملك بالبيتين أو الثلاثة، فنجد عنده ما نحبّ، وقد نظمتُ فيك ما لو جُمع لكان ديوانًا، وكأنك ما سمعتَ لي زَجْمَةً، أي كلمة، فقال: لا أشعر بالذي حممتَ، أي قصدتَ، وأحسب هذا الذي تجيئني به قرآنُ إبليس المارد، ولا ينفُق على الملائكة، إنّما هو للجانّ وعلّموه ولدَ آدم، فما بُغْيتك؟ فذكرت له ما أريد، فقال: والله ما أقدرُ لك على نفع، ولا أملِك لخلقٍ من شفع، فمن أيّ الأمم أنت؟ فقلت: من أُمّة محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب. فقال: صدقتَ، ذلك نبيّ العرب، ومن تلك الجهة أتيتَني بالقريض، لأنّ إبليسَ اللعين نفثه في إقليم العرب فتعلّمه نساءٌ ورجالٌ. وقد وجب عليّ نُصْحُك، فعليك بصاحبك لعلّه يتوصّل إلى ما ابتغيْتَ.

فيئستُ ممّا عنده،فجعلت أتخلل العالَم، فإذا أنا برجل عليه نور يتلألأ، وحواليه رجال ٤،١١
تأتلق منهم أنوار. فقلت: من هذا الرجل؟ فقيل: هذا حَمْزة بن عبد المطّلب صريع وَحْشيّ، وهؤلاء الذين حوله من استُشهد من المسلمين في أُحُدٍ. فقلت لنفسي الكَذوب: الشعر عند هذا أنفقُ منه عند خازن الجنان، لأنه شاعر، وإخْوته شُعَراء، وكذلك أبوه وجدُّه، ولعلّه ليس بينه وبين مَعَدّ بن عَدْنان إلا من قد نظم شيئًا من موزون، فعملتُ أبياتًا على مَنْهج أبيات كَعْب بن مالكٍ التي رثى بها حمزة، وأوّلها:

صَفِيّةُ قُومي ولا تعْجَزي وبَكّي النِّساءَ على حَمْزةِ

وجئت حتى وليتُ منه فناديتُ: يا سيّد الشهداء، يا عمّ رسول الله صلّى الله عليه، يا ابن عبد المطّلب! فلمّا أقبل عليّ بوجهه أنشدتُه الأبيات. فقال: ويحك! أفي مثل هذا الموْطِن تجيئني بالمديح؟ أما سمعت الآية: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ فقلت: بَلى قد سمعتُها، وسمعت ما بعدها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ، تَرْهَقُها قَتَرَةٌ، أولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾. فقال: إنّي لا أقدِر

على ما تطلُب. ولكني أُنفذ معك تَوْرًا، أي رسولاً، إلى ابن أخي عليّ بن أبي طالبٍ، ليخاطب النبيَّ، صلّى الله عليه، في أمرك.

فبعث معي رجلاً، فلمّا قصَّ قصّتي على أمير المؤمنين، قال: أين بَيّنتُك؟ يعني صحيفة حَسَناتي. وكنتُ قد رأيت في المحشر شيخًا لنا كان يدرِّس النحو في الدار العاجلة، يُعرَف بأبي عليّ الفارسيّ، وقد امترس به قومٌ يطالبونه، ويقولون: تأوَّلتَ علينا وظلمتَنا. فلمّا رآني أشار إليّ بيده، فجئته فإذا عنده طَبَقَةٌ، منهم يزيد بن الحكَم الكِلابيُّ، وهو يقول: ويحك، أنشدتَ عني هذا البيت برفع الماء، يعني قوله: ١،٥،١١

فليتَ كَفافًا كان شرُّك كلُّهُ وخيرُك عني ما ارْتوى الماءُ مُرْتوي

ولم أقل إلّا الماءَ. وكذلك زعمتَ أني فتحت الميم في قولي:

تَبَدَّلْ خليلاً بي كشَكْلكَ شَكْلُهُ فإنّي خليلاً صالحًا بك مَقْتوي

وإنّما قلتُ: مُقْتوي بضمّ الميم.
وإذا هناك راجزٌ يقول: تأوّلتَ عليّ أني قلت:

يا إبِلي ما ذنبُه فتأبَيَهْ؟ ماءٌ رَواءٌ ونَصِيٌّ حوْلِيَهْ

فحرّكت الياء في تأبَيَه ووالله ما فعلتُ ولا غيري من العرب وإذا رجلٌ آخَر يقول: ادّعيتَ عليَّ أن الهاء راجعةٌ على الدَّرس في قولي:

هذا سُراقةُ للقرآن يدرُسُهُ والمرء عند الرَّشا إن يلْقَها ذِيبُ

أمجنونٌ أنا حتّى أعتقدَ ذلك؟

وإذا جماعةٌ من هذا الجنس كلُّهم يلومونه على تأويله. فقلت: يا قوم، إن هذه أمورٌ هيّنةٌ، فلا تُعْنِتوا هذا الشيخ، فإنّه يمُتُّ بكتابه في القرآن المعروف بكتاب الحُجّة، وإنه ما سفك لكم دماً، ولا احتجن عنكم مالاً، فتقرّقوا عنه.

وشُغلتُ بخطابهم والنَّظر في حَيرهم، فسقط منّي الكتاب الذي فيه ذكر التَّوبة، ٢،٥،١١ فرجعتُ أطلبه فما وجدته.

فأظهرتُ الوَلَه والجَزَع، فقال أمير المؤمنين: لا عليك، ألك شاهدٌ بالتَّوبة؟ فقلت: نعم، قاضي حَلَبَ وعُدولُها. فقال: بمن يُعرف ذلك الرجل؟ فأقول: بعبد المنعم بن عبد الكريم قاضي حلب، حرسها الله، في أيّام شِبْل الدَّولة.

فأقام هاتفاً يهتِف في الموقف: يا عبد المنعم بن عبد الكريم قاضي حلب في زمان شبل الدَّولة، هل معك علمٌ من توبة عليّ بن منصور بن طالب الحلبيّ الأديب؟

فلم يُجبْه أحد. فأخذني الهَلَع والقَلَقُ، أي الرِّعدة، ثم هتف الثانيةَ، فلم يجبه مجيب، فلمِعَ بي عند ذلك، أي صُرعتُ إلى الأرض، ثمّ نادى الثالثةَ، فأجابه قائلٌ يقول: نعم، قد شهدتُ توبة عليّ بن منصور، وذلك بأَخَرةٍ من الوقت، وحضرتْ مَتابه عندي جماعةٌ من العدول، وأنا يومئذٍ قاضي حلب وأعمالها، والله المستعان.

فعندها نهضتُ وقد أخذتُ الرَّمَق، فذكرت لأمير المؤمنين، عليه السَّلام، ما ألتمس، فأعرض عنّي وقال: إنّك لَتَرومُ حَدَدًا[1] ممتنعاً، ولك أُسْوةٌ بولد أبيك آدم.

وهممتُ بالحوض، فكِدت لا أصِل إليه، ثمّ نعبتُ منه نُعَباتٍ لا ظمأ بعدها؛ وإذا الكَفَرة ١،٦،١١ يحملون أنفسَهم على الورد، فتذودهم الزَّبانية بعِصِيٍّ تضطرم ناراً، فيرجع أحدهم وقد احترق وجهُه أو يدُه وهو يدعو بويْل وثُبور. فطُفتُ على العِترة المنتجَبين فقلت: إنّي كنت في الدار الذاهبة إذا كتبت كتاباً وفرغت منه قلت في آخره: وصلّى الله على سيّدنا محمّد خاتَم النَّبيّين، وعلى عِترته الأخيار الطَّيّبين. وهذه حُرمةٌ لي ووسيلةٌ، فقالوا: ما نصنع بك؟ فقلت: إنَّ مولاتَنا فاطمة، عليها السلام، قد دخلت الجنّة مذ

١ رواية الأصل (جددا).

دهرٍ، وإنَّها تخرج في كلِّ حينٍ مقدارُه أربعٌ وعشرون ساعةً من الدُّنيا الفانية فتُسلِّم على أبيها، وهو قائمٌ لشهادة القضاء، ثمّ تعود إلى مستقرّها من الجنان، فإذا هي خرجت كالعادة، فاسألوا في أمري بأجمعكم، فلعلّها تسأل أباها فِيَّ.

٢،٦،١١ فلمّا حان خروجها ونادى الهاتفُ أن غُضُّوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبُر فاطمةُ بنت محمد، صلّى الله عليه، اجتمع من آل أبي طالبٍ خلقٌ كثيرٌ من ذكورٍ وإناثٍ، ممّن لم يشرب خمرًا، ولا عرف قطُّ مُنكرًا. فلقُوها في بعض السبيل، فلمّا رأتهم قالت: ما بالُ هذه الزَّرافة؟ ألكم حالٌ تُذكر؟ فقالوا: نحن بخيرٍ، إنّا نلتذُّ بتُحَف أهل الجنّة، غير أنّا محبوسون للكلمة السابقة، ولا نريد أن نتسرَّع إلى الجنّة من قبل الميقات، إذ كنّا آمنين ناعمين بدليل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ. لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ. لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ، وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ: هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾

وكان فيهم عليُّ بن الحسين وابناه محمّدٌ وزيدٌ، وغيرهم من الأبرار الصالحين. ومع فاطمة، عليها السلام، امرأة أخرى تجري مجراها في الشرف والجلالة، فقيل: من هذه؟ فقيل: خديجة ابنة خُوَيلد بن أسد بن عبد العُزَّى.

ومعها شبابٌ على أفراسٍ من نُورٍ. فقيل: عبد الله والقاسم والطَّيّب والطاهر وإبراهيم: بنو محمدٍ، صلّى الله عليه. فقالت تلك الجماعة التي سألتُ: هذا وليٌّ من أوليائنا، قد صحّت توبته، ولا ريْب أنه من أهل الجنّة، وقد توسَّل بنا إليكِ، صلّى الله عليك، في أن يُراح من أهوال الموقف، ويصير إلى الجنّة فيتعجّل الفوزَ.

فقالت لأخيها إبراهيم، صلّى الله عليه: دونَك الرجلَ. فقال لي: تَعلَّقْ بركابي. وجعلتْ تلك الخيلُ تَخَلَّلُ الناسَ وتنكشف لها الأُمم والأجيال، فلمّا عظُم الزِّحام طارت في الهواء، وأنا متعلّق بالرِّكاب، فوقفتْ عند محمّدٍ، صلّى الله عليه وسلم.

٧،١١ فقال: مَن هذا الأَتاويُّ؟ أي الغريب، فقالت له: هذا رجلٌ سأل فلانٌ وفلانٌ، وسمّتْ جماعةً من الأئمة الطاهرين، فقال: حتَّى يُنْظَر في عمله. فسأل عن عملي فوُجد في

الدّيوان الأعظم وقد خُتم بالتوبة، فشفع لي، فأُذِن لي في الدُّخول. ولمّا انصرفت الزَّهراء، عليها السلام، تعلّقتُ بركاب إبراهيم، صلّى الله عليه.

١،٨،١١ فلمّا خلصتُ من تلك الطُّموش، قيل لي: هذا الصِّراطُ فاعبُرْ عليه. فوجدتُه خالياً لا عَريبَ عنده فبلوْتُ نفسي في العبور، فوجدتُني لا أستمسك. فقالت الزَّهراء، صلّى الله عليها الجاريةٍ من جواريها: يا فلانة أَجيزيه. فجعلتْ تُمارسني وأنا أتساقط عن يمينٍ وشِمالٍ، فقلت: يا هذه، إن أردتِ سلامتي فاستعملي معي قول القائل في الدار العاجلة:

سِتِّ إن أعياكِ أمري فاحْمِليني زَقَفُونَهْ

فقالت: وما زَقَفُونَة؟ قلت: أن يطرَح الإنسانُ يديه على كَتِفَي الآخَر، ويُمسك الحاملُ بيديه، ويحمله وبطنُه إلى ظهره، أما سمعتِ قول الحَجْلول من أهل كَفْرطاب:

صلحتْ حالتي إلى الخَلْف حتى صِرْتُ أمشي إلى الوَرى زَقَفُونَهْ

فقالت: ما سمعتُ بزقفونة، ولا الحجلول، ولا كفرطاب، إلّا الساعةَ. فتحملني وتجوز كالبرق الخاطف. فلمّا جُزتُ، قالت الزَّهراء، عليها السلام: قد وهبْنا لك هذه الجارية فخُذْها كي تخدمك في الجنان.

٢،٨،١١ فلمّا صرتُ إلى باب الجنّة، قال لي رضوانُ: هل معك من جوازٍ؟ فقلت: لا. فقال لا سبيل لك إلى الدخول إلا به فبَعِلتُ بالأمر، وعلى باب الجنَّة من داخلٍ شجرةُ صَفْصافٍ، فقلت: أعطِني ورقةً من هذه الصَّفصافة حتى أرجع إلى الموْقف فآخذَ عليها جوازًا، فقال: لا أُخْرِج شيئًا من الجنّة إلا بإذنٍ من العليّ الأعلى، تقدَّس وتبارك. فلمّا دَجِرتُ بالنازلة، قلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون! لو أن للأمير أبي المُرَجّى خازنًا مثلك، ما وصلتُ أنا ولا غيري إلى قُرقوفٍ من خِزانته. والقرقوف: الدِّرهم.

والتفت إبراهيم، صلّى الله عليه، فرآني وقد تخلفتُ عنه، فرجع إليَّ فجذبني جَذْبةً حصَّلني بها في الجنة. وكان مُقامي في الموقف مُدّةَ ستّة أشهُرٍ من شهور العاجلة، فلذلك بقي عليَّ حِفظي ما نزفته الأهوال، ولا نهكه تدقيقُ الحساب.

فأيكم راعي الإبل؟ فيقولون: هذا. فيسلّم عليه الشيخ ويقول: أرجو أن لا أجِدك مثل أصحابك صِفرًا من حِفظك وعربيّتك. فيقول: أرجو ذلك، فاسألني ولا تُطيلنَّ. فيقول: أحقُّ ما روى عنك سيبويه في قصيدتك اللاميّة التي تمدَح بها عبد الملك بن مَرْوان من أنك تنصِب الجماعة في قولك: ١،١٢

أيَامَ قومِي والجماعةَ كالذي ... لزِم الرِّحالةَ أن تَميلَ مَميلا

فيقول: حقٌّ ذلك.

وينصرف عنه رشيدًا إلى حُميد بن ثوْر فيقول: إيه يا حميد! لقد أحسنت في قولك: ١،٢،١٢

أرى بَصَري قد رابني بعد صِحّةٍ ... وحسْبُك داءً أن تصِحَّ وتَسْلَما
ولن يلبَثَ العَصْرانِ يومٌ وليلةٌ ... إذا طلبا أن يُدْرِكا ما تَيَمّما

فكيف بصرك اليوم؟ فيقول: إني لأكونُ في مَغارب الجنّة، فألمَحُ الصَّديق من أصدقائي وهو بمَشارقها، وبيني وبينه مَسيرة ألوف أعوامٍ للشمس التي عرفتَ سُرعة مسيرها في العاجلة! فتعالى الله القادر على كلّ بديع.

فيقول: لقد أحسنت في الداليّة التي أوّلها: ٢،٢،١٢

جُلُبّانةٌ وَمرْهاءُ تَخْصي حِمارَها ... بِفِي مَن بغى خيرًا لديْها الجَلامدُ
إزاءُ مَعاشٍ لا يَزال نِطاقُها ... شديدًا وفيها سَوْرةٌ وهْي قاعدُ
تتابَعَ أعوامٌ عليها هَزَلْنَها ... وأقبل عامٌ يَنْعَش النّاسَ واحدُ

فيقول حميدٌ: لقد ذهلتُ عن كلّ ميمٍ ودال، وشُغلتُ بملاعَبة حُورٍ خِدال. فيقول: أمِثْلُ هذه الداليّة تُرْفَض وفيها:

عَضَمَرَةٌ فيها بَقاءٌ وشِدَّةٌ ووالٍ لها بادي النصيحة جاهدُ
إذا ما دعا أَجْيادَ جاءت خناجرٌ لها ميمُ لا يمشي إليهنّ قائدُ
فجاءت بمعيوف الشريعة مُكْلَعٍ أرشَّتْ عليه بالأُكُفِّ السواعدُ

وفيها الصفة التي ظننت القُطاميَّ أخذها منك، وقد يجوز أن يكون سبقك لأنكما في عصرٍ واحد، وذلك قولك: ٣،٢،١٢

تأوَّبها في ليلِ نَحْسٍ وقِرَّةٍ خليلي أبو الخَشْخاش والليلُ باردُ
فقام يصاديها فقالت تُريدني على الزاد؟ شَكْلٌ بيننا متباعدُ
إذا قال مهلاً أَسْجِحي لمحثّه بزرْقاءَ لم تدخُلْ عليها المَراودُ
كأنّ حِجاجيْ رأسها في ملثَّمٍ من الصخرِ جوْنٍ أخلقته المَواردُ

هذه الصِّفة نحوٌ من قول القُطاميّ:

تلفّعتُ في طَلٍّ وريحٍ تلُفُّني وفي طِرْمساء غيرِ ذاتِ كواكبِ
إلى حيْزَبونٍ تُوقِد النارَ بعدما تصوَّبتِ الجوْزاءُ قَصْدَ المَغاربِ
فما راعها إلا بُغامُ مَطيّةٍ تروح بمحسورٍ من الصوت لاغبِ
وجُنَّت جُنونًا من دِلاثِ مُناخةٍ ومن رَجُلٍ عاري الأشاجع شاحبِ
تقول وقد قرَّبتُ كُوري وناقتي إليك فلا تَذْعَرْ عليَّ ركائبي

والأبيات معروفةٌ. وقلتَ في هذه القصيدة: ٤،٢،١٢

فجاء بذي أَوَنيْن أُعبِرَ شأنُه وعُمِّرحتى قيل هلْ هو خالدُ
فعزّاه حتى أسنداه كأنه على القَرْوِ عُلفوفٌ من التُّرْكِ سائدُ

وفيها ذكر الزُّبدة:

فلمّا تجلّى الليلُ عنها وأسفرتْ وفي غَلَس الصُّبح الشُّخوصُ الأباعدُ
رمى عينَه منها بصفراءَ جَعْدةٍ عليها تُعانيه وعنها تُراوِدُ

فيقول حميدٌ: لقد شُغلتُ عن زُبدٍ، وطرَدِ النافرة من الزُّبد، بما وهب ربّي الكريم، ولا خوفَ عليَّ ولا حَزَن. ولقد كان الرجل منا يُعْمل فكرَه السَّنة أو الأشهُر، في الرَّجل قد آتاه الله الشَّرَف والمال، فربّما رجع بالخيْبة، وإن أُعطي فعَطاءٌ زهيدٌ، ولكنَّ النظم فضيلة العرب.

ويعرض لهم لبيد بن رَبيعة فيدعوهم إلى منزله بالقيسيّة، ويُقْسِم عليهم لَيذهبُنَّ معه، ٣،١٢
يتمشوْن قليلاً، فإذا هم بأبياتٍ ثلاثةٍ ليس في الجنّة نظيرُها بَهاءً وحُسناً، فيقول لبيدٌ: أتعرف أيها الأديب الحلبيّ هذه الأبيات؟ فيقول: لا والذي حجّت القبائلُ كعبتَه! فيقول: أمّا الأول فقولي:

إنّ تَقْوى ربّنا خيرُ نَفَلْ وبإذن الله ريْثي وعَجَلْ

وأمّا الثاني فهو قولي:

أحمَدُ اللهَ فلا نِدَّ له بيديْه الخيرُ ما شاء فَعَلْ

وأمّا الثالث فقولي:

مَن هداه سُبلَ الخير اهتدى ناعمَ البالِ ومن شاء أَضَلْ

صيَّرها ربّي اللطيف الخبير أبياتاً في الجنّة، أسكُنها أُخرى الأبد، وأنعَمُ نعيمَ المخلَّد. فيجب هو وأولئك القوم ويقولون: إنَّ الله قديرٌ على ما أراد.

١،١،١٣ ويبدو له، أيّد الله مَجْدَه بالتأييد، أن يصنع مأدُبةً في الجنان، يجمع فيها من أمكن من شُعراء الخَضْرَمة والإسلام، والذين أصّلوا كلام العرب، وجعلوه محفوظاً في الكتب، وغيرهم ممن يتأنس بقليل الأدب. فيخطِر له أن تكون كمآدب الدار العاجلة، إذ كان البارئ، جلّت عَظَمته، لا يُعجزه أن يأتيهم بجميع الأغراض من غير كُلفة ولا إبطاء.

فتُنشأ أرحاءٌ على الكوثَر، تجعجِع لطَحْن بُرٍّ من بُرّ الجنّة، وإنه لأفضلُ من برّ الهُذَليّ الذي قال فيه:

لا دَرَّ دَرِّيَ إن أطعمتُ رائدَهمْ ... قِرَفَ الحتيّ وعندي البرُّ مكنوزُ

بمقدارٍ تفضُل به السموات الأرَضِين.

٢،١،١٣ فيقترح، أمضى القادر له اقتراحه، أن تحضر بين يديه جوارٍ من الحُور العِين، يعتملن بأرحاء اليد: فرَحًى من دُرٍّ ورحًى من عَسْجَدٍ، وأرحاءٌ لم ير أهل العاجلة شيئًا من شكل جواهرهنّ. فإذا نظر إليهنّ، حمد الله سبحانه على ما منح، وذكر قول الراجز:

أعددتُ للضَّيف وللجيرانِ ... حَرِيَّتَيْنِ تتعاورانِ
لا تَرأمانِ وهُما ظِئْرانِ

يصف رحى اليد.

ويبتسم إليهنّ ويقول: اطْحَنّ شَزْرًا وبَتًّا. فيقلن: ما شزرٌ وما بتّ؟ فيقول: الشَّزر على أيمانكنّ، والبتُّ على شمائلكنّ، أما سمعتنّ قول القائل:

ونُصْبِح بالغداة أتَرَّ شيءٍ ... وتُمسي بالعشيّ طَلَنْفِحِينا
ونَطْحَن بالرَّحى شَزْرًا وبَتًّا ... ولو نُعْطَى المَغازِلَ ما عَيِينا

ويقال: إن هذا الشعر لرجل أُسِرَ فكتب إلى قومه بذلك.

ويَحِسُ في صدره، عمَّره الله بالسُّرور، أرجاءٌ تدور فيها البهائم، فيمثُل بين يديه ما شاء الله من البيوت، فيها أحجارٌ من جواهر الجنة، تدير بعضَها جِمالٌ تسوم في عِضاه الفردوس، وأينُقٌ لا تعطِف على الحِيران، وصنوفٌ من البِغال والبقر وبنات صَعْدة.

٣،١،١٣ فإذا اجتمع من الطّحن ما يظنُّ أنه كافٍ للمأدُبة، تفرّق خدمُه من الوِلدان المخلَّدين فجاؤوا بالعماريس، وهي الجِداء، وضروب الطير التي جرت العادة بأكلها، كأبجاج العَكارم، وجوازل الطواويس، والسَّمين من دَجاج الرَّحمة وفراريج الخُلد، وسيقت البقر والغنم والإبل لتُعتبَط؛ فارتفع رُغاء العَكَر ويُعار المِعز وثؤاج الضأن وصياح الدّيكة لعِيان المُدْية. وذلك كلُّه، بحمد الله، لا ألَم فيه، وإنما هو جِدٌّ مثلُ اللَّعِب، فلا إله إلّا الله الذي ابتدع خَلقَه من غير رويّةٍ، وصوَّره بلا مِثال.

فإذا حصلت النَّحوضُ فوق الأوفاض، والأوفاض مثل الأوضام بلُغة طَيِّء، قال، زاد الله أمره من النَّفاذ: أحضِروا من في الجنة من الطُّهاة الساكنين بحَلَبَ على مَمَرّ الأزمان.

فتحضُر جماعةٌ كثيرةٌ، فيأمرهم باتّخاذ الأطعمة، وتلك لذَّةٌ يَهَبها الله، عزَّ سلطانه، بدليل قوله: ﴿ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾. فإذا أتت الأطعمة، افترق غِلمانه الذين ﴿ كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ ﴾، لإحضار المدعُوّين، فلا يتركون في الجنة شاعراً إسلامياً ولا مخضرَماً ولا عالماً بشيءٍ من أصناف العلوم ولا متأدّباً، إلا أحضروه. فيجتمع بَجَدٌ عظيمٌ، والبجد: الخَلق الكثير، قال الشاعر:

تطوف البجودُ بأبوابه من الضُّر في أَزَمات السّنينا

فتوضَع الخُون من الذهب، والفواثير من اللُّجَين، ويجلس عليها الآكلون، وتُنْقَل إليهم الصِّحاف، فتُقيم الصّحفة لديهم وهم يُصيبون ممّا ضُمّنته كُمْرٌ كُوَيّ وسُرَيّ وهما النَّسْرانِ من النجوم. فإذا قضَوُا الأَرَب من الطّعام، جاءت السُّقاة بأصناف الأشربة، والمُسْمِعات بالأصوات المُطْرِبة.

ويقول، لا فتئ ناطقاً بالصواب: عليَّ بمن في الجنة من المغنّين والمغنّيات ممن كان في الدار العاجلة، فقُضيتْ له التَّوبة. فتحضر جماعةٌ كثيرةٌ من رجال ونساء، فيهم الغَريض ومَعْبَدٌ وابن مِسْجَح وابن سُرَيج، إلى أن يحضر إبراهيم المَوْصِليُّ وابنه إسحاق. فيقول قائلٌ من الجماعة، وقد رأى أسراب قِيانٍ قد حضرن، مثل بَصْبَص[1] ودنانير وعِنان: من العجب أن الجَرادتيْن في أقاصي الجنة. فإذا سمع ذلك، لا برح سمعُه مطروقاً بما يُبْهجه، قال: لا بُدَّ من حضورهما. فيركب بعض الخدم ناقةً من نُوق الجنة، ويذهب إليهما على بُعد مكانهما. ١،٢،١٣

فتُقْبلان على نجيبين أسرع من البرق اللامع. فإذا حصلتا في المجلس، حيّاهما وبشَّ بهما وقال: كيف خلصتما إلى دار الرحمة بعدما خبطتُما في الضلال؟ فتقولان: قُدرتْ لنا التَّوبة ومُتْنا على دين الأنبياء المرسَلين. فيقول: أحسن الله إليكما، أسمِعانا شيئاً من القصيدة الحائية التي تُروى لعَبيد مرةً ولأوْس أخرى، وما سَمِعَتا قطُّ بعبيد ولا أوس، فتُلْهَمان أن تُغنيّا بالمطلوب.

فتُلحّنان: ٢،٢،١٣

وَدِّعْ لَمِيسَ وَداعَ الوامقِ اللاحي ... قد فنَّكتْ في فَسادٍ بعد إصلاحِ
إذ تستبيكَ بمصقولٍ عوارضُه ... حَمْشِ اللِّثات عِذابٍ غيرِ مِلْاحِ
كأنّ رِيقتَها بعد الكَرَى اغتبقتْ ... من ماءِ أدكنَ في الحانوت نَضّاحِ
ومن مُشَعْشَعةٍ ورْهاءَ نشْوتُها ... ومن أنابيبِ رُمّانٍ وتُفّاحِ
هبَّت تلوم وليست ساعةَ اللاحي ... هلاّ انتظرتِ بهذا اللَّوْم إصباحي!
قاتَلها الله تَلْحاني وقد علمتْ ... أني لنفسيَ إفسادي وإصلاحي
إن أشرَبِ الخمرَ أو أُرْزأْ لها ثمنًا ... فلا مَحالةَ يومًا أنني صاحِ
ولا مَحالةَ من قبرٍ بمَحْنِيةٍ ... أو في مَليحٍ كظَهْرِ التُّرْسِ وضّاحِ

[1] في نسخة الأصل وفي ي: (بصيص).

فتُطْربان مَن سمع، وتستفزّان الأفئدة بالسُّرور، ويكثر حمدُ الله، سبحانه، كما أنعم على المؤمنين والتائبين، وخلَّصهم من دار الشِّقْوة إلى محلِّ النعيم.

٣،١٣ ويعرِض له، أدام الله الجمال ببقائه، الشَّوقُ إلى نظرسَحابٍ كالسحاب الذي وصفه قائل هذه القصيدة في قوله:

إنِّي أرِقْتُ ولم تأرَقْ معي صاحِ ... لمستكِفٍّ بُعيْد النَّوم لَمّاحِ
قد نِمْتَ عنّي وبات البرْقُ يُسْهِرني ... كما استضاء يهوديٌّ بمصباحِ
تَهْدي الجَنوبُ بأُولاه وناء به ... أعجارُ مُزْنٍ يسوق الماءَ دلاّحِ
كأنّ رِيّقَه لمّا علا شَطِباً ... أقرابُ أبلقَ ينفي الخيلَ رَمّاحِ
كأنّ فيه عِشاراً جِلّةً شُرُفاً ... عُوذاً مطافيلَ قد همَّت بإرشاحِ
دانٍ مُسِفٌّ فُويق الأرض هيْدَبُهُ ... يكاد يدفعه مَن قام بالراحِ
فمَن بنَجْوته كمن بعَقْوته ... والمستكِنُّ كمن يمشي بقِرواحِ
وأصبح الروضُ والقِيعان مُمرِعةً ... ما بين منفتقٍ منه ومُنصاحِ

فينشىء الله، تعالت آلاؤه، سحابةً كأحسنِ ما يكون من السُّحب، من نظر إليها شهِد أنه لم ير قطُّ شيئاً أحسن منها، مُحلاّةً بالبرق في وَسَطها وأطرافها، تُمطر بماء وَرْد الجنّة من طَلٍّ وطَشٍّ، وتنثُر حَصى الكافور كأنه صِغار البَرَد، فعزَّ إلهنا القديم الذي لا يُعْجِزه تصويرُ الأمانيّ وتكوين الهواجس من الظُّنون.

٤،١٣ ويلتفت فإذا هو بجِران العَوْد النُّميريّ، فيُحيّيه ويرحِّب به، ويقول لبعض القِيان: أسمِعينا قول هذا المُحْسِن:

حمَلْن جِرانَ العوْدِ حتى وضعنَه ... بعَلْياءَ في أرجائها الجِنُّ تَعْزِفُ
وأحرزْن منّا كلَّ جُحْزةِ مئزرٍ ... لهنَّ وطاح النَّوْفَليُّ المزَخْرَفُ
وقُلْن تَمتّعْ ليلةَ النّأْي هذه ... فإنّك مرجومٌ غداً أو مسيَّفُ

وهذا البيت يُروى لسُحَيْم، فتُصيب تلك القينة وتجيد. فإذا عجبت الجماعةُ من إحسانها وإصابتها قالت: أتدرون من أنا؟ فيقولون: لا والله المحمود! فتقول: أنا أمُّ عَمرٍو التي[1] يقول فيها القائل:

تصُدُّ الكأسَ عنّا أمَّ عمرٍو وكان الكأسُ مَجراها اليمينا
وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمرٍو بصاحبكِ الذي لا تَصْبَحينا

فيزدادون بها عَجَبًا ولها إكرامًا، ويقولون:لمن هذا الشعر؟ ألعمرو بن عَديّ اللَّخْمي أم لعمرو ابن كلثوم التَّغْلبيّ؟ فتقول: أنا شهدت نَدْمانيْ جَذيمةَ: مالكًا وعَقيلاً، وصَبَحْتُهما الخمر المشعشَعة لمّا وجدا عمرو بن عديّ، فكنت أصرف الكأس عنه، فقال هذين البيتين، فلعلَّ عمرو بن كلثومٍ حسَّن بهما كلامَه واستزادهما في أبياته.

ويذكر، أذكره الله بالصالحات، الأبياتَ التي تُنسَب إلى الخليل بن أحمد. والخليل ٥،١٣
يومئذٍ في الجماعة، وأنها تصلُح لأن يُرقَص عليها، فيُنْشئ الله، القادر بلُطف حكمته، شجرةً من عَفْر، والعفْر الجوْز، فتُونِع لوقتها، ثمّ تنفُض عَدَدًا لا يُحصيه إلا الله سبحانه، وتنشقُّ كلُّ واحدةٍ منه عن أربع جَوارٍ يرُقْن الرائين، ممّن قرُب والنائين، يرقُصن على الأبيات المنسوبة إلى الخليل، وأوّلها:

إنَّ الخليط تَصَدَّعْ فطِرْ بدائكَ أو قَعْ
لولا جَوارٍ حِسانٌ مثلُ الجآذر أربَعْ
أمُّ الرَّباب وأسما ءُ والبَغوم وبَوْزَعْ
لقلتُ للظاعن: اظعَنْ إذا بدا لكَ أو دَعْ!

[1] في كل النسخ: (الذي).

فتهتزّ أرجاءُ الجنّة، ويقول، لا زال مُنطَقاً بالسَّدَد[1]: لمن هذه الأبيات يا أبا عبد الرحمن؟ فيقول الخليل: لا أعلم. فيقول: إنّا كنّا في الدار العاجلة نروي هذه الأبيات لك. فيقول الخليل: لا أذكر شيئاً من ذلك، ويجوز أن يكون ما قيل حقّاً. فيقول: أفنسِيتَ يا أبا عبد الرحمن وأنت أذكرُ[2] العرب في عصرك؟ فيقول الخليل: إنّ عبور السِّراط ينفُض الخَلَد ممّا استُودع.

٦،١٣ ويخطِر له ذكرُ الفُقّاع الذي كان يُعمَل في الدار الخادعة، فيُجري الله بقُدرته أنهاراً من فُقّاع، الجُرعة منها لو عُدلتْ بلذّات الفانية، منذ خلقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ إلى يومٍ تَطْوي الأُممَ الآخرةُ، لكانت أفضلَ وأشفَّ. فيقول في نفسه: قد علمتُ أنّ الله قديرٌ، والذي أريد نحوُ ما كنتُ أراه مع الطَّوّافين في الدار الذاهبة. فلا تكمُل هذه المقالة حتى يجمع الله كلَّ فقّاعيٍّ في الجنّة من أهل العراق والشام وغيرهما من البلاد، بين أيديهم الوِلْدانُ المخلَّدون يحملون السِّلال إلى أهل ذلك المجلس.

فيقول، حفِظ الله على أهل الأدب حوْباءه، لمن حضره من أهل العلم: ما تُسمّى هذه السِّلال بالعربيّة؟ فيُرمُّون، أي يسكُتون، ويقول بعضهم: هذه تُسمّى البواسن، واحدتها باسنةٌ، فيقول قائلٌ من الحاضرين: من ذكر هذا من أهل اللغة؟ فيقول، لا انفكّت الفوائد واصلةً منه إلى الجُلساء: قد ذكرها ابن دُرُسْتَوَيْه، وهو يومئذٍ في الحضرة. فيقول له الخليل: من أين جئت بهذا الحرف؟ فيقول ابن درستويه: وجدتُه في كتب النَّضْر بن شُميل. فيقول الخليل: أتحُقُّ هذا يا نضر، فأنت عندنا الثقة؟ فيقول النَّضر: قد الْتبس عليَّ الأمر، ولم يحْكِ الرجل إن شاء الله، إلا حقّاً.

٧،١٣ ويعبُر بين تلك الأكراس، أي الجماعات، طاووسٌ من طواويس الجنّة يروق من رآه حُسناً، فيشتهيه أبو عُبيدة مَصوصاً، فيتكوّن كذلك في صَحْفةٍ من الذّهب. فإذا قُضي منه الوَطَر، انضمّت عظامُه بعضها إلى بعضٍ، ثمّ تصير طاووساً كما بدأ.

---

١ ب٤، ق،إف: (بالسداد). وفي ب: (بالسدد) كما في نسخة الأصل. ٢ في كل النسخ: (أذكى)والأرجح أن الصواب (أذكر) كما ظنّ نيكلسون، وتبعته بنت الشاطئ.

فتقول الجماعة: سبحان ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾. هذا كما جاء في الكتاب الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ويقول هو، آنس الله بحياته، لمن حضر: ما موضع يطمئنّ؟ فيقولون: نَصْبٌ بلامِ كَيْ. فيقول: هل يجوز غير ذلك؟ [فيقولون:][1] لا يحضُرنا شيءٌ. فيقول: يجوز أن يكون في موضع جَزْمٍ بلام الأمر، ويكون مخرَجُ الكلام مخرَجَ الدُّعاء، كما يقال: يا ربِّ اغْفِرْ لي، وأمّا قوله الحكايةَ عن عازر: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقد قُرِئَ برفع الميم وسكونها، فالرفع على الخبر والسكون على أنه أمرٌ من الله، جلَّ سلطانه. وأجاز أبو عليٍّ الفارسيُّ أن يكون اعلمْ مُخاطَبةً من عازر لنفسه، لأن مثل هذا معروفٌ. يقول القائل، وهو يعني نفسَه: ويحك ما فعلتَ وما صنعتَ! ومنه قول الحادرة الذُّبيانيّ:

بكرتْ سُمَيّةُ غُدْوةً فتمتَّعِ وغدتْ غُدُوَّ مُفارقٍ لم يَرْبَعِ

٨،١٣ وتمُرُّ إوَزّةٌ مثل البُخْتيّة، فيتمنّاها بعض القوم شِواءً، فتتمثَّل على خوانٍ من الزُّمُرُّد، فإذا قُضيت منها الحاجةُ، عادت بإذن الله إلى هيئة ذوات الجَناح، ويختارها بعض الحاضرين كَرْدَناجاً، وبعضهم معمولةً بسُمّاقٍ، وبعضهم معمولةً بلبنٍ وخَلّ، وغير ذلك، وهي تكون على ما يريدون. فإذا تكرَّرت بينهم قال أبو عثمان المازنيُّ لعبد الملك بن قُرَيب الأصمعيّ: يا أبا سعيدٍ، ما وزْن إوَزّة؟ فيقول الأصمعيّ: ألِي تُعَرِّض بهذا يا فُصْعُل، وطال ما جئتَ مجلسي بالبصرة وأنت لا يُرْفَع بك رأسٌ؟ وزن إوزّة في الموجود إفَعْلةٌ، ووزنُها في الأصل إفْعَلةٌ. فيقول المازنيّ: ما الدليل على أنّ الهمزة فيها زائدة، وأنها ليست بأصْليّة ووزنها ليس فِعَلّةً؟ فيقول الأصمعيّ: أمّا زيادة الهمزة في أوّلها فيدلُّ عليه قولهم وَزٌّ. فيقول أبو عثمان: ليس ذلك بدليلٍ على أنّ الهمزة زائدة، لأنهم قد قالوا ناسٌ، وأصلُه أُناس، ومِيهةٌ لجُدَريّ الغَنَم، وإنّما هو أَمِيهةٌ، فيقول الأصمعيُّ: أليس

[1] أضافتها بنت الشاطئ، إذ يقتضيها السياق.

أصحابك من أهل القِياس يزعُمون أنها إفْعَلةٌ، وإذا بنوْا من أوى اسماً على وزن إوزّة قالوا: إيَاَهٌ ولو أنها فِعَلّةٌ قالوا: إوَيَةٌ، ولو جاؤوا بها على إفَعْلةٍ، بسكون العين، قالوا: إيَيَةٌ، والياء التي بعد الهمزة، وهي همزة أوى، جُعلت ياءً لاجتماع الهمزتين، ولأنّ قبلها مكسوراً وهي مفتوحةٌ. وإذا خفّفتَ همزة مئْزَرٍ، جعلتَها ياءً خالصةً. فيقول المازنيُّ: تأوُّلٌ من أصحابنا وادِّعاءٌ، لأنّ إوَزّة لم يثْبُت أنّ الهمزة فيها زائدةٌ. فيقول الأصمعيُّ:

رمَيَّشتْ جُرْهُمُ نَبْلاً فرمى جُرْهُمًا منهنَّ فُوقٌ وغِرارُ[1]

تبِعتَهم مستفيداً، ثمّ طعنتَ فيما قالوه مُعيداً، ما مَثَلُك ومَثَلهم إلّا كما قال الأوّل:

أُعلّمُه الرِّمايةَ كلَّ يومٍ فلمّا اسْتَدَّ ساعدُه رَماني

وينهَض كالمُغْضَب، ويفترق أهل ذلك المجلس وهم ناعمون.

١ ب، ي: (غرارٌ) والقافية مطلقة غير مقيّدة.

١،١٤ ويخلو، لا أخلاه الله من الإحسان، بحُوريّتين له من الحُور العِين، فإذا بهره ما يراه من الجمال قال: أعْزِزْ عليَّ بهلاك الكِنديّ، إنّي لأذْكُرُ بكما قوله:

كأنّكَ من أُمِّ الحويرث قَبْلَها ... وجارتِها أُمِّ الرَّبَاب بمأْسَلِ
إذا قامتا تَضوَّع المِسكُ منهما ... نسيمَ الصَّبا جاءت بِرَيّا القَرَنْفُلِ

وقوله:

كعاطفتَيْن من نِعاجِ تَبالةٍ ... على جؤذَرَيْن أوكبعض دُمى هَكِرْ
إذا قامتا تَضوَّع المسكُ منهما ... وأصْورةٌ من اللّطيمة والقُطُرْ

وأين صاحبتاه منكما لا كرامةَ لهما ولا نُعمة عينٍ! لَجَلسةٌ معكما بمقدار دقيقةٍ من دقائق ساعات الدُّنيا خيرٌ من مُلك بني آكل المُرار وبني نَصْر بالحِيرة وآل جَفْنةَ ملوك الشام.

ويُقبل على كلِّ واحدةٍ منهما يترشَّف رُضابها ويقول: إنّ امرأ القيس لَمسكينٌ مسكينٌ! تحترق عِظامُه في السَّعير وأنا أتمثَّل بقوله:

كأنّ المُدامَ وصوْبَ الغَمام ... وريح الخُزامى ونَشْرَ القُطُرْ
يُعَلُّ به بَرْدُ أنيابها ... إذا غرَّد الطائرُ المستَحِرْ

وقوله:

أنَامَ فُوها كُلَّما نبَّهتُها ... كالمسْك بات وظلَّ في الفَدّامِ
أُنُفٌ كلوْنِ دم الغَزال معتَّقٌ ... من خمرِ عانةَ أو كروم شِبامِ

٢،١٤ فتستغرب إحداهما ضَحِكاً. فيقول: ممَ تضحكين؟ فتقول: فَرَحاً بتفضُّل الله الذي وهب نعيماً، وكان بالمغفِرة زعيماً، أتدري من أنا يا عليَّ بن منصور؟ فيقول: أنت من حُور الجنان اللواتي خلقكنّ الله جزاءً للمتّقين، وقال فيكنَّ: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ فتقول:

أنا كذلك بإنعام الله العظيم، على أني كنت في الدار العاجلة أُعرَف بحَدونةَ، وأسكُن في باب العراق بحَلَبَ وأبي صاحبُ رَحىً، وتزوَّجني رجلٌ يبيع السَّقَط فطلّقني لرائحةٍ كرِهَها من فيَّ، وكنت من أقبحِ نساء حلب، فلمّا عرفتُ ذلك زهِدتُ في الدنيا الغرّارة، وتوفَّرتُ على العبادة، وأكلتُ من مِغزَلي ومِردَني، فصيَّرني ذلك إلى ما ترى.

وتقول الأخرى: أتدري من أنا يا عليَّ بن منصور؟ أنا توفيق السَّوداء التي كانت تخدُم في دار العلم ببغداد على زمان أبي منصورٍ محمّد بن عليٍّ الخازن وكنت أُخرِج الكتب إلى النُّسّاخ.

فيقول: لا إله إلا الله، لقد كنتِ سوداءَ فصِرتِ أنصعَ من الكافور، وإن شئت القافور. فتقول: أتَعجَب من هذا، والشاعر يقول لبعض المخلوقين:

لو أنّ من نُورِه مِثقالَ خَرْدلةٍ في السُّود كلِّهمُ لابيَضَّتِ السُّودُ

٣،١٤ ويمرُّ مَلَكٌ من الملائكة، فيقول: يا عبد الله، أخبِرْني عن الحور العين، أليس في الكتاب الكريم: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾. فيقول الملك: هنَّ على ضربيْن: ضربٌ خلقه اللهُ في الجنّة لم يعرِفْ غيرها، وضربٌ نقله الله من الدار العاجلة لمّا عمِل الأعمالَ الصالحة.

فيقول، وقد هَكِر ممّا سمع، أيْ عَجَبَ: فأين اللواتي لم يكُنَّ في الدار الفانية؟ وكيف يتميَّزْن من غيرهنَّ؟ فيقول الملك: اقْفُ أثَري لترى البديءَ من قدرة الله.

فيَتبَعه، فيجيء به إلى حدائقَ لا يعرف كُنْهَها إلا الله، فيقول الملك: خُذْ ثَمَرةً من هذا الثمر فاكْسِرْها فإنّ هذا الشجر يُعرَف بشجر الحور.

فيأخذ سَفَرْجلةً أو رُمّانةً أو تُفّاحةً أو ما شاء الله من الثِّمار فيكسِرها، فتخرج منها جاريةٌ حوراءُ عيناءُ تبرَقُ لحُسنها حوريّاتُ الجنان، فتقول: من أنت يا عبد الله؟ فيقول: أنا فُلان بن فلانٍ. فتقول: إني أُمنَّى بلقائك قبل أن يخلق الله الدُّنيا بأربعة آلاف سنة. فعند ذلك يسجُد إعظاماً لله القدير ويقول: هذا كما جاء في الحديث: أعددتُ

لِعبادي المؤمنين ما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت، بَلَهَ ما أطلعتُهم عليه، وبَلَهَ في معنى: دعْ وكيفَ.

٤،١٤ ويخطِر في نفسه وهو ساجدٌ أنّ تلك الجارية على حُسنها ضاوِيَةٌ، فيرفع رأسَه من السُّجود وقد صار من ورائها رِدْفٌ يضاهي كُثْبانَ عالِجٍ وأنقاءَ الدَّهْناء وأَرْمِلةَ يَبْرِينَ وبني سَعْدٍ، فيُهال من قدرة الله اللطيف الخبير ويقول: يا رازقَ المُشْرِقة سَناها، ومُبْلِغ السائلة مُناها، والذي فعل ما أَعْجَز وهال، ودعا إلى الحِلم الجُهّال، أسألك أن تقصُر بُوصَ هذه الحوريّة على مِيلٍ في مِيل، فقد جاز بها قدرُك حدَّ التأميل. فيقال له: أنت مخيَّر في تكوين هذه الجارية كما تشاء. فيقتصر من ذلك على الإرادة.

١،١٥ ويبدو له أن يطّلع إلى أهل النار فينظرَ إلى ما هم فيه ليعظُم شُكرُه على النعم، بدليل قوله تعالى: ﴿قالَ قائِلٌ مِنهُم: إِنّي كانَ لي قَرينٌ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ المُصَدِّقينَ، أَإِذا مِتنا وَكُنّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنّا لَمَدينُونَ. قالَ هَل أَنتُم مُطَّلِعُونَ. فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الجَحيمِ، قالَ: تَاللهِ إِنْ كِدتَ لَتُرْدِينِ، وَلَوْلا نِعمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ المُحضَرِينَ﴾.

١،٢،١٥ فيركب بعضَ دوابِّ الجنّة ويسيرُ، فإذا هو بمدائنَ ليست كمدائن الجنّة، ولا عليها النور الشَّعْشعانيّ، وهي ذات أدحالٍ وغماليل. فيقول لبعض الملائكة: ما هذه يا عبد الله؟ فيقول: هذه جنّة العفاريت الذين آمنوا بمحمّد، صلّى الله عليه، وذُكروا في الأحقاف، وفي سورة الجنّ، وهم عددٌ كثيرٌ. فيقول: لأعْدِلَنَّ إلى هؤلاء فلن أخلوَ لديهم من أُعجوبة. فيعُوج عليهم، فإذا هو بشيخٍ جالسٍ على باب مَغارة، فيسلِّم عليه فيُحسن الرَّدَّ ويقول: ما جاء بك يا إنسيّ؟ إنّك بخيرٍ لعَسِيّ، ما لك من القوم سِيّ! فيقول: سمعتُ أنكم جنٌّ مؤمنون فجئتُ ألتمس عندكم أخبار الجِنّان، وما لعلّه لديكم من أشعار المَرَدة.

فيقول ذلك الشيخ: لقد أصبتَ العالم بجَدّة الأمر، ومن هو منه كالقمر من الهالة، أنا كالحاقن من الإهالة،[1] فسَلْ عمّا بدا لك.

فيقول: ما أسمك أيّها الشيخ؟ فيقول: أنا الخَيْتَعُور[2] أحدُ بني الشَّيْصَبان، ولسنا من ولد إبليس ولكنّا من الجنّ الذين كانوا يسكُنون الأرض قبل ولد آدم، صلّى الله عليه.

٢،٢،١٥ فيقول: أخبِرْني عن أشعار الجنّ، فقد جمع منها المعروفُ بالمَرْزُبانيّ قطعةً صالحة. فيقول ذلك الشيخ: إنّما ذلك هَذَيانٌ لا مُعتمَد عليه، وهل يعرف البَشَر من النظيم إلّا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض؟ وإنّما لهم خمسة عشر جنساً من الموزون قلَّ ما يَعُدوها القائلون، وإنّ لنا لآلافُ أوزانٍ ما سمع بها الإنس. وإنّما كانت تخطِر بهم أُطَيْفالٌ منّا عارمون فتَنْفِث إليهم مقدار الضُّوازة من أَراكِ نُعمانَ. ولقد نظمتُ الرَّجَز والقصيد قبل أن يخلق الله آدمَ بكَوْرٍ أو كورَيْن. وقد بلغني أنكم مَعْشَرَ الإنس تلهجون بقصيدة امرئ القيس: قِفا نَبْكِ من ذِكرى حبيبٍ ومَنْزِلِ، تحفّظونها الحَزاورة

١ رواية الأصل وكل الطبعات: (لا كالحاقن من الإهالة) ولعل الصواب ما أثبتناه؛ راجع التعليق على الترجمة الإنكليزية.

٢ في كل النسخ (الخيثعور) بالثاء والمشهور (الخيتعور) كما في ب.

في المكاتب، وإن شئت أمليتُك ألف كلمةٍ على هذا الوزن على مثل: مَنْزِل وحَوْمَل، وألفاً على ذلك القَريّ يجيء على مَنْزُل وحَوْمَل، وألفاً على مَنْزِلا وحَوْمَلا، وألفاً على مَنْزِلَهْ وحَوْمَلَهْ، وألفاً على مَنْزِلُهْ وحَوْمَلُهْ، وألفاً على مَنْزِلِهْ وحَوْمَلِهْ. وكلُّ ذلك لشاعرٍ منّا هلك وهو كافرٌ، وهو الآن يشتعل[1] في أطباق الجحيم.

فيقول، وَصَلَ اللهُ أوقاتَه بالسعادة: أيها الشيخ، لقد بقي عليك حِفظك! فيقول: لسنا مثلكم يا بني آدم يغلِب علينا النِّسيان والرُّطوبة، لأنكم خُلِقتم ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، وخُلقنا ﴿مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ﴾.

فتحمله الرَغبةُ في الأدب أن يقول لذلك الشيخ: أَفَتُمِلُّ عليَّ شيئاً من تلك الأشعار؟ فيقول الشيخ: فإذا شئتَ أملتُك ما لا تَسِقُه الرِكاب، ولا تَسَعُه صُحُف دنياك.

فيهُمُّ الشيخ، لا زالت هِمّته عاليةً، بأن يكتب منه، ثمّ يقول: لقد شَقِيتُ في الدار العاجلة بجمع الأدب، ولم أَحْظَ منه بطائلٍ، وإنّما كنت أتقرّب به إلى الرؤساء، فأحتلب منهم دَرَّ بَكِيء وأَجهَد أخلافَ مَصورٍ، ولستُ بموفّقٍ إن تركتُ لَذّات الجنة وأقبلتُ أتنسخ آداب الجنّ ومعي من الأدب ما هو كان لاسِيمّا وقد شاع النسيانُ في أهل أدب الجنة، فصِرتُ مِن أكثرهم روايةً وأوسعِهم حفظاً، ولله الحمد.

ويقول لذلك الشيخ: ما كُنيتك لأُكرِمك بالتكنية؟ فيقول: أبو هَدْرَش، أوْلدتُ من ٣،٢،١٥
الأولاد ما شاء الله، فهم قبائل بعضهم في النار المُوقَدة وبعضهم في الجنان. فيقول: يا أبا هدرش، مالي أراك أشْيَبَ وأهل الجنة شبابٌ؟ فيقول: إنّ الإنس أكرموا بذلك وأُحرِمناه، لأنا أُعْطينا الحُولةَ في الدار الماضية، فكان أحدنا إن شاء صار حيّةً رَقْشاءَ، وإن شاء صار عصفوراً، وإن شاء صار حَمامة، فُمُنِعْنا التصوُّرَ في الدار الآخرة، وتُرِكنا على خَلْقنا لا نتغيَّر، وعُوِّض بنو آدم كونَهم فيما حَسُن من الصُّوَر. وكان قائل الإنس يقول في الدار الذاهبة: أُعْطينا الحِيلةَ، وأُعطِيَ الجنُّ الحُولة.

ولقد لقيتُ من بني آدم شرّاً، ولقُوا منّي كذلك، دخلت مرّةً دار أناسٍ أريد أن ٤،٢،١٥
أصْرَع فتاةً لهم، فتصوَّرتُ في صورة عَضَلٍ، أي جُرَذٍ، فدعوْا لي الضَّياون، فلمّا

---

١ ب: (يشتغل) واخترنا رواية ب، والطبعات الأخرى.

أرهقتني تحوّلتُ صِلاً أرْقَمَ ودخلتُ في قطيلٍ هناك، فلمّا علموا ذلك كشفوه عني، فلمّا خِفتُ القتل صرت ريحًا هفّافةً فلحقتُ بالرَّوافد ونقضوا تلك الخُشُب والأجذال فلم يروْا شيئًا. فجعلوا يتفكّرون ويقولون: ليس هاهنا مكانٌ يمكن أن يستتر فيه. فبينا هم يتذاكرون ذلك عمدتُ لكَابهم في الكِلّة، فلمّا رأتني أصابها الصَّرع، واجتمع أهلها من كلّ أوْبٍ، وجمعوا لها الرُّقاة، وجاؤوا بالأطِبّة وبذلوا المُنفِسات، فما ترك راقٍ رُقْيةً إلا عرضها عليَّ وأنا لا أُجيب، وغَبَرَت الأُساةُ تسقيها الأشْفِيَةَ وأنا سَدِكٌ بها لا أزول، فلمّا أصابها الحِمام طلبتُ لي سِواها صاحبةً، ثمّ كذلك حتى رزق الله الإنابة وأثاب الجزيل، فلا أفتأ له من الحامدين:

حَمِدتُ مَن حـطَّ أوزاري ومزّقها ... عـينّي فأصبح ذَنْبي اليومَ مـغفورا ٥،٢،١٥

وكنتُ آلفُ مِن أترابِ قُرْطُبةٍ ... خُودًا وبالصِّين أُخرى بنْتَ يَغْبورا

أزورُ تلك وهـذي غير مكترثٍ ... في ليلةٍ قبل أن أستوضح النُّورا

ولا أمُـرُّ بوحْشيٍّ ولا بَشَرٍ ... إلا وغـادرْتُهُ وَلْهـانَ مـذعورا

أروِّع الزّنْجَ إلمـامًا بنِسْوتهـا ... والرُّومَ والتُّرك والسِّقلاب والغورا

وأركَبُ الهَيْقَ في الظّلْماء معتسِفًا ... أو لا فذبَّ رِيادٍ باتَ مقـرورا

وأحـضُر الشَّـرْبَ أغْروهمْ بآبدةٍ ... يُـزْجون عُودًا ومِزْمـارًا وطُـنْبورا

فلا أُفـارقهم حتّى يكون لهـم ... فـعلٌ يَظَلُّ به إبليسُ مسـرورا

وأصْـرِفُ العَدْلَ خَتْلاً عن أمانته ... حـتى يخونَ وحتى يشهـدَ الزُّورا

وكم صـرعتُ عَوانًا في لَظًى لَهَبٍ ... قامت تُمـارس للأطفـال مسجورا

وذادني المـرءُ نُوحٌ عن سفينته ... ضربًا إلى أن غدا الظُّنبوبُ مكسورا

وطِرتُ في زَمَن الطُّوفان معتليا ... في الجوّ حتى رأيتُ الماء محسورا

وقـد عـرضتُ لموسى في تفـرُّده ... بالشـاء ينـتِج عُمـروسًا وفُـرفورا

لم أُخْلِه من حديثٍ مّا ووَسْوَسةٍ ... إذ دلّـكَ ربّك في تكليمه الطُّورا

أضللتُ رأيَ أبي ساسانَ عن رَشَدٍ ... وسِرتُ مستخفيًا في جيشِ سابورا

وسادَ بَهْرامُ جُور وهْو لي تَبَعٌ أيّام يبْني على عِلاّته جورا
فتارةً أنا صِلٌّ في نَكارته وربّما أبصرتْني العينُ عصفورا
تلوح لي الإنس عُوراً أو ذوي حَوَلاً ولم تكُنْ قطّ لا حُولاً ولا عورا
ثمّ اتّعظتُ وصارت تَوْبتي مَثَلاً من بعدِ ما عِشْتُ بالعِصْيان مشهورا
حتى إذا انفضّت الدُّنيا ونُودِيَ إسـ ـرافيلُ ويْحَك هَلاّ تنفُخ الصُّورا
أماتني اللهُ شيئًا ثمّ أيقظني لمَبْعَثٍ فُرْقت الخُلْدَ مبرورا

٦،٢،١٥ فيقول: لله دَرُّك يا أبا هدرش لقد كنتَ تُمارس أوابدَ ومُنْدياتٍ، فكيف ألسِنتُكم؟ أيكون فيكم عربٌ لا يفهمون عن الروم، وروم لا يفهمون عن العرب، كما نَجِد في أجيال الإنس؟ فيقول: هيْهاتَ أيّها المرحوم! إنّا أهل ذكاء وفِطَنٍ، ولا بدَّ لأحدنا أن يكون عارفًا بجميع الألسن الإنسيّة، ولنا بعد ذلك لسانٌ لا يعرفه الأنيس. وانا الذي أنذرتُ الجنَّ بالكتاب المُنْزَل: أدلجتُ في رُفقةٍ من الخابل نريد اليمن، مررنا بيثْرِب في زمان المَعْو، أي الرُّطَب ف ﴿سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ وعُدْتُ إلى قومي فذكرتُ لهم ذلك، فتسرّعتْ منهم طوائف إلى الإيمان، وحثَّهم على ما فعلوه أنهم رُجموا عن استراق السَّمع بكواكب مُحْرِقاتٍ.

٧،٢،١٥ فيقول: يا أبا هدرش، أخبرْني، وأنت الخبير، هل كان رَجْم النُّجوم في الجاهليّة؟ فإنّ بعض الناس يقول إنّه حدث في الإسلام. فيقول: هيهات! أما سمعتَ قول الأوْديّ:

كشِهاب القَذْف يَرْميكم به فارسٌ في كفّه للحرب نارُ

وقول ابن حَجَر:

فانصاعَ كالدُّرّيّ يَتْبعه نَقْعٌ يثور تَخالُه طُنُبا

ولكنّ الرّجم زاد في أوان المبعث، وإن التخرُّص لكثيرٌ في الإنس والجنّ، وإنّ الصِّدق قليلٌ،[1] وهنيئاً في العاقبة للصادقين. وفي قصّة الرَّجم أقول:

مكّةُ أقْوَتْ من بَني الدَّردبيسْ ... فما لجِنِّيٍّ بها من حسيسْ ١،٨،٢،١٥
وكُسِّرت أصنامُها عُنْوَةً ... فكلُّ جِبْتٍ بنصيلٍ رديسْ
وقام في الصَّفوة من هاشمٍ ... أزْهرُ لا يغفِل حقَّ الجليسْ
يسمع ما أُنْزِلَ من ربّه الـ ... ـقدُّوس وَحْياً مثلَ قَرْع الطَّسيسْ
يجلِد في الخمر ويشتدُّ في الـ ... ـأمرِ ولا يُطْلِق شُرْبَ الكسيسْ
ويرجُم الزانيَ ذا العِرس لا ... يقبَل فيه سؤْلةً من رئيسْ
وكم عَروسٍ بات حُرّاسُها ... كَجُرْهُمٍ في عِزّها أو جديسْ ٢،٨،٢،١٥
زُفّت إلى زوجٍ لها سيّدٍ ... ما هو بالنِّكْس ولا بالضبيسْ
غِرْتُ عليها فتخلّجْتُها ... بِواشك الصَّرعة قبل المسيسْ
وأسلُكُ الغادةَ محجوبةً ... في الخِدْر أو بين جَوارٍ تَميسْ
لا أنتهي عن غَرَضي بالرُّقى ... إذا انتهى الضَّيْغَمُ دون الفريسْ
وأُدلِجُ الظَّلْماءَ في فِتْيةٍ ... مِلْجِنّ فوق الماحل العَرْبَسيسْ
في طاسمٍ تعزِف جِنّانُهُ ... أَقْفرَ إلا من عفاريتَ لِيسْ
بيضٍ بَهاليلَ ثِقالٍ يَعا ... لِيلَ كرامٍ يَنْطِقون الهسيسْ
تحْملنا في الجُنْح خيلٌ لها ... أجنِحةٌ ليست كخيل الأنيسْ
وأيْنُقٌ تسبُق أبصارَكم ... مخلوقةٌ بين نَعامٍ وعِيسْ
تقطعُ من عَلْوةَ في ليلها ... إلى قُرى شاسٍ[2] بسيرٍ هميسْ
لا نُسْلُكُ في أيّامنا عندنا ... بلْ نُكِسَ الدِّينُ فما إن نكيسْ ٣،٨،٢،١٥
فالأَحَدُ الأعظم والسَّبْت كالـ ... ـإثنين والجُمْعةُ مثلُ الخميسْ
لا مُجُسٌّ نحن ولا هُوَّدٌ ... ولا نَصارى يبتغون الكنيسْ

١ في ي، إف، ق: (وإن الصدق لمعوز قليل). ٢ ٢٨ رواية بعض النسخ: (شاش).

نُمزِّق التَّوراةَ من هُونها ونحطِم الصُّلبانَ حطْمَ اليبيسْ
نحارب اللهَ جنوداً لإبْ ليسَ أخي الرأي الغبين النَّجيسْ
نسلِّم الحُكمَ إليه إذا قاسَ فنرضى بالضَّلال المَقيسْ
نزينُ للشارخ والشيخ أن يُفْرِغَ كِيساً في الحَنا بعد كِيسْ
ونقتري جِنَّ سُليمانَ كيْ نُطْلِقَ منها كلَّ غاوٍ حبيسْ
صُيِّر في قارورةٍ رُصِّصت فلم تغادر منه غير النَّسيسْ
ونُخرِج الحسناءَ مطرودةً من بيتها عن سُوءِ ظنٍّ حديسْ ٤،٨،٢،١٥
نقول لا تقنَعْ بتطليقةٍ واقْبَلْ نصيحاً لم يكُن بالدَّسيسْ
حتى إذا صارت إلى غيره عادَ من الوجد بجَدٍّ تَعيسْ
نُذْكِره منها وقد زُوِّجت ثغراً كدُرٍّ في مُدامٍ غريسْ
ونخدَع القِسّيسَ في فِصْحه من بعدِ ما مُلِّيء بالأنقَليسْ
أصبح مشتاقاً إلى لذّةٍ معلَّلاً بالصَّرف أو بالخفيسْ
أُقسِم لا يشرب إلاّ دُوَيْ نَ السُّكر والبازلُ تالي السديس
قُلنا له ازْدَدْ قَدَحاً واحداً ما أنت أن تزدادَه بالوكيسْ
يُمْكِك في هذا الشفيف الذي يُطفِئ بالقُرِّ الْتهابَ الحميسْ
فعَبَّ فيها فوْهَ لُبِّه وعُدَّ من آل اللعين الرجيسْ
حتّى يَفيضَ الفمُ منه على تُمْرُقتيْه بالشَّراب القليسْ
ونُسْخِط المَلَكَ على المُشْفِق الـ ـمُفْرِط في النَّصْح إذا المَلَكُ سِيسْ
وأُعْجِلُ السِّعْلاةَ عن قُوتها في يدها كشْحُ مَهاةٍ نهيسْ
لا أتَّقي البَرَّ لأهواله وأركَبُ البحرَ أوانَ القريسْ
نادمتُ قابيلَ وشِيثاً وها بيلَ على العاتقة الخَنْدَريسْ
وصاحبيْ لَمَكٍ لدى المِزْهَر الـ ـمُعْمَلِ لم يَغْيَ بزِيرٍ جسيسْ
ورَهْطَ لُقْمانَ وأيْسارَه عاشرتُ من بعدِ الشَّباب اللّبيسْ
ثُمَّتَ آمنتُ ومَن يُرزَقِ الـ إيمانَ يظفَرْ بالخطير النفيسْ ٥،٨،٢،١٥

جاهدتُ في بَدْرٍ وحاميتُ في أُحُدٍ وفي الخَنْدَق رُعْتُ الرئيسْ
ورأءَ جبريلَ وميكالَ نَحْـ ـلي الهامَ في الكَبَة خَلْيَ اللّسيسْ
حينَ جيوشُ النصْر في الجوِّ والـ ـطاغوتُ كالزَّرْع تَناهى فديسْ
عليهِمُ في هَبَوات الوَغى عمائمٌ صُفْرٌ كلونِ الوريسْ
صهيلُ حيْزومَ إلى الآنَ في سَمْعِيَ أكْرِمْ بالحِصان الرغيسْ
لا يَتْبع الصَّيْدَ ولا يألف الـ ـقَيْدَ ولا يشكو الوَجى والدَّخيسْ
فلم تَهِنّي حُرَّةٌ عانسٌ ولا كَعابٌ ذاتُ حُسنٍ رسيسْ
وأيقنتْ رَيْثَبُ مِنّي التُّقى ولم تخَفْ من سَطواتي لَميسْ
وقلتُ للجنِّ ألا يا اسْجُدوا لله وانْقادوا انقيادَ الخسيسْ ٦،٨،٢،١٥
فإنّ دنياكمْ لها مُدّةٌ غادرةٌ بالسَّمْح أو بالشكيسْ
بِلْقيسُ أوْدتْ ومضى مُلكُها عنها فما في الأُذْن من هَلْبَسيسْ
وأُسرة المُنْذِر حاروا عن الـ ـحِيرةِ كلٌّ في تُرابٍ رميسْ
إنّا لمسْنا بعدكم فاعْلموا بِرُقْعَ فاهْتاجتْ بشَرٍّ بئيسْ
تَرْمي الشياطينَ بنيرانها حتى تُرى مثلَ الرَّماد الدريسْ
فطاوعتْني أُمّةٌ منهمُ فازتْ وأُخرى لحِقتْ بالركيسْ ٧،٨،٢،١٥
وطار في اليَرْموك بي سابحٌ والقوم في ضرْبٍ وطعْنٍ خليسْ
حتّى تجلّتْ عنّيَ الحربُ كالـ ـجَمْرةِ في وَقْدة ذاك الوطيسْ
والجَمَلُ الأنكدُ شاهَدتُه بئسَ نتيجُ الناقةِ العَنْتَريسْ
بين بني ضَبّةَ مستقدِمًا والجهلُ في العالَم داءٌ نجيسْ
وزُرْتُ صِفّينَ على شَطْبةٍ جَرداءَ ما سائسُها بالأريسْ
مجدّلاً بالسيف أبطالَها وقاذفًا بالصَّخرة المَرْمَريسْ
وسِرْتُ قُدّامَ عليٍّ غَدا ةَ النَّهْر حتى فُلَّ غَرْبُ الخميسْ
صادَفَ مِنّي واعظٌ توبةً فكانتِ اللَّقْوةُ عند القبيسْ

فيعجب، لا زال في الغِبطة والسُّرور، لِما سمعه من ذلك الجنّيّ، ويكره الإطالةَ عنده فيودِّعه.

١،١٦ ويحُمُّ فإذا هو بأسدٍ يفترس من صِيران الجنّة وحسيلها فلا تكفيه هُنيدةٌ ولا هِنْدٌ، أيّ مائة، ولا مائتان، فيقول في نفسه: لقد كان الأسد يفترس الشاة العَجفاء، فيُقيم عليها الأيّامَ لا يطعَم سِواها شيئاً.

فيُلهِم الله الأسدَ أن يتكلّم، وقد عرف ما في نفسه، فيقول: يا عبد الله، أليس أحدكم في الجنّة تُقدَّم له الصَّحفةُ وفيها البَهَطُ والطِّرَيم مع النَّهيدة، فيأكل منها مثل عُمر السموات والأرض، يلتذّ بما أصاب فلا هو مكتفٍ، ولا هي الفانية؟ وكذلك أنا أفترس ما شاء الله، فلا تأذى الفريسةُ بظُفرٍ ولا نابٍ، ولكن تَجِد من اللَّذّة كما أَجِدُ بلُطف ربّها العزيز. أتدري من أنا أيُّها البزيع؟ أنا أسد القاصرة التي كانت في طريق مِصر، فلمّا سافر عُتْبة بن أبي لَهَبٍ يريد تلك الجهة، وقال النبيُّ صلى الله عليه: اللّهُمَّ سلِّط عليه كلباً من كلابك، أُلهِمْتُ أن أتجوَّع له أيّاماً، وجئت وهو نائمٌ بين الرُّفقة فتخلّلتُ الجماعةَ إليه، وأُدخلتُ الجنّةَ بما فعلت.

٢،١٦ ويمُرُّ بذئبٍ يقتنص ظِباءً فيُفْني السُّربة بعد السُّربة، وكلّما فرغ من ظبيٍ أو ظبية، عادت بالقدرة إلى الحال المعهودة، فيعلم أنّ خَطْبه كخَطب الأسد، فيقول: ما خبرك يا عبد الله؟ فيقول: أنا الذئب الذي كلّمَ الأَسْلَميَّ على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم، كنت أُقيم عشر ليالٍ أو أكثر لا أقدِرُ على العِكْرِشة ولا القُواع، وكنت إذا هممتُ بعَجيّ المَعيز، آسَدَ الراعي عليَّ الكلاب، فرجعتُ إلى الصاحبة مخرّق الإهاب، فتقول: لقد خطئتَ في أفكارك، ما خِيرَ لك في ابتكارك. وربّما رُميتُ بالسِّروة فنشبتْ في الأقراب، فأبيتُ ليلتي لما بي، حتى تنتزعها السِّلقةُ وأنا بآخِر النسيس، فلحقتْني بَرَكة محمّد صلى الله عليه وسلم.

٣،١٦ فيذهب، عرّفه الله الغِبْطةَ في كلّ سبيل، فإذا هو ببيتٍ في أقصى الجنة، كأنه حِفْش أَمَةٍ راعيةٍ، وفيه رجلٌ ليس عليه نور سُكّان الجنّة، وعنده شجرةٌ قميئةٌ ثمرها ليس بزاكٍ. فيقول: يا عبد الله، لقد رضيتَ بحقيرٍ شَقِنٍ. فيقول: والله ما وصلتُ إليه إلا بعد هِياطٍ ومِياطٍ وعَرَقٍ من شَقاءٍ، وشَفاعةٍ من قُريشٍ ودِدتُ أنها لم تكن. فيقول:

من أنت؟ فيقول أنا الحُطيئة العَبْسي فيقول: بم وصلتَ إلى الشفاعة؟ فيقول بالصِّدق. فيقول: في أيّ شيء؟ فيقول: في قولي:

أبتْ شَفَتايَ اليومَ إلا تكلُّمًا بهجْرٍ فما أدري لمن أنا قائلُهْ
أرى لِيَ وجْهًا شوَّهَ اللهُ خَلْقَه فقُبِّحَ من وجهٍ وقُبِّحَ حاملُهْ

فيقول: ما بال قولك:

من يفعلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جوازِيَهُ لا يذهبُ العُرْفُ بين الله والناسِ

لم يُغْفَر لك به؟ فيقول: سبقني إلى معناه الصالحون، ونظمتُه ولم أعمَل به، فحُرِمتُ الأجْرَ عليه. فيقول: ما شأن الزِّبْرِقان بن بدرٍ؟ فيقول الحُطيئة: هو رئيسٌ في الدُّنيا والآخرة، انتفع بمجائي ولم ينتفع غيرُه بمديحي.

فيخلّفه ويمضي، فإذا هو بامرأة في أقصى الجنّة، قريبةٍ من المطّلَع إلى النار. فيقول: من أنتِ؟ فتقول: أنا الخَنْساء السُّلَميّة، أحببتُ أن أنظُر إلى صَخرٍ فاطلَّعتُ فرأيته كالجبل الشامخ والنار تضطرم في رأسه، فقال لي لقد صحَّ مَزْعَمُكِ فيَّ، يعني قولي: ٤،١٦

وإنّ صَخرًا لَتأتمُّ الهُداةُ به كأنه عَلَمٌ في رأسه نارُ

١،١٧ فيطلَّع فيرى إبليسَ، لعنه الله، وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل ومَقامع الحديد تأخذه من أيدي الزَّبانيَة. فيقول: الحمد لله الذي أمكن منك يا عدوَّ الله وعدوَّ أوليائه! لقد أهلكتَ من بني آدم طوائفَ لا يعلم عددَها إلّا الله. فيقول: مَن الرجل؟ فيقول: أنا فُلان بن فلانٍ من أهل حلب، كانت صناعتي الأدب، أتقرَّب به إلى الملوك. فيقول: بئسَ الصناعة! إنها تَهَبُ غُفّةً من العيش، لا يتَّسع بها العِيال، وإنها لَمَزَلّةٌ بالقَدَم وكم أهلكتْ مثلَك! فهنيئاً لك إذ نجوتَ، ﴿فَأَوْلَى لَكَ ثُمَّ أَوْلَى﴾! وإنّ لي إليك لَحاجةً، فإنْ قضيتَها شكرتُك يدَ المَنون.

فيقول: إنّي لا أقدِر لك على نفعٍ، فإن الآية سبقتْ في أهل النار، أعني قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ، قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

فيقول: إنّي لا أسألك في شيء من ذلك، ولكن أسألك عن خبرٍ تُخبرنيه: إنّ الخمر حُرِّمت عليكم في الدُّنيا وأُحلَّت لكم في الآخرة، فهل يفعل أهل الجنّة بالوِلْدان المخلَّدين فِعْلَ أهل القَريات؟ فيقول: عليك البَهْلة! أما شَغَلَك ما أنت فيه؟ أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهِ خَالِدُونَ﴾؟

فيقول: وإنّ في الجنّة لأشْرِبةً كثيرةً غير الخمر. فما فعل بشّار بن بُرْد؟ فإنّ له عندي يداً ليست لغيره من ولد آدم: كان يفضّلني دون الشعراء، وهو القائل:

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدَمِ ... فتبيَّنوا يا مَعْشَرَ الأشرارِ
النارُ عُنصرُه وآدمُ طِينةٌ ... والطِّين لا يسمو سُمُوَّ النارِ

لقد قال الحقَّ، ولم يزل قائله من الممقوتين.

١،٢،١٧ فلا يسكُت من كلامه إلا ورجلٌ في أصناف العذاب يغمِّض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النِّقَم، ففتحهما الزَّبانيةُ بكلاليبَ من نارٍ، وإذا هو بشّار بن بُرد قد أُعطي عينين بعد الكَمَه، لينظر إلى ما نزل به من النَّكال.

فيقول له، أعلى الله درجتَه: يا أبا مُعاذٍ، لقد أحسنتَ في مقالك، وأسأت في معتقَدك، ولقد كنتُ في الدار العاجلة أذكُر بعضَ قولك فأترحّم عليك، ظنًّا أنَّ التوبة ستلحَقك، مثلَ قولك:

ارْجِعْ إلى سَكَنٍ تعيشُ به ... ذهب الزَّمانُ وأنت منفردُ
ترجو غَدًا وغَدٌ كحاملةٍ ... في الحيّ لا يدرون ما تَلِدُ

وقولك:

واهًا لأسماءَ ابنةِ الأشدّ ... قامت تَراءى إذ رأتني وحْدي
كالشمس بين الزِّبرِج المنقدّ ... ضنَّت بخَدٍّ، وجَلَتْ عن خدّ
ثمَّ انثنتْ كالنَّفَس المرتدّ ... وصاحبٍ كالدُّمَل المُمِدّ
أرقُبُ منه مثلَ حُمَّى الوِرْدِ ... حملتُه في رُقعةٍ من جِلْدي
الحرُّ يُلْفى والعصا للعبدِ ... وليس للُمْلحِف مثلُ الرَّدّ

الآن وقع منك اليأس! وقلتَ في هذه القصيدة: السُّبَد، في بعض قوافيها، فإن كنتَ ٢،٢،١٧
أردت جمع سُبَدٍ، وهو طائرٌ، فإنّ فُعَلًا لا يُجمَع على ذلك؛ وإن كنتَ سكّنت الباء فقد أسأت، لأنّ تسكين الفتحة غير معروفٍ، ولا حجّةَ لك في قول الأخطل:

وما كلُّ مغبونٍ إذا سَلَفَ صَفْقةً ... براجعِ ما قد فاتَه بردادِ

ولا في قول الآخر:

وقالوا تُرابيٌّ فقلتُ صدقتُمُ ... أبي من تُرابٍ خَلْقَهُ اللهُ آدَما

لأنّ هذه شَواذُّ، فأمّا قول جَميل:

وصاحَ ببينٍ من بُثَينةَ والنَّوى جميعٌ بذات الرَضْم صَرْدٌ مجَحَّلُ

فإنّ مَن أنشده بضمّ الصَاد مخطئ، لأنه يذهب إلى أنه أراد الصُّرَد فسكّن الراء، وإنّما هو صَرْدٌ، أي خالصٌ، من قولهم: أُحبّك حُبًّا صَرْدًا، أي خالصاً، يعني غُرابًا أسْود ليس فيه بياضٌ، وقوله: مجَحَّلٌ، أي مقيَّد، لأنَّ حَلْقة القيد تُسمّى حِجْلًا. قال عَديُّ بن زيد:

أعاذلَ قد لاقيْتُ ما يَزَعُ الفتى وطابقتُ في الحِجْلَيْن مشْيَ المقيَّدِ

والغراب يوصف بالتقييد لِقِصَر نَساه، قال الشاعر:

ومقيّدٍ بين الدِّيار كأنه حَبَشِيُّ داجنةٍ يخُرُّ ويعتلي

فيقول بشّار: يا هذا! دعْني من أباطيلك فإنّي لمشغولٌ عنك.

ويسأل عن امرئ القيس بن حُجْر، فيقال: ها هو ذا بحيث يسمعك. فيقول: يا أبا هِنْد ١،٣،١٧
إنّ رُواة البغداديين يُنشدون في قِفا نَبْكِ، هذه الأبيات بزيادة الواو في أوّلها، أعني قولك:

وكأنّ ذُرى رأسِ المُجَمِّر غُدْوةً

وكذلك:

وكأنّ مَكاكيَّ الجِواءِ

وكأنّ السِّباع فيه غَرْقَى

فيقول: أبْعَدَ الله أولئك! لقد أساؤوا الرواية، وإذا فعلوا ذلك فأيُّ فرقٍ يقع بين النظم والنثر؟ وإنما ذلك شيءٌ فعله من لا غريزة له في معرفة وزن القريض، فظنّه المتأخّرون أصلاً في المنظوم، وهيهات هيهات!

فيقول: أخبرْني عن قولك:

كِبِكْرِ المُقاناةِ البَياضِ بصُفْرةٍ

ماذا أردتَ بالبِكر؟ فقد اختلف المتأوّلون في ذلك فقالوا: البيْضة، وقالوا: الدُّرّة، وقالوا: الرّوْضة، وقالوا الزّهرة، وقالوا: البَرْديّة.

وكيف تنشد: البياضِ، أم البياضَ، أم البياضُ؟ فيقول: كلُّ ذلك حسنٌ، وأختار البياضِ، بالكسر.

فيقول، فرّغ الله ذِهنه للآداب: لو شرحتُ لك ما قال النحويّون في ذلك لعجبتَ. وبعض المعلّمين ينشد قولك:

من السيْلِ والغُثّاءِ فَلْكةُ مِغْزَلِ

فيشدّد الثاء. فيقول: إنّ هذا لجهولٌ. وهو نقيض الذين زادوا الواو في أوائل الأبيات: أولئك أرادوا النَّسَق، فأفسدوا الوزن، وهذا البائس أراد أن يصحّح الزِنّة فأفسد اللفظ. وكذلك قولي:

فجئتُ وقد نَضَتْ لنوْمٍ ثيابَها

منهم من يشدّد الضاد، ومنهم من ينشد بالتخفيف، والوجهان من قولك: نضوت الثوب. إلا أنك إذا شدّدتَ الضاد، أشْبهَ الفعلَ من النضيض، يقال: هذه نضيضةٌ من المَطَر، أي قليلٌ، والتخفيف أحبُّ إليَّ، وإنما حملهم على التشديد كراهةُ الزِّحاف، وليس عندنا بمكروه.

فيقول: لا برح مِنطقياً بالحِكَم: فأخبِرْني عن كلمتك الصاديّة والضاديّة والنُّونيّة التي ٢،٣،١٧
أوّلها:

لمن طَلَلٌ أبصرتُه فشَجاني كخَطِّ زَبورٍ في عَسيبِ يمانِ

لقد جئت فيها بأشياء يُنكرها السَّمع، كقولك:

فإن أمسِ مكروباً فيا رُبَّ غارةٍ شهِدتُ على أقبَّ رِخْوِ اللَّبانِ

وكذلك قولك في الكلمة الصاديّة:

على نِقْنِقٍ هيْقٍ له ولِعِرْسِه بمنقطَع الوعْساء بيْضٌ رصيصُ

وقولك:

فأُسْقي به أختي ضَعيفةَ إذ نأتْ وإذ بَعْدُ المُزدارُ غيرَ القريضِ

في أشباهٍ لذلك، هل كانت غرائزكم لا تُحِسُّ بهذه الزِّيادة؟ أم كنتم مطبوعين على إتيان مَغامض الكلام وأنتم عالمون بما يقع فيه؟ كما أنه لا ريب أنّ زُهيراً كان يعرف مكان الزِّحاف في قوله:

يطلُب شأْوَ امْرأين قَدّما حَسَباً نالا الملوكَ وبذّا هذه السُّوقا

فإنّ الغرائز تُحِسُّ بهذه المواضع، فتبارك الله أحسن الخالقين.

فيقول امرؤ القيس: أدركنا الأوّلين من العرب لا يحفِلون بمجيء ذلك، ولا أدري ما شجن عنه، فأمّا أنا وطبقتي فكنّا نمُرُّ في البيت حتى نأتي إلى آخره، فإذا فني وقارب تبيَّن أمره للسامع.

فيقول، ثبّت الله تعالى الإحسان عليه: أخبرّني عن قولك: ٣،٣،١٧

ألا رُبَّ يومٍ لك منهنّ صالِحٍ ولا سيّما يومٌ بدارة جُلْجُلِ

أتنشده: لك منهنَّ صالِحٍ فتُزاحِف الكَفّ؟ أم تنشده على الرواية الأخرى؟ فأمّا يومٌ، فيجوز فيه النصب والخفض والرفع. فأمّا النصب فعلى ما يجب للمفعول من الظُروف، والعامل في الظَّرف هاهنا فِعلٌ مُضْمَرٌ، وأمّا الرفع فعلى أن تجعل ما كافّةً، وما الكافّةُ عند بعض البصريّين نَكِرةٌ، وإذا كان الأمر كذلك فهو بعدها مضمرةٌ، وإذا خفض يومٌ، فما من الزيادات. ويُشدَّد سِيَّ ويخفَّف: فأمّا التشديد فهو اللغة العالية، وبعض الناس يخفّف، ويقال: إنّ الفرزدق مرَّ وهو سَكرانُ على كلابٍ مجتمعةٍ فسلَّ عليها فلمّا لم يسمع الجوابَ أنشأ يقول:

فما ردَّ السّلامَ شيوخُ قومٍ مررتُ بهم على سِكَك البريدِ
ولا سِيما الذي كانت عليه قَطيفةُ أُرْجُوانٍ في القعودِ

فيقول امرؤ القيس: أمّا أنا فما قلت في الجاهليّة إلا بزحافٍ: لك منهنّ صالِحٍ. وأمّا المعلّمون في الإسلام فغيَّروه على حَسَب ما يريدون، ولا بأس بالوجه الذي اختاروه. والوجوه في يوم متقاربةٌ، وسِيَّ تشديدها أحسنُ وأعرف. فيقول: أَجَلْ، إذا خُفّفتْ صارت على حرفين أحدهما حرف عِلّة.

ويقول: أخبرّني عن التسميط المنسوب إليك، أصحيحٌ هو عنك؟ وينشده الذي يرويه ٤،٣،١٧
بعض الناس:

يا صَحْبَنا عرّجوا تقِفْ بكم أُسُجُ
مَهْرِيّةٌ دُلُجُ في سيرِها مُعُجُ
طالت بها الرِّحَلُ

فعرَّجوا كلُّهمْ والهمُّ يَشغَلهُمْ
والعِيس تحملهمْ ليست تُعلِّلهمْ
وعاجت الرُّمُلُ

ياقوم إنّ الهوى إذا أصاب الفتى
في القلب ثُمَّ ارتقى فهدَّ بعضَ القُوى
فقد هَوى الرَّجلُ

فيقول: لا والله ما سمعتُ هذا قطُّ، وإنه لَقَريٌّ لم أسلُكه، وإنّ الكذب لكثير، وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام، ولقد ظلمني وأساء إليَّ! أبعد كلمتي التي أوّلها:

ألا انعَمْ صباحًا أيها الطَّلَلُ البالي وهل يَنْعَمَنْ من كان في العُصُر الخالي؟

وقولي:

خليليَّ مُرّا بي على أمّ جُندُبِ لأقضِيَ حاجاتِ الفؤاد المعذَّبِ

يقال لي مثلُ ذلك؟ والرَّجَز من أضعف الشعر، وهذا الوزن من أضعف الرَّجز.
فيعجَب، ملأ الله فؤاده بالسُّرور، لما سمعه من امرئ القيس ويقول: كيف تُنْشد: ٥،٣،١٧

جالت لتصرَعَني فقلت لها: قِري إنِّي امرؤٌ صَرَعي عليكِ حَرام

أتقول: حرامُ، فتُقْوي؟ أم تقول: حرامِ، فتُخْرِجه مُخْرَج حَذامِ وقَطامِ؟ وقد كان بعض علماء الدَّولة الثانية يجعلك لا يجوز الإقواءُ عليك. فيقول امرؤ القيس: لا نَكِرة عندنا في الإقواء، أما سمعتَ البيت في هذه القصيدة:

فكأنّ بَذْرًا واصلٌ بكُثَيْفةٍ وكأنّما من عاقلٍ إرمامُ

فيقول: لقد صدقتَ يا أبا هِند، لأنّ إرماماً هاهنا ليس واقعاً موقع الصِّفة فيُحْمَل على المجاوَرة، لأنه محمول على كأنما، وإضافته إلى ياء النَّفس تضعِّف الغرض. وقد ذهب بعض الناس إلى الإضافة في قول الفرزدق:

فما تدري إذا قعدتْ عليه أَسَعْدُ اللهِ أكثرُ أمْ جُذامِ

فقالوا: أضاف كما قال جريرٌ:

تِلْكُمْ قُرَيْشِيَ والأنصارُ أنصاري

وكذلك قوله:

وإذا غضِبْتُ رمَتْ ورائِيَ مازنٌ أولادُ جَنْدَلتي لخيرِ الجَنْدَلِ

وبعضهم يروي: أولادُ جندلةٍ لخيرِ الجندلِ، وجندلةُ هذه هي أمُّ مازن بن مالك بن عمرو بن تميم وهي من نساء قريش.

وإنّا لَنروي لك بيتاً ما هو في كلّ الرِّوايات، وأظُنّه مصنوعاً لأنّ فيه ما لم تجرِ عادتُك بمثله، وهو قولك: ٦،٣،١٧

وعمرُو بن دَرْماءَ الهُمامُ إذا غدا بِصارمِه يمشي كمِشْية قَسْوَرا

فيقول: أبْعد اللهُ الآخَر، لقد اخترص، فما اتَّرَص! وإنّ نسبة مثلِ هذا إليَّ لأعُدُّه إحدى الوَصمات، فإن كان من فعله جاهليّاً، فهو من الذين وُجدوا في النار صليّاً، وإن كان من أهل الإسلام، فقد خبط في ظلام.

وإنما أُنكِرُ[1] حذفَ الهاء من قَسْوَرة، لأنه ليس بموضع الحذف، وقلَّ ما يُصاب في أشعار العرب مثلُ ذلك. فأمّا قول القائل:

١ ب، ي، إف: (أَنْكَرَ)؛ راجع التعليق على الترجمة الإنكليزية.

إنّ ابنَ حارثَ إنْ أَشْتَقْ لرؤيته أو أمتدِحْه فإنّ الناس قد عَلِموا

فليس من هذا النحو، إذ كان التغيير إلى الأسماء الموضوعة أسرعَ منه إلى الأسماء التي هي نَكِراتٌ، إذ كانت النَّكرة أصلاً في الباب.

وينظر فإذا عَنْتَرة العَبْسيُّ متلدّدٌ في السعير، فيقول: ما لك يا أخا عَبْسٍ؟ كأنك لم تنطِق بقولك: ١،٤،١٧

ولقد شرِبْتُ من المُدامة بعدما ركد الهواجرُ بالمَشُوف المُعْلَمِ
بزُجاجةٍ صفراءَ ذاتِ أَسِرَّة قُرنتْ بأزهرَ في الشِّمال مفدَّمِ

وإنِّي إذا ذكرتُ قولك:

هل غادَرَ الشُّعَراءُ من متردَّمِ

لأقولُ: إنّما قيل ذلك وديوان الشِّعر قليلٌ محفوظٌ، فأمّا الآنَ وقد كُثُرت على الصائد ضِباب[1]، وعرفتْ مكانَ الجهل الرَّباب. ولو سمعتَ ما قيل بعد مبعث النّبي، صلى الله عليه وسلّم، لعتبتَ نفسَك على ما قلتَ، وعلمتَ أنّ الأمر كما قال حبيب بن أوْسٍ:

فلو كان يَفْنى الشِّعرُ أفناه ما قَرَتْ حِياضُك منه في العصور الذواهبِ
ولكنّه صوْبُ العقول إذا انجلتْ سحائبُ منه أُعْقبتْ بسحائبِ

فيقول: وما حبيبكم هذا؟ فيقول: شاعرٌ ظهر في الإسلام. وينشده شيئًا من نظمه فيقول: أمّا الأصل فعربيٌّ، وأمّا الفرع فنطق به غبيٌّ، وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائلُ العرب. فيقول، وهو ضاحكٌ مستبشرٌ: إنّما يُنكَر عليه المستعار، وقد جاءت

١ كذا في ب، وفي ي، إف، ق: (الضباب) ولعله الصواب.

العارية في أشعار كثيرٍ من المتقدّمين، إلا أنها لا تجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيبُ بن أوس.

فما أردتَ بالمَشوف المُعْلَم؟ الدينار أم الرِّداء؟ فيقول: أيَّ الوجهين أردتَ، فهو حسنٌ ولا ينتقض.

فيقول، جعل الله سمعه مستودَعاً كلَّ الصالحات: لقد شقَّ عليَّ دخولُ مثلك إلى الجحيم، وكأنّ أُذني مُصْغيةٌ إلى قِيْنات الفُسطاط وهي تغرِّد بقولك:

أمنْ سُمَيّةَ دمْعُ العين تذريف؟ لوأنّ ذا منك قبلَ اليوم معروفُ
تحلّلتْنِيَ إذ أَهْوى العصا قِبَلي كأنها رَشَأٌ في البيت مطروفُ
العبد عبدُكُمُ والمال مالُكُمُ فهل عذابُكِ عنّي اليومَ مصروفُ

وإني لأتمثّلُ بقولك: ٢،٤،١٧

ولقد نزلْتِ فلا تظُنِّنّ غيرَهُ مِنّي بمنزلة المُحَبِّ المُكْرَمِ

ولقد وُفِّقتَ في قولك: المُحَبِّ، لأنك جئت باللفظ على ما يجب في أَحْبَبْتُ، وعامّة الشُّعراء يقولون: أَحْبَبْتُ، فإذا صاروا إلى المفعول قالوا: محبوبٌ. قال زُهير بن مسعودٍ الضَّبِّيّ:

واضحةُ الغُرّة محبوبةٌ والفَرَسُ الصالح محبوبُ

وقال بعض العلماء: لم يُسْمَع بمُحَبٍّ إلا في بيت عنترة. وإنّ الذي قال: أَحْبَبتُ، لَيَجب عليه أن يقول: مَحَبُّ، إلا أنّ العرب اختارت: أَحَبَّ في الفعل، وقالت في المفعول: محبوب. وكان سيبويه ينشد هذا البيت بكسر الهمزة:

إِحِبُّ لحبِّها السُّودانَ حتى إِحِبَّ لحبِّها سُودَ الكِلابِ

فهذا على رأي من قال: مِغيرة، فكسر الميم على معنى الإتباع، وليس هو عنده على: حَبَبْتُ أُحِبُّ.

وقد جاء حَبَبْتُ، قال الشاعر:

ووالله لولا تَمْرُهُ مـا حَبَبْتُه ولا كان أدنى من عُبيْدٍ ومُرْشَقِ

ويقال: إنّ أبا رَجاءٍ العُطارديّ قرأ: ﴿فَاتَّبِعُونِي يَحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ بفتح الياء. والباب فيما كان مضاعَفاً متعدّياً أن يجيء بالضَّمّ، كقولك: عَدَدْتُ أَعُدُّ، ورَدَدْتُ أَرُدُّ، وقد جاءت أشياءُ نوادرُ كقولهم: شَدَدْتُ الحبْلَ أَشُدُّ وأَشِدُّ، ونَمَمْتُ الحديثَ أَنُمّ وأَنِمّ، وعَلَلْتُ القولَ أَعُلُّ وأَعِلُّ. وإذا كان غير متعدٍّ فالباب الكسر، كقولهم: حلَّ عليه الدَّين يحِلُّ، وجلَّ الأمرُ يجِلُّ. والضمُّ في غير المتعديّ أكثرُ من الكسر فيما كان متعدّياً، كقولهم: شَحَّ يَشُحُّ ويَشِحُّ، وشَبّ الفَرَسُ يَشُبُّ ويَشِبُّ، وصحّ الأمرُ يَصِحُّ ويَصُحُّ، وفَتِ الحيَّةُ تَفُّ وتَفِّ، وجَمّ الماءُ يَجِمُّ ويَجُمُّ، وجدَّ في الأمر يَجِدُّ ويَجُدُّ في حروفٍ كثيرةٍ.

وينظر فإذا عَلْقَمة بن عَبَدةَ فيقول: أَعْزِزْ عليَّ بمكانك! ما أغنى عنك سِمْطا لؤلؤك، يعني قصيدته التي على الباء: ١،٥،١٧

طَحا بك قلبٌ في الحِسان طَروبُ

والتي على الميم:

هل ما علِمتَ وما استُودِعتَ مكتومُ

فبالذي يقدِر على تخليصك، ما أردتَ بقولك:

فلا تَعْدِلي بيني وبين مغمَّرٍ سقتْك روايا المُزْن حين تصُوبُ
وما القلب أمْ ما ذكْرُها رَبَعيَّةً يُخَطُّ لها من ثَرْمَداءَ قليبُ

أعَنِيْتَ بالقليب هذا الذي يُورَد أم القبر؟ ولكلٍ وجهٌ حسنٌ.

فيقول علقمة: إنّك لَتستضحك عابساً، وتُريد أن تجني[1] الثَّمَر يابساً، فعليك شُغْلَك أيها السليم! ٢،٥،١٧

فيقول: لو شفعتْ لأحدٍ أبياتٌ صادقةٌ ليس فيها ذكر الله، سبحانه، لشفعتْ لك أبياتُك في وصف النساء، أعني قولك:

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... بصيرٌ بأدواء النساء طبيبُ
إذا شاب رأسُ المرء أو قلّ مالُهُ ... فليس له في ودِّهنَّ نصيبُ
يُرِدْن ثَراءَ المال حيث علِمْنَه ... وشَرْخُ الشَّباب عندهنَّ عجيبُ

ولو صادفتُ منك راحةً لسألتُك عن قولك:

وفي كلِّ حيٍّ قد خَبَطْتَ بنعمةٍ ... فُحُقَّ لشاسٍ من نَداكَ ذَنوبُ

أهكذا نطقتَ بها طاءً مشدّدةً، أم قالها كذلك عربيٌّ سواك؟ فقد يجوز أن يقول الشاعر الكلمة، فيغيّرها عن تلك الحال الرُّواة.

وإنّ في نفسي لحاجةً من قولك:

كأسُ عزيزٍ من الأعناب عتّقها ... لبعض أربابها حانيةٌ حُومُ

فقد اختلف الناس في قولك حُومُ، فقيل: أراد حُمًّا، أي سُوداً، فأبدل من إحدى الميمَيْن واواً. وقيل: أراد حَوْماً، أي كثيراً، فضمَّ الحاء للضَّرورة، وقيل: حُومٌ يُحام بها على الشَّرب، أي يُطاف.

وكذلك قولك:

---

١ في ب: (تَجْنِيَ) كما في نسخة الأصل وفي ي، إف، ق (تجني).

يَهْذي بها أكلَفُ الخدَّين مختبَرٌ من الجِمال كثيرُ اللحم عيشُومُ

فرُوي: يهدي، بالدال غير مُعجَمةٍ، ويهذي بذالٍ معجمةٍ. وقيل: مختبَرٌ، من اختبار الحوائل من اللواقح، وقيل: هو من الخبير، أي الزَّبَد، وقيل: الخبير اللحم، وقيل: هو الوَبَر.

فليْتَ شِعْري ما فعل عمرو بن كلثوم، فيقال: ها هوذا من تحتِك، إن شئت أن تحاوره ١٠٦،١٧
فحاوِرْه. فيقول: كيف أنت أيها المصطلِح بصحْن الغانية، والمغتبِق من الدُّنيا الفانية؟ لَوَددتُ أنك لم تساند في قولك:

كأنّ مُتونهنّ متونُ غُدْرٍ تصفِّقها الرِّياحُ إذا جرينا

فيقول عمروٌ: إنك لَقرير العين لا تشعُر بما نحن فيه، فاشْغَلْ نفسَك بتمجيد الله واترُكْ ما ذهب فإنه لا يعود. وأمّا ذكرك سِنادي، فإنّ الإخوةَ ليكونون ثلاثةً أو أربعةً، ويكون فيهم الأعرج أو الأبخق فلا يُعابون بذلك، فكيف إذا بلغوا المائة في العدد، ورُهاقَها في المَدد؟ فيقول: أَعَزَّ عليَّ بأنك قُصرتَ على شُربِ حميم، وأُخذتَ بعملك الذميم، من بعدِ ماكانت تُسْبأ لك القهوةُ من خُصٍّ أو غير خُصّ، تقابلك بلون الحُصّ.

وقالوا في قولك سَخِينا قولين: أحدهما أنه فَعِلْنا من السَّخاء والنون نونُ المتكلمين، والآخَر أنه من الماء السخين لأنّ الأنْدَرِين وقاصِرين كانتا في ذلك الزمن للرُّوم، ومن شأنهم أن يشربوا الخمر بالماء السخين في صيف وشتاء.

ولقد سُئل بعض الأدباء بمدينة السلام عن قولك: ٢،٦،١٧

فما وجدتْ كوجْدي أمُّ سَقْبٍ أَضلَّتْه فرجّعتِ الحنينا
ولا شَمْطاءُ لم يترُكْ شَقاها لها من تِسْعة إلّا جنينا

هل يجوز نصبُ شَمْطاء؟ فلم يُجِبْ بشيء، وذلك يجوز عندي من وجهيْن: أحدُهما على إضمار فعلٍ دلَّ عليه السامعَ معرفتُه به، كأنك قلت: ولا أذكُر شمطاءَ، أي أنّ

حنينها شديدٌ، ويجوز أن يكون على قولك: ولا تَنَسَ شمطاءَ، أو نحو ذلك من الأفعال، وهذا كقولك: إنّ كعب بن مامة جَوادٌ ولا حاتمًا، أي ولا أذكر حاتمًا، أي أنه جوادٌ عظيم الجُود، قد استغنيتُ عن ذكره باشتهاره.

والآخَر، أن يكون مِنْ وَلاه المَطَرُ إذا سقاه السَّقْيَةَ الثانية، أي هذا الحنين اتَّفق مع حنيني، فكأنه قد صار له وليًّا، ويحتمل أن يكون من وَلِيَ يَلِي، وقَلَبَ الياءَ على اللغة الطائيّة.

وينظر فإذا الحارث اليَشْكُري فيقول: لقد أتعبْتَ الرُّواة في تفسير قولك: ١،٧،١٧

زعموا أنّ كلَّ مَنْ ضَرَبَ العَيْـ ـرَ مُوالٍ لنا وأنّا الوَلاءُ

وما أحسَبُك أردتَ إلا العيْر الحمار.

ولقد شنَّعتَ هذه الكلمة بالإقواء في ذلك البيت، ويجوز أن تكون لُغتُكَ أن تقف على آخر البيت ساكنًا، وإذا فعلتَ ذلك اشتبه المُطلَق بالمقيَّد، وصارت هذه القصيدة مضافةً إلى قول الراجز:

دارٌ لظَمْيا وأين ظَمْيا أَهَلَكَتْ أمْ هي بين الأحْيا

وبعض الناس ينشد قولك:

فعِشْنَ بخيرٍ لا يَضِرْ كَ النُّوكُ ما أُعطيتَ جَدّا

فيجمع بين تحريك الشِّين وحذف الياء، من عاش يعيش، وذلك قليل رديءٌ. ومنه قول الآخر:

متى تَشَيْ يا أمَّ عُثمانَ تَصرِمي وأُوذِنكِ إيذانَ الخليطِ المُزايِلِ

وإنّما الكلام: متى تَشائي، لأنّ هذا الساكن إذا حُرّك عاد الساكن المحذوف. ولقد أحسنتَ في قولك:

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بأغبارِها إنّكَ لا تدري مَنِ الناتجُ

وقد كانوا في الجاهليّة يَعْكِسون ناقةَ الميّت على قبره، ويزعُمون أنه إذا نهض لحَشْره ٢،٧،١٧
وجدها قد بُعثت له فيركبها فليتَه لا يَهِصُ بثقله مَنْكِبها. وهيهات! بل حُشروا عُراةً حُفاةً بُهْماً، أي غُرْلاً، وتلك البليّة التي ذكرتَ في قولك:

أتلهَى بها الهواجرَ إذْ كلُّ ابنِ هَمٍّ بليّةٌ عَمْياءُ

ويعمد لسؤال طَرَفة بن العبد فيقول: يا ابن أخي يا طرفة خفّف الله عنك، أتذكر قولك: ١،٨،١٧

كريمٌ يُروّي نفسَه في حياته ستعلمُ إن مُتنا غداً أيُّنا الصَّدي

وقولك:

أَرى قبرَ نَحّامٍ بَخيلٍ بمالِهِ كقبرِ غَويٍّ في البَطالة مُفْسِدِ

وقولك:

متى تأْتِني أَصْبَحْكَ كأساً رَويّةً وإن كنتَ عنها غانياً فاغْنَ وازْدَدِ

فكيف صَبوحك الآن وغَبوقك؟ إنّي لأحسَبهما حميماً، لا يفتأ مَنْ شربهما ذميماً.

وهذا البيت يُتنازع فيه: فينْسُبه إليك قومٌ وينسبه آخرون إلى عَديّ بن زيدٍ، وهو ٢،٨،١٧
بكلامك أشبهُ، والبيت:

وأَصْفَرَ مضبوحٍ نظرتُ حَوِيرَهُ على النار واستودعتُه كفَّ مُجْمِدِ

وشدَّ ما اختلف النُّحاة في قولك:

ألا أيهاذا الزاجري أَحْضُرَ الوَغى وأن أشهَدَ اللَّذّاتِ هل أنت مُخْلِدي؟

وأمّا سيبويه فيكرَه نَصْبَ أحضُر، لأنه يعتقد أنّ عوامل الأفعال لا تُضْمَر. وكان الكوفيّون ينْصِبون أحضُر بالحرف المقدَّر، ويقوّي ذلك: وأن أشهدَ اللَّذّات.فجئت بأنْ، وليس هذا بأبعد من قوله:

مَشائيمُ ليسوا مُصْلِحين قَبيلةً ولا ناعبٍ إلا ببَينٍ غُرابُها

وقد حكى المازنيُّ عن عليّ بن قُطْرُبٍ أنه سمع أباه قطرباً يحكي عن بعض العرب نصْبَ أحضُر.

ولقد جئتَ بأعجوبةٍ في قولك:

لوكان في أملاكنا مِلكٌ يَعصِر فينا كالذي تَعْصِرْ
لاجتبْتُ صَحْنَيَ العراقِ على حَرْفٍ أَمونٍ دَفُّها أزْوَرْ
متَّعني يومَ الرحيل بها فَرْعٌ تنقّاه القِداحُ يَسَرْ

ولكنّك سلكتَ مَسالك العرب،فجئت بقريّ كلمة المرقّش:

هل بالديار أن تُجيبَ صَمَمْ؟ لوكان حيّاً ناطقاً كلَّمْ

وقول الأعشى:

أَقْصِرْ فكلُّ طالبٍ سيَمَلّ

على أنَّ مرقّشاً خلط في كلمته فقال:

ماذا علينا أن غزا ملِكٌ من آلِ جَفْنةَ ظالمٌ مُرْغِمْ

وهذا خروجٌ عمّا ذهب إليه الخليل.

٣،٨،١٧ ولقد كثُرت في أمرك أقاويلُ الناس: فمنهم من يزعُم أنك في مُلك النُّعمان اعتُقلتَ، وقال قومٌ: بل الذي فعل به ما فعل عمرو بن هندٍ. ولو لم يكن لك أثرٌ في العاجلة إلا قصيدتك التي على الدال، لكنتَ قد أبقيت أثرًا حسنًا.

فيقول طرفة: وددتُ أني لم أنطِق مِصراعًا، وعَدِمتُ في الدار الزائلة إمراعًا، ودخلت الجنة مع الهَمَج والطَّغام، ولم يُعمَد لمَرْسِني بالإرغام، وكيف لي بهَدْءٍ وسُكون، أركَنُ إليه بعض الركون؟ ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

١،٩،١٧ ويَلفِت عُنقَه يتأمّل، فإذا هو بأوْس بن حَجَر، فيقول: يا أوس، إنّ أصحابك لا يجيبون السائل فهل لي عندك من جوابٍ؟ فإنّي أريد أن أسألك عن هذا البيت:

وقارفتْ وهْيَ لم تَجْرَب وباع لها من الفَصافص بالنُّيِّ سِفْسيرُ

فإنّه في قصيدتك التي أوّلها:

هل عاجلٌ من مَتاع الحيّ منظورُ أم بيتُ دَوْمةَ بعد الوصل مهجورُ

ويُروى في قصيدة النابغة التي أوّلها:

ودِّعْ أُمامةَ والتوديعُ تعذيرُ وما وَداعُك مَنْ قفَّتْ به العِيرُ

وكذلك البيت الذي قبله:

قد عُرِّيَتْ نِصفَ حوْلٍ أَشْهُرًا جُدُدًا تَسفي على رَحْلها في الحِيرة المُورُ

وكذلك قوله:

إنّ الرحيل إلى قومٍ وإن بعُدوا أمسوْا ومِن دونِهم ثَهْلانُ فالنِّيرُ

وكِلاكما[1] معدود في الفحول، فعلى أيّ شيءٍ يُحَمَّل ذلك؟ فلم تزل تعجبني لا ميّتُك التي ذكرتَ فيها الجُرْجة، وهي الخريطة من الأَدَم فقلتَ لمّا وصفتَ القوس:

فجئتُ ببيْعي مُوليًا لا أَزيدُهُ عليه بها حتى يؤوبَ المنخَّلُ
ثلاثةُ أبرادٍ جِيادٍ وجُرْجةٌ وأدكنُ من أَرْي الدَّبور معسَّلُ

فيقول أوس: قد بلغني أنّ نابغة بني ذُبيان في الجنّة، فاسألْه عمّا بدا لك فلعلّه يُخبرك، فإنّه أجدرُ بأن يعي هذه الأشياء، فأمّا أنا فقد ذهلتُ: نارٌ تُوقَد، وبَنانٌ يُعْقَد؛ إذا غلب عليَّ الظَّمأ، رُفع لي شيءٌ كالنهر، فإذا اغترفتُ منه لأشرَب، وجدتُه سعيرًا مضطرَمًا، فليتني أصبحتُ دَرِماً، وهو الذي يقال فيه: أوْدى دَرِمٌ. وهو من بني دُبّ بن مُرّة بن ذُهْل بن شيْبان ولقد دخل الجنّة من هو شرٌّ منّي، ولكنّ المغفرة أرزاقٌ، كأنها النَّشَب في الدار العاجلة. ٢،٩،١٧

فيقول، صار وليُّه من المتبوعين، وشانئُه بالسَّفَه من المسبوعين: إنّما أردتُ أن آخذَ عنك هذه الألفاظ، فأُتْحِف بها أهلَ الجنّة فأقول: قال لي أوسٌ، وأخبرني أبو شُرَيح. ٣،٩،١٧

وكان في عَزْمي أن أسألك عمّا حكاه سيبويه في قولك:

تُواهِقُ رِجْلاها يداه ورأسُه لها قَتَبٌ خلْفَ الحقيبة رادفُ

فإني لا أختار أن تُرفَع الرِّجلان واليدان، ولم تدْعُ إلى ذلك ضرورةٌ، لأنك لو قلت: تواهق رجليها يداه لم يَزِغ الوزنُ؛ ولعلّك، إن صحّ قولك لذلك، أن تكون طلبتَ

١ في النسخ: (كلاهما) والسياق يقتضي الخطاب.

المشاكَهة، وهذا المذهب يَقوى إذا رُوِي: يداها بالإضافة إلى المؤنَّث، فأمّا في حال الإضافة إلى ضمير المذكَّر فلا قُوّة له.

وإنّي لكارهٌ قولك:

والخيـلُ خارجةٌ من القَسْطـالِ

أخرجتَ الاسمَ إلى مثالٍ قليلٍ، لأنّ فَعْلالاً لم يجئ في غير المُضاعَف، وقد حُكي: ناقةٌ بها خَزْعالٌ، أي بها ظَلَعٌ.

ويرى رجلاً في النار لا يميّزه من غيره، فيقول: من أنت أيها الشَّقِيُّ؟ فيقول: أنا أبو كبيرٍ ١٠،١٧
الهُذَلي، عامر بن الحُلَيْس، فيقول: إنّك لَمِن أعلام هُذيلٍ، ولكني لم أوثِر قولك:

أزُهيرُ هل عن شيْبةٍ من مَعْدَلِ أم لا سبيلَ إلى الشَّباب الأوّلِ

وقلتَ في الأخرى:

أزُهيرُ هل عن شيْبةٍ من مَصْرِفِ أم لا خلودَ لعاجزٍ متكلِّفِ

وقلتَ في الثالثة:

أزُهيرُ هل عن شيْبةٍ من مَغْنَمِ

أي من مَحْبَس. فهذا يدُلُّ على ضِيقِ عَطَنك بالقريض، فهلا ابتدأتَ كلَّ قصيدة بفَنّ؟ والأصمعيُّ لم يرْوِ لك إلا هذه القصائد الثلاث، وقد حُكي أنه يُروى عنك الرائية التي أوّلها:

أزُهيرُ هل عن شيْبةٍ من مَقْصَرِ

وأَحْسِنْ بقولك:

ولقد وردتُ الماء لم يشرَبْ به بين الشتاء إلى شهور الصَّيْفِ
إلا عواسلُ كالمراط مُعِيدةً بالليل مَوْرِدَ أيِّمٍ متغضِّفِ
زَقَبٌ يظَلُّ الذِّئبُ يتْبع ظِلَّهُ فيه فيستنُّ استنانَ الأخلَفِ
فصددتُ عنه ظامئًا وتركتُه يهتزُّ غَلْفَقُه كأن لم يُكْشَفُ

فيقول أبوكبير الهذليّ: كيف لي أن أقضِم على جَمَراتٍ مُحْرِقاتٍ، لأَرِدَ عِذاباً غَدِقاتٍ؟ وإنّما كلامُ أهلِ سَقَرَ ويلٌ وعويلٌ، ليس لهم إلا ذلك حَوِيلٌ، فاذهبْ لطِيّتك، واحذَرْ أن تُشغَل عن مَطِيَّتك.

فيقول، بلّغه الله أقاصِيَ الأمل: كيف لا أَجْذَل وقد ضُمنتْ لي الرَّحمة الدائمة، ضَمِنَها من يصدُق ضَمانُه، ويُعِمُّ أهلَ الخِيفة أمانُه؟

فيقول: ما فعل صَخْرُ الغَيّ؟ فيقال: هاهو حيث تراه. فيقول: يا صخر الغيّ ما فعلتْ ١١،١٧ دَهْماؤك؟ لا أرضُك لها ولا سماؤك! كانت في عهدك وشبابها رؤدٌ، يأخذك من حِبابها الزؤد، فلذلك قلتَ:

إنّي بدَهْماءَ عَزَّ ما أجِدُ يعتادُني من حِبابها زُؤُدُ

وأين حصل تَليدُك؟ شَغَلَك عنه تخليدُك، وحُقَّ لك أن تنساه، كما ذهل وَحْشيٌّ دَمِيَ نَساه.

وإذا هو برجلٍ يتضوّر، فيقول: مَن هذا؟ فيقال: الأخطل التَّغْلبيّ، فيقول له: ما زالت ١،١٢،١٧ صِفتُك للخمر حتى غادرتْك أُكْلاً للجَمَر، كم طرِبَت الساداتُ على قولك:

أناخوا فجرّوا شاصياتٍ كأنها رجالٌ من السُّودان لم يتسربلوا
فقلت: اصْبَحَوني لا أبا لأبيكُمُ وما وضعوا الأثقالَ إلا ليفعلوا
فصبُّوا عُقارًا في الإناء كأنها إذا لَمحوها جَذْوةٌ تتأكّلُ
وجاؤوا بيَسْانيَّةٍ هي بعدما يُعَلُّ بها الساقي ألذُّ وأسهلُ
تمُرُّ بها الأيدي سنيحًا وبارحًا وتوضَع باللَّهُمّ حَيِّ وتُحْمَلُ
فتُوقَف أحيانًا فيَفْصِل بيننا غِناءُ مُغنٍّ أو شِواءٌ مُرَعْبَلُ
فلذَّتْ لمرتاحٍ وطابت لشاربٍ ومراجَعينه منها مِراحٌ وأخْيَلُ
فما لَبِثْنا نَشْوةٌ لحِقتْ بنا تَوابعُها ممّا نُعَلّ ونُنْهَلُ
تَدِبُّ دبيباً في العِظام كأنه دبيبُ نِمالٍ في نَقًا يتهيّلُ
رَبَتْ وربا في كرْمها ابنُ مَدينةٍ مُكِبٌّ على مِسْحاته يتركّلُ
إذا خاف من نَجْمٍ عليها ظَماءةً أدَبَّ إليها جَدْوَلاً يتسلسلُ
فقلتُ: اقْتلوها عنكُمُ بمزاجها وحُبَّ بها مقتولةً حين تُقْتَلُ

فقال التَّغلبيّ: إنّي جررتُ الذارع، ولقيتُ الدارع، وهجرتُ الآبدة، ورجوتُ أن تُدْعى النَّفسُ العابدة، ولكن أَبَت الأقضِيَة.

فيقول، أحلَّ الله الهَلَكَةَ بمُبْغِضيه: أخطأتَ في أمرَيْن، جاء الإسلام فعجزتَ أن ٢،١٢،١٧
تدخل فيه، ولزمتَ أخلاقَ سفيه؛ وعاشرتَ يزيدَ بن مُعاوية، وأطعتَ نفسَك الغاوية؛ وآثرتَ ما فَنِيَ على باقٍ، فكيف لك بالإباق؟

فيَزِفر الأخطل زَفْرَةً تعجَب لها الزَّانية، ويقول: آه على أيّام يزيدَ أَسُوفُ عنده عَنْبَرا، ولا أعدَمُ لديه سِيسَنْبَرا؛ وأمرَحُ معه مَرَحَ خليل، فيحتملني احتمالَ الجليل؛ وكم ألبسني من مَوْشيّ، أسحبُه في البُكرة أو العَشيّ، وكأني بالقِيان الصادحة بين يديه تُغنّيه بقوله:

ولها بالماطِرونِ إذا أنفد النَّمْلُ الذي جَمَعا
خِلْفةٌ حتى إذا ظَهرتْ سكنتْ من جِلِّقٍ بِيَعا
في قِبابٍ حوْل دَسْكَرَة حوْلَها الزَّيتونُ قد يَنَعا
وقفتْ للبدر ترقُبه فإذا بالبدر قد طَلَعا

ولقد فاكهتُه في بعض الأيّام وأنا سَكرانُ مُلْتَخٌّ فقلت:

اِسْلَمْ سلِمتَ أبا خالدٍ وحيّاك ربُّك بالعَنْقَزِ
أكلتَ الدَّجاجَ فأفنيتَها فهل في الخنانيص من مَغْمَزِ

فما زادني عن ابتسام، واهتزَّ للصِّلة كاهتزاز الحُسام.

فيقول، أدام الله تمكينه: من ثَمَّ أُتِيتَ! أما علمتَ أنّ ذلك الرجل عانٌّ، وفي جبال ٣،١٢،١٧
المَعْصِيَة سانٌّ؟ فعَلامَ اطّلعتَ من مذهبه: أكان مُوَحِّداً، أم وجدتَه في النُّسك مُلْحِداً؟

فيقول الأخطل: كانت تُعجبه هذه الأبيات:

أخالدَ هاتي خَبِّريني وأَعْلِني حديثَكِ إنّي لا أُسِرُّ التناجيا
حديثَ أبي سُفْيانَ لمّا سما بها إلى أُحُدٍ حتى أقام البواكيا
وكيف بغى أمرًا عليٌّ ففاتَهُ وأوْرَثَه الجَدُّ السعيد مُعاويا
وقُومي فعُلِّيني على ذاكِ قَهْوةً تَحَلَّبها العِيسيةُ كَرْمًا شآميا
إذا ما نظرْنا في أمورٍ قديمةٍ وجدنا حَلالاً شُرْبَها المتواليا
فلا خُلْفَ بين النّاس أنّ محمّدًا تَبَوّأ رَمْسًا في المدينة ثاويا

فيقول، جعل الله أوقاتَه كلَّها سعيدةً: عليك البَهْلة! قد ذهلت الشعراءُ من أهل الجنة والنار عن المدح والنسيب، وما شُدهتَ عن كُفْرك ولا إساءتك.

وإبليسُ يسمع ذلك الخطاب كلَّه فيقول للزَّبانية: ما رأيتُ أعجزَ منكم إخوانَ مالكٍ! ٤،١٢،١٧
فيقولون: كيف زعمتَ ذلك يا أبا مُرّة؟ فيقول: ألا تسمعون هذا المتكلِّم بما لا يعنيه؟ قد

شغلكم وشغل غيرَكم عمّا هو فيه! فلو أنّ فيكم صاحبَ نحيزةٍ قويّةٍ، لَوثب وثبةً حتى يلحَق به فيجذِبه إلى سَقَرَ. فيقولون: لم تصنع شيئًا يا أبا زَوْبَعة! ليس لنا على أهل الجنّة سبيلٌ.

فإذا سمع، أسمعه الله مَحابَّه، ما يقول إبليس، أخذ في شَتْمه ولَعْنه وإظهار الشَّماتة به. فيقول، عليه اللَّعنة: ألم تُنْهَوْا عن الشَّمات يا بني آدم؟ ولكنّكم، بحمد الله، ما زُجرتم عن شيءٍ إلّا ورَكِبتُموه. فيقول، واصَل الله الإحسانَ إليه: أنت بدأتَ آدمَ بالشَّماتة، والبادئُ أظلمُ. ثمّ يعود إلى كلام الأخطل فيقول: أأنت القائل هذه الأبيات:

ولستُ بصائمٍ رمضانَ طوْعًا ولستُ بآكلٍ لحمَ الأضاحي
ولستُ بقائمٍ كالعَيْرِ أدعو قُبيلَ الصُّبح حَيَّ على الفَلاح
ولكنّي سأشرَبها شَمولاً وأسجُد عند منبلَجِ الصباح

فيقول: أَجَلْ، وإني لَنادمٌ سادمٌ، وهل أغْنتِ النَّدامةُ عن أخي كُسَعٍ؟

ويملُّ من خطاب أهل النار، فينصرف إلى قصْره المَشِيد، فإذا صار على مِيلٍ أو ١،١،١٨
ميلَيْن، ذكر أنه ما سأل عن مهلْهِل التَّغلبيّ ولا عن المُرقِّشَيْن وأنه أغفل الشَّنْفَرى وتأبَّط شَرًّا، فيرجع على أدراجه، فيقف بذلك الموقف ينادي: أين عَديُّ بن رَبيعة؟ فيقال: زِدْ في البيان. فيقول: الذي يستشهد النُّحويُّون بقوله:

ضربتْ صدرَها إليَّ وقالت: يا عَديًّا لقد وَقَتْك الأَواقي

وقد استشهدوا له بأشياءَ كقوله:

ولقد خبَطْن بيوتَ يَشْكُرَ خَبْطةً أخوالَنا وهُمُ بنو الأعمامِ

وقوله:

ما أُرجِّي بالعيْش بعد ندامى كلّهمْ قد سُقُوا بكأْسِ حَلاقِ

فيقال: إنك لَتُعرِّف صاحبَك بأمرٍ لا معرفةَ عندنا به، ما التحويّون؟ وما الاستشهاد؟ وما هذا الهَذَيان؟ نحن خَزَنة النار، فبيِّنْ غرضَك تُجَبْ إليه.

فيقول: أريد المعروف بمهلْهِل التَّغلبيّ، أخي كُلَيْبِ وائلٍ الذي كان يُضرَب به المَثَل.

فيقال: ها هو ذا يسمع حِوارك، فقل ما تشاء.

فيقول: يا عديَّ بن ربيعة، أَعْزِزْ عليَّ بوُلوجك هذا المَوْلِج! لو لم آسَف عليك إلا لأجْل ٢،١،١٨
قصيدتك التي أوّلها:

أليْلَتَنا بذي حُسَمٍ أَنيري إذا أنتِ انقضيتِ فلا تَحُوري

لكانت جديرةً أن تُطيل الأسَفَ عليك، وقد كنتُ إذا أنشدتُ أبياتك في ابنتك المزوَّجة في جَنْب تَغْرَوْرِق من الحُزن عيناي، فأخبِرْني لِمَ سُمّيتَ مهلهِلاً؟ فقد قيل: إنك سُمّيت بذلك لأنك أوّل من هلهل الشعْرَ، أيْ رقّقه.

فيقول: إنّ الكذب لكثيرٌ، وإنّما كان لي أخٌ يقال له امرؤ القيس فأغار علينا زُهير ابن جَنابٍ الكَلْبيُّ، فتبعه أخي في زَرافةٍ من قومه، فقال في ذلك:

لما تَوَقَّل في الكُراع هجينُهمْ هلهلتُ أثأرُ مالكًا أو صِنْبِلا
وكأنه بارٌ عَلَتْه كَبْرةٌ يَهدي بِشكّته الرَّعيلَ الأوّلا

هلهلتُ: أي قاربتُ، ويقال: توقَّفتُ، يعني بالهجين زُهير بن جَنابٍ. فسُمِّيَ مهلهلاً، فلمّا هلك شُبِّهتُ به فقيل لي: مهلهل. فيقول: الآن شفيتَ صدري بحقيقة اليقين.

فأخبِرْني عن هذا البيت الذي يُروى لك: ٣،١،١٨

أرْعَدوا ساعةَ الهِياج وأبرَقْـ ـنا كما تُوعِد الفُحولُ الفحولا

فإنّ الأصمعيّ كان يُنكره ويقول: إنه مولَّدٌ، وكان أبو زيدٍ يستشهد به ويُثبته.

فيقول: طال الأَبَد على لُبَدٍ! لقد نسيتُ ما قلتُ في الدار الفانية، فما الذي أَنكرمنه؟

فيقول: زعم الأصمعيّ أنه لا يقال أرعد وأبرق في الوعيد ولا في السحاب.

فيقول: إنّ ذلك لَخطأٌ من القول، وإنّ هذا البيت لم يقُلْه إلا رجلٌ من جِذْم الفصاحة، إمّا أنا وإمّا سِواي، فخُذ به وأَعْرِضْ عن قول السُّفَهاء.

ويسأل عن المرقّش الأكبر، فإذا هو به في أطباق العذاب، فيقول: خفَّف الله عنك ٢،١٨
أيها الشابّ المغتصَب، فلم أزلْ في الدار العاجلة حزيناً لما أصابك به الرجلُ الغُفَليُّ، أحد بني غُفيلةَ بن قاسطٍ، فعليه بَهْلة الله! وإنّ قوماً من أهل الإسلام كانوا يستزِرون بقصيدتك الميميّة التي أوّلها:

هل بالديار أن تُجيب صَمَمْ لو كان حيّاً ناطقًا كلَّمْ

وإنها عندي لَمِن المُفْرَدات، وكان بعض الأدباء يرى أنها والميميَّة التي قالها المرقِّشُ الأصغر ناقصتان عن القصائد المُفضَّليّات، ولقد وَهَمَ صاحب هذه المقالة. وبعض الناس يروي هذا الشعر لك:

تخيّرتُ من نَعْمانَ عُودَ أَراكةٍ لهندٍ ولكنْ مَن يبلّغه هِندا؟
خليليَّ جُورا بارَكَ اللهُ فيكما وإن لم تكن هندٌ لأرضكما قَصْدا
وقُولا لها: ليس الضلالُ أجارَنا ولكنّنا جُرْنا لنَلْقاكُمُ عَمْدا

ولم أجِدْها في ديوانك، فهل ما حُكي صحيحٌ عنك؟

فيقول: لقد قلتُ أشياءَ كثيرةً، منها ما نُقل إليكم ومنها ما لم يُنقَل، وقد يجوز أن أكون قلتُ هذه الأبيات[1] ولكني سرِقْتُها لطُول الأبد، ولعلَّك تُنكر أنها في هندٍ، وأنّ صاحبتي أسماءُ، فلا تَنْفِر من ذلك، فقد ينتقل المُشبِّب من الاسم إلى الاسم، ويكون في بعض عُمره مُستهترًا بشخصٍ من الناس، ثمّ ينصرف إلى شخصٍ آخَر، ألا تسمع إلى قولي:

سَفَهٌ تذكُّره خُويلةَ بعدما حالت ذُرا نَجْرانَ دونَ لقائها

٣،١٨ وينعطف إلى المُرقِّش الأصغر فيسأله عن شأنه مع بنت المُنْذِر وبنت عَجْلانَ فيجده غير خبيرٍ، قد نسي لترادف الأحقاب فيقول: ألا تذكر ما صنع بك جَنابٌ الذي تقول فيه:

فآلى جنابٌ حِلْفةً فأطعتُهُ ففسَكَ وَلِّ اللَّوْمَ إن كنتَ لائما

فيقول: وما صنع جناب؟ لقد لقيتُ الأقْوَرين، وسُقِيتُ الأمَرَّين، وكيف لي بعذاب الدار العاجلة!

١ العبارة (منها ما نُقل . . . هذه الأبيات) ساقطة من بعض النسخ.

٤،١٨ فإذا لم يجد عنده طائلاً تركه وسأل عن الشَّنْفَرى الأَزْديّ فألفاه قليلَ التشكّي والتألُّم لما هو فيه، فيقول: إنّي لا أراك قَلِقاً مثل قَلَق أصحابك. فيقول: أَجَلْ، إنّي قلت بيتاً في الدار الخادعة فأنا أتأدَّب به حِيرِيَّ الدهرِ، وذلك قولي:

غَوى فغَوَتْ، ثم ارْعوى بَعْدُ وارْعَوَتْ ولَلصبرُ إن لم ينفع الشَّكْوُ أجمَلُ

٥،١٨ وإذا هو قرينٌ مع تأبَّط شرًّا، كما كان في الدار الغرّارة.

فيقول، أسنى الله حظَّه من المغفِرة، لتأبّط شرًّا: أحقٌّ ما رُوي عنك من نكاح الغِيلان؟ فيقول: لقد كنّا في الجاهليّة نتقوّل ونتخرّص، فما جاءك عنّا ممّا يُنكره المعقول فإنه من الأكاذيب، والزَّمن كلُّه على سجيّةٍ واحدةٍ، فالذي شاهَده مَعَدُّ بن عَدْنانَ كالذي شاهد نُضاضةُ ولد آدم. والنُّضاضة آخِر ولد الرَّجل.

فيقول، أجزل الله عطاءه من الغفران: نُقلتْ إلينا أبياتٌ تُنسَب إليك:

أنا الذي نَكَح الغِيلانَ في بلدٍ ما طَلَّ فيه سِماكٌ ولا جادا
في حيثُ لا يَعْمِتُ الغادي عَمايتَه ولا الظَّليمُ به يَبْغي تِهبّادا
وقد لهوْتُ بمصقولٍ عوارضُها بِكْرٍ تُنازعني كأسًا وعِنْقادا
ثمّ انقضى عَصرُها عِيني وأعقبَه عَصرُ المَشيب فقُلْ في صالحٍ بادا

فاستدللتُ على أنها لك لمّا قلتَ: تِهبّادا، مصدر تهبَّد الظليمُ إذا أكل الهبيد، فقلتُ: هذا مثلُ قوله في القافيّة:

طيفُ ابنةِ الحُرِّ إذ كُنّا نُواصلها ثمّ اجتُنِتُّ بها بعد التِّفرّاقِ

مصدر تفرّقوا تِفرّاقاً، وهذا مطّردٌ في تفعّل، وإن كان قليلاً في الشعر، كما قال أبو زُبيدٍ:

فثار الزاجرون فزادَ منهم تِقرّابًا وصادَفه ضَبيسُ

فلا يجيبه تأبَّط شرًّا بطائلٍ.

فإذا رأى قِلّة الفوائد لديهم، تركهم في الشَّقاء السَّرمَد، وعمد لمحلّه في الجنان، فيلقى ١،١،١٩
آدم، عليه السلام، في الطريق فيقول: يا أبانا، صلَّى الله عليك، قد رُوي لنا عنك شعرٌ منه قولك:

نحنُ بنو الأرض وسُكّانُها مـنها خُلِقْنـا وإليهـا نَعودْ
والسَّعدُ لا يَبـقى لأصحابه والنَّحْسُ تمحوه ليـالي السُّعودْ

فيقول: إنّ هذا القول حقّ، وما نطقه إلا بعضُ الحكماء، ولكنّي لم أسمع به حتّى الساعة.

فيقول: وفّر الله قِسمَه في الثَّواب: فلعلَّك يا أبانا قُلته ثمّ نسيتَ، فقد علمتَ أنّ النِّسيان متسرّعٌ إليك، وحَسْبُك شهيداً على ذلك الآيةُ المتلوّة في فُرقان محمَّد، صلّى الله عليه وسلم: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ وقد زعم بعض العلماء أنك إنّما سُمّيتَ إنساناً لنسيانك، واحتجّ على ذلك بقولهم في التصغير: أُنَيْسِيان، وفي الجمع: أَناسيّ، وقد رُوي أنّ الإنسان من النِّسيان عن ابن عبّاس، وقال الطائيّ:

لا تَنْسَيَنْ تلك العهودَ وإنّما سُمِّيتَ إنسانًا لأنك ناسِ

وقرأ بعضهم: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسِ﴾ بكسر السِّين، يريد النّاسي، فحذف الياء، كما حُذفت في قوله: ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾. فأمّا البصريُّون فيعتقدون أنّ الإنسان من الأُنْس، وأنّ قولهم في التصغير: أُنَيْسِيان، شاذٌّ، وقولهم في الجمع: أَناسيُّ، أصله أَناسِينُ، فأبدلت الياء من النون. والقول الأوّل أحسن.

فيقول آدم، صلَّى الله عليه: أبيْتُم إلا عقوقًا وأذيّةً، إنّما كنتُ أتكلّم بالعربيّة وأنا في الجنّة، ٢،١،١٩
فلمّا هبطتُ إلى الأرض نُقل لساني إلى السُّريانيّة، فلم أنطِق بغيرها إلى أن هلكتُ، فلمّا ردَّني الله، سبحانه وتعالى، عادت عليَّ العربيّة، فأيّ حينٍ نظمتُ هذا الشعر: في العاجلة أم الآجلة؟ والذي قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو في الدار الماكرة، ألا ترى قوله:

منها خُلِقْنا وإليها نَعودُ فكيف أقول هذا المقال ولساني سُريانيّ؟ وأمّا الجنّة قبل أن أخرُج منها فلم أكن أدري بالموت فيها، وأنه ممّا حُكم على العِباد، صُيِّر كأطواق حَمام، وما رعى لأحدٍ من ذِمامٍ، وأمّا بعد رجوعي إليها، فلا معنى لقولي: وإليها نَعودُ، لأنه كذبٌ لا مَحالة، ونحن مَعاشرَ أهلِ الجنّة خالدون مخلَّدون.

فيقول، قُضي له بالسَّعد المؤرَّب: إن بعض أهل السِّيَر يزعُم أنّ هذا الشعر وجده يَعْرُبُ في متقدم الصُّحُف بالسُّريانيّة، فنقله إلى لسانه، وهذا لا يمتنع أن يكون.

وكذلك يروون لك، صلَّى الله عليك، لمّا قتل قابيلُ هابيلَ: ٣،١،١٩

تغيَّرتِ البلادُ ومَن عليها فوجهُ الأرض مُغْبَرٌّ قبيحُ
وأَوْدى رَبْعُ أهلها فبانوا وغودر في الثّرى الوجهُ المليحُ

وبعضهم ينشد:

ومزال بَشاشةُ الوجهِ المليحِ

على الإقواء. وفي حكايةٍ، معناها على ما أذكُر أنّ رجلاً من بعض ولدك يُعرَف بابن دُريد أنشد هذا الشعر، وكانت روايته:

ومزال بشاشةُ الوجهِ المليحِ

فقال أوّلَ ما قال: أَقْوى. وكان في المجلس أوسعيد السِّيرافيُّ فقال: يجوز أن يكون قال:

ومزال بشاشةَ الوجهُ المليحُ

بنصب بشاشة على التمييز، وبحذف التنوين لإلتقاء الساكنَيْن، كما قال:

عمرُو الذي هَشَمَ الثَّريدَ لقومه ورجالُ مكّةَ مُسْنِتون عِجافُ

قلت أنا: هذا الوجه الذي قاله أبو سعيدٍ شرٌّ من إقواءِ عشرِ مَرّاتٍ في القصيدة الواحدة.

فيقول آدم، صلّى الله عليه: أَعْزِزْ عليَّ بكم مَعْشرَ أُبَيِّنِيَّ! إنّكم في الضَّلالة متهوّكون! آليتُ ما نطقتُ هذا النظيم، ولا نُطِقَ في عصري، وإنّما نظمه بعضُ الفارغين، فلا حوْل ولا قُوّة إلا بالله! كذبتم على خالقكم وربّكم، ثمّ على آدم أبيكم، ثمّ على حوّاءَ أمّكم، وكذب بعضكم على بعض، ومآلكم في ذلك الأرض.

١،٢،١٩ ثمّ يضرب سائرًا في الفردوس فإذا هو بروضةٍ مؤنقةٍ، وإذا هو بحيّاتٍ يلعبن ويتماقلن، يتخافقن ويتثاقلن، فيقول: لا إله إلا الله! وما تصنع حيّةٌ في الجنّة؟ فيُنْطِقها الله، جلّتْ عَظَمتُه، بعدما ألهمها المعرفةَ بهاجس الخَلَد فتقول: أما سمعتَ في عمرك بذات الصَّفاء، الوافية لصاحبٍ ما وفى؟ كانت تنزل بوادٍ خصيب، ما زمنُها في العيشة بقصيب، وكانت تصنع إليه الجميل في وِرْد الظاهرة والغِبّ، وليس مَن كفر للمؤمن بسببٍ، فلمّا ثمّرَ بودّها مالَه، وأمّل أن يجتذب آمالَه، ذكر عندها ثارَه، وأراد أن يقتفر آثاره، وأكبّ على فأسٍ مُعْمَلةٍ، يحُدُّ غُرابَها للآملة، ووقف للساعية على صخرةٍ، وهمّ أن ينتقم منها بأَخَرةٍ، وكان أخوه ممّن قتلتْه، جاهرتْه في الحادثة أو قيل ختلتْه، فضربها ضَربةً، وأَهْوَنْ بالمِقرشَرّبةً، إذا الرجل أحسَّ التَّلَف، وفقد من الأنيس الخَلَف! فلمّا وُقِيتْ ضربةَ فأسِه، والحِقدُ يُمسك بأنفاسه، نَدِم على ما صنع أشدَّ النَّدَم، ومن له في الجِدة بالعَدَم؟ فقال للحيّة مُخادعًا، ولم يكن بماكم صادعًا: هل لكِ أن نكون خِلَّيْن، ونحفظ العهدَ إلَّيْن؟ ودعاها بالسَّفَه إلى حِلف، وقد سُقِي من الغدر بخِلْف. فقالت: لا أفعلُ وإن طال الدهر، وكم قُصم بالغِيَر ظَهرٌ! إنّي أجِدُك فاجرًا مسحورًا، لم تألُ في خُلّتك حُورًا؛ تأبى لي صَكّةٌ فوق الرأس، مارستُها أبأسَ مِراسٍ، ويمنعك من أَرَبك قبرٌ محفور، والأعمال الصالحة لها وُفور.

وقد وصف ذلك نابغةُ بني ذُبيان فقال: ٢،٢،١٩

وإنّي لأَلقى من ذَوي الضِّغْن منهُمُ ... وما أصبحتْ تشكو من البَثّ ساهِرَهْ
كما لقِيَتْ ذاتُ الصَّفا من خليلها ... وكانت تَديه المالَ غِبّاً وظاهِرَهْ
فلمّا رأى أنْ ثَمّر اللهُ مالَه ... فأصبح مسروراً وسَدَّ مَفاقِرَهْ
أَكبَّ على فأسٍ يحُدُّ غُرابَها ... مذكَّرةٍ من المَعاول باتِرَهْ
وقام على جُحرٍ لها فوقَ صَخرةٍ ... ليقتلَها، أو تُخطئَ الكفُّ بادِرَهْ
فلمّا وقاها اللهُ ضَربةَ فأسِه ... وللبَرِّ عينٌ لا تغمِّض ناظِرَهْ
فقال تَعالَيْ نجعَلِ اللهَ بيننا ... على مالِنا أو تُنجِزي لِيَ آخِرَهْ
فقالت: مَعاذَ اللهِ أفعلُ إنني ... رأيتُك مسحوراً يمينُك فاجِرَهْ
أبى لِيَ قبرٌ لا يزال مُقابِلي ... وضربةُ فأسٍ فوق رأسِيَ فاقِرَهْ

وتقول حيّةٌ أخرى: إنّي كنت أسكُن في دار الحَسَن البصريّ فيتلو القرآنَ ليلاً، فتلقَّيتُ منه الكتاب من أوّله إلى آخره. ٣،٢،١٩

فيقول، لا زال الرُّشد قرِيناً لمحلِّه: فكيف سمعتِه يقرأ: ﴿فالِقُ الْإِصْباحِ﴾؟ فإنّه يُروى عنه بفتح الهمزة كأنه جَمْعُ صُبح، وكذلك: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ﴾ كأنه جمعُ بَكَرٍ، من قولهم: لَقِيتُه بَكَرًا، وإذا قلنا: إنّ أنعُمًا وأشُدّاً جمعُ نِعمة وشِدّة على طَرْح الهاء، فيجوز أن تكون الأبكار جمعَ بُكْرةٍ، فتكون على قولنا: بُكُرٌ وأبكارٌ، كما يقال جُنُدٌ وأجناد.

فتقول: لقد سمعتُه يقرأ هذه القراءةَ، وكنتُ عليها بُرهةً من الدهر، فلمّا تُوُفِّيَ، رحمه الله، انتقلتُ إلى جِدارٍ في دار أبي عمرو بن العَلاء، فسمعتُه يقرأ، فرغِبتُ عن حروفٍ من قراءة الحسن كهذين الحرفين، وكقوله: الأَنجيل، بفتح الهمزة. فلمّا تُوُفِّي أبو عمرو كرِهتُ المُقام، فانتقلتُ إلى الكوفة، فأقمتُ في جِوار حَمْزةَ بن حبيبٍ، فسمعتُه يقرأ بأشياءَ يُنكره عليه أصحابُ العربيّة، كخَفْض الأرحام في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الذِي تَساءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحامَ﴾ وكسر الياء في قوله تعالى: ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيّ﴾ وكذلك سكون الهمزة

في قوله تعالى: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ وهذا إغلاقٌ لباب العربيّة، لأنّ الفُرقان ليس بموضعِ ضَرورةٍ.

وإنّما حُكي مثلُ هذا في المنظوم. وقد رُوي أنّ امرأ القيس قال: ٤،٢،١٩

فاليومَ أَشْرَبْ غيرَ مستحقِبٍ إثمًا من الله ولا واغلِ

وبعضهم يروي: فاليومَ أُسْقى، وإذا رُوي: فاليومَ أَشْرَبْ، فيجوز أن يكون ثَمّ إشارةٌ إلى الضَّمّ لا حُكْمَ لها في الوزن، فقد زعم سيبويه أنهم يفعلون ذلك في قول الراجز:

متى أنامُ لا يؤرِّقْني الكَرَي ليلاً ولا أسمعُ أصواتَ المَطي

وهذا يدُلّ على أنهم لم يكونوا يحفِلون بطرح الإعراب، فأمّا قول الراجز:

إذا اعْوَجَجْنَ قلتُ صاحِبْ قَوِّمِ في الدَّوِّ أمثالَ السَّفينِ العُوَّمِ

فإنّه من عجيب ما جاء، وقد بَلِهَ قائلُه عن أن يقول: صاحِ قَوِّمِ، فلا يكون بالوزن إخلالٌ، ولكنّ الذين يحتجُّون له يزعمون أنه أراد أن يعادل بين الجزئين، لأنّ قوله: حِبْ قَوِّمِ، في وزن قوله: نِلْ عُوَّمِ، وهذا يُشبه ما ادَّعوْه في قول الهُذَلي:

أَبِيتُ على مَعارِيَ فاخراتٍ بهنَّ ملوَّبٌ كَدِمِ العِباطِ

يزعُمُ النّحويُّون أنّ قوله: معاريَ، بفتح الياء، حمله عليه كَراهةُ الزِّحاف، وهذا قولٌ ينتقض، لأنّ في هذه الطائيّة أبياتًا كثيرةً لا تخلو من زحافٍ، وكلُّ قصيدةٍ للعرب غيرِها على هذا القريّ. وكذلك قوله:

عرفتُ بأَجْدُثٍ فنِعافِ عِرْقٍ عَلاماتٍ كتحبيرِ النِّماطِ

فيه زِحافان من هذا الجنس، ثمّ يجيء في كلّ الأبيات إلا أن يندُر شيءٌ. وقد رُوي عن الأصمعيّ أنه لم يسمع العربَ تنشد إلا: أَبيتُ على مَعارٍ، بالتنوين، وهذا لا ينقُض مذهبَ أصحاب القياس، إذا كانوا يروون عن أهل الفصاحة خِلافَه.

٥،٢،١٩ ويَهْكِر، أزلفه الله مع الأبرار المتَّقين، لما سمع من تلك الحيّة، فتقول هي: ألا تُقيم عندنا بُرهةً من الدهر؟ فإنّي إذا شئتُ انتفضتُ من إهابي فصرتُ مثل أحسنِ غَواني الجنّة، لو ترشَّفتَ رُضابي لَعلمتَ أنه أفضلُ من الدِّرياقة التي ذكرها ابن مُقْبِل في قوله:

سقتْني بصهباءَ دِرْياقةٍ متى ما تُلِنْ عِظامي تَلِنْ

ولو تنفَّستُ في وجهك لأعلمتُك أنّ صاحبة عَنْتَرة تَفِلةٌ صَدوفٌ، والصَّدوف: الكريهة رائحةِ الفم، وإنّما تعني قوله:

وكأنّ فارةَ تاجرٍ بقسيمةٍ سبقتْ عوارضَها إليكَ من الفَمِ

ولو أدنيتَ وِسادَك إلى وِسادي، لفضّلتَني على التي يقول فيها الأوّل:

باتت رَقودًا وسار الرَّكْبُ مُدَّلِجًا وما الأوانسُ في فِكْرٍ لِسارينا
كأنّ رِيقتَها مِسْكٌ على ضَرَبٍ شِيبتْ بأصهبَ من بيْعِ الشآمينا
يا ربِّ لا تَسْلُبَنّي حُبَّها أبدًا ويرحَمُ اللهُ عبدًا قال آمينا

٦،٢،١٩ فيُذْعَر منها، جعل الله أمْنه متَّصِلاً، والطالبَ شأْوَه من تقصيرٍ منتصِلاً، ويذهب مُهَرْوِلاً في الجنّة ويقول في نفسه: كيف يُرْكَن إلى حيّةٍ شَرَفُها السُّمُّ، ولها بالفَتْكة هَمّ؟ فتُناديه: هلُمَّ إن شئتَ اللَّذّة، فإنّي لأفضلُ من حَيّةَ ابنةِ مالكٍ التي ذكرها العَبْسيُّ في قوله:

ما ولدتْني حَيّةُ ابنةُ مالكٍ سِفاحًا ولا قَوْلي أحاديثُ كاذبِ

وأحمَدُ عِشارًا من حيّةَ ابنةِ أزهرَ التي يقول فيها القائل:

إذا ما شربْنا ماءَ مُـزْنٍ بقـهـوةٍ ذكرنا عـليها حـيّةَ ابنـةَ أزهرا

ولو أقمتَ عندنا إلى أن تَخْبُر ودَّنا وإنصافنا، لَندِمتَ إن كنتَ في الدار العاجلة قتلتَ حيّةً أو عُثمانًا.

فيقول وهو يسمع خطابها الرائق: لقد ضيّق اللهُ عليَّ مَراشفَ الحُور الحِسان، إن رضِيتُ بترشُّف هذه الحيّة.

١،٢٠ فإذا ضرب في غِيطان الجنة، لقيتْه الجارية التي خرجتْ من تلك الثَّمَرة فتقول: إنّي لأنتظرُك منذ حينٍ فما الذي شَجَنَك عن المَزار؟ ما طالت الإقامةُ معك فأُمِلَّ بالمحاوَرة مَسْمَعَك، قد كان يحُقُّ لي أن أُوثَر لديك على حَسَب ما تنفرد به العَروسُ يخُصُّها الرجل بشيءٍ دون الأزواج.

فيقول: كانت في نفسي مَآرِبُ من مخاطَبة أهلِ النار، فلمّا قضيتُ من ذلك وَطَرًا عُدتُ إليكِ، فاتْبعيني بين كُثُب العنبر وأنقاء المِسْك.

فيتخلّل بها أهاضيبَ الفردوس ورِمال الجنان؛ فتقول: أيّها العبد المرحوم، أظنُّك تحتذي بي فعال الكِنديّ في قوله:

فـقُمْتُ بها أمشي تجُرُّ وراءنا ... على إثْرنا أذيالَ مِرطٍ مرحّلِ
فـلمّا أجَزْنا ساحةَ الحيّ وانتحى ... بنا بَطْنُ خَبْتٍ ذي قِفافٍ عَقَنْقَلِ
هصَرتُ بفَوْدَيْ رأسِها فتمايلتْ ... عليَّ هضيمَ الكَشْحِ رَيّا المخلخَلِ

فيقول: العَجَب لقدرة الله! لقد أصبتِ ما خطر في السُّوَيداء، فمن أين لكِ علمٌ بالكنديّ وإنّما نشأتِ في ثَمَرةٍ تُبْعدكِ من جنٍّ وأنيس؟ فتقول: إنّ الله على كلّ شيءٍ قديرٌ.

ويعرِض له حديثُ امرئ القيس في دارةِ جُلجُلٍ، فينشئ الله، جلّتْ عَظَمته، حوراً عيناً يتماقلن في نهرٍ من أنهار الجنّة، وفيهنّ مَن تفضُلهنّ كصاحبة امرئ القيس، فيترامين بالثَّرمَد، وإنّما هو كأَجَلّ طِيب الجنّة، ويَعقِر لهنّ الراحلةَ، فيأكل ويأكلن من بضيعها ما ليس تقع الصِّفةُ عليه من إمتاع ولَذاذة.

٢،٢٠ ويمُرُّ بأبيات ليس لها سُموقُ أبيات الجنّة، فيسأل عنها فيقال: هذه جنّة الرُّجَّز، يكون فيها أغلبُ بني عِجْلٍ والعَجّاجُ ورؤبةُ وأبو النَّجْم وحُمَيْدٌ الأرقط وعُذافِر بن أوْسٍ وأبو نُخَيْلةَ وكلُّ مَن غُفر له من [الرُّجّاز، فيقول:] تبارك العزيز الوهّاب! لقد صدق الحديث المرويُّ إنّ الله يُحبُّ مَعاليَ الأمور ويكرَه سَفْسافَها؛ وإنّ الرَّجَز لمن سفساف القريض، قصّرتم أيّها النَّفَر فقُصّر بكم.

ويعرض له رؤبةُ فيقول: يا أبا المجّاف، ما أكلفك بقوافٍ ليست بالمُجْبة! تصنَعُ رجزًا على الغين ورجزًا على الطاء وعلى الظاء وعلى غير ذلك من الحروف النافرة، ولم تكن صاحبَ مَثَلٍ مذكورٍ، ولا لفظٍ يُستحسن عَذْبٍ.

فيغضَب رؤبةُ ويقول: أَلي تقول هذا وعِنّي أخذ الخليلُ، وكذلك أبو عمرو بن العَلاء، وقد غبرتَ في الدار السالفة تفتخر باللَّفظة تقع إليك مما نَقَلَه أولئك عنّي وعن أشباهي؟

فإذا رأى، لا زال خصمُه مغلَّبًا، ما في رؤبةَ من الانتخاء[1] قال: لو سُبك رجزُك ورجزُ أبيك، لم تخرُج منه قصيدةٌ مستحسَنةٌ، ولقد بلغني أنّ أبا مُسْلِم كلَّمك بكلامٍ فيه ابن ثأداءَ، فلم تعرفْها حتى سألتَ عنها بالحيّ، ولقد كنت تأخذ جوائزَ الملوك بغير استحقاق، وإنّ غيرَك أَوْلى بالأعْطِيَة والصِّلات.

فيقول رؤبة: أليس رئيسُكم في القديم، والذي ضهلتْ إليه المَقاييسُ، كان يستشهد بقوْلي ويجعلني له كالإمام؟ فيقول، وهو بالقول مُنْطَقٌ: لا فَخْرَ لك أن استُشهِد بكلامك، فقد وجدْناهم يستشهدون بكلام أَمَةٍ وَكْعاءَ تحْمِل القُطُلَ إلى النار المُوقَدة في السَّبْرة التي نفض عليها الشَّبَمُ رِيشَه، وهدم لها الشيخُ عريشَه، تأخُذ خَشَبةً للوَقود، كيما يَصِلُ إلى الرُّقود، وأجَلُّ أيّامها أن تجْنِيَ عَساقلَ ومغرودًا، وتتلو نَعَمًا مطرودًا، وإنّ بَعْلها في المِهْنة لَسَيّئُ العذير، غَلُظ عن الفَطَن والتحذير؛ وكم روى النُّحاةُ عن طِفْل، ما له في الأدب من كِفْل، وعن امرأة، لم تُعَدّ يوماً في الدَّرَأَة.

فيقول رؤبة: أجئْتَ لخصامنا في هذا المنزل؟ فامْضِ لطِيّتك، فقد أخذتَ بكلامنا ما شاء الله. فيقول، أَسْكت اللهُ مُجادِلَه: أقْسمتُ ما يصلُح كلامكم للثَّناء، ولا يفضُل عن الهِناء، تصُكُّون مَسامعَ الممتدَح بالجَنَدَل، وإنّما يُطْرَب إلى المَنْدَل، ومتى خرجتم عن صفةِ جَمَلٍ، تَرْثون له من طُول العَمل، إلى صفةِ فَرَس سابح، أو كلبٍ للقَنَص نابح، فإنّكم غيرُ الراشدين. فيقول رؤبة: إنّ الله سبحانه قال: ﴿يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْسًا لا لَغْوٌ فِيها ولا تَأْثِيمٌ﴾، وإنّ كلامك لمن اللَّغْو، ما أنت إلى النَصَفة بذي صَغْو.

---

١ في النسخ: (الانتحاء) وما أُثبت في ب وسائر الطبعات أنسب للسياق.

فإذا طالت المخاطَبة بينه وبين رؤبة، سمع العَجّاجُ فجاء يسأل المحاجَزة.

٣،٢٠ ويذكر، أذكره الله بالصالحات، ما كان يلحَق أخا النِدام، من فُتور في الجَسَد من المُدام، فيختار أن يعرض له ذلك من غير أن يُنزَف له لُبٌّ، ولا يتغيّر عليه خُبٌّ، فإذا هو يَخال في العِظام الناعمة دبيبَ نَمل، أَسرى في المُقْمِرة على رَمْل، فيترنَّم بقول إياس بن الأَرَتّ:

أعاذلَ لو شرِبتِ الخمرَ حتى ... يظَلَّ لكلِّ أُنْمُلةٍ دبيبُ
إذًا لَعذرْتِني وعلمتِ أنّي ... لِما أتلفتُ من مالي مُصيبُ

ويتّكئ على مَفْرَش من السُّنْدُس، ويأمر الحُورَ العِينَ أن يحملن ذلك المفرش فيضعنه على سرير من سُرُر أهل الجنّة، وإنّما هو زَبَرْجَدٌ أو عَسْجَدٌ، ويُكوّن البارئُ فيه حَلَقًا من الذَّهب تُطيف به من كلّ الأشراء حتى يأخذ كلُّ واحدٍ من الغِلْمان، وكلُّ واحدةٍ من الجواري المشبَّهة بالجُمان، واحدةً من تلك الحَلَق، فيُجمَّل على تلك الحال إلى محَلِّه المُشيَّد بدار الخلود، فكُلّما مرَّ بشجرةٍ نَضَختْه أغصانُها بماء الوَرْد قد خُلط بماء الكافور، وبمسكٍ ما جُني من دِماء الفُور، بل هو بتقدير الله الكريم.

وتُناديه الثَّمَراتُ من كلّ أوْبٍ وهو مستلقٍ على الظَّهر: هل لك يا أبا الحسن، هل لك؟ فإذا أراد عُنقودًا من العِنَب أو غيره انقضب من الشجرة بمشيئة الله، وحملته القدرة إلى فيه، وأهل الجنّة يَلقَوْنه بأصناف التحيّة ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا يزال كذلك أبدًا سَرْمَدًا، ناعمًا في الوقت المتطاول منعَّمًا، لا تجد الغِيَرُ فيه مَرْتَعًا.

***

وقد أَطَلْتُ في هذا الفصل، ونعود الآن إلى الإجابة عن الرسالة.

رسالة الغفران

المجلّد الثاني

١،٢١ فهمتُ قوله: جعلني الله فِداءه، لا يذهبُ به إلى النِّفاق، وبُعد ابن آدمَ من الوِفاق، وهذه غريزةٌ خُصَّ بها الشيخُ دون غيره، وتَعايش العالَمُ بخِداع، وأضحَوا من الكذب في إبداع. لو قالت شِيرين الملكةُ لكِسْرى: جعلني الله فداءك في إقامة أو سُرى لخالبتّه في ذلك ونافقتّه، وإن راقته بالعَطل ووافقتّه، على أنه أخذها من حالٍ دنيّة، فجعلها في النُّعْمى السَّنيّة، وعتبه في ذلك الأحبّاءُ، وجرتْ لهم في ذلك قِصصٌ وأنباء، وقيل له فيما ذُكر، والله العالم بمن جُدِب أو شُكر: كيف تطيب نفسُ الملك لهذه المُومِس، وهي الوالجة في المغمَّس؟ فضرب لهم المَثَل بالقَدَح، وإذا حَظِيَت الغانيةُ فليست بالمفتقرة إلى الصَّدَح، جعل في الإناء الشَّعر والدم، وقال للحاضر ولا ندم: أتجيب نفسُك لشُرب ما فيه؟ وإنما يُجنَح إلى تَلافيه. فقال: إنها لا تطيب، وهي بالأنجاس قطيب.

فأراق ذلك الشيءَ وغَسَله، وهذّب وِعاءه ثمّ عَسَله، وجعل فيه من بعدُ مُداما، وعرضها على النَّدامى، فكلّهم بهَش أن يشرب، ومن يَعاف العاتقةَ والغَرَب؟ فقال: هذا مَثَل شيرين، فلا تكونوا في السَّفَه مُسيرين.

٢،٢١ كم من شِبل نافَق أَسَدا، وأضمر له غِلاً وحسَدا! ولَبُوءةٍ تُداجي هِرْماسا، تنبِذ إليه المِقةَ وتُبغض له لِماسا! وضيغمٍ نقم على فُرْهود، وودَّ لو دفنه بالوهود! والفرهود ولدُ الأسد بلُغة أسدِ شَنوءةَ، وهو، آنس الله الإقليمَ بقُربه، أجلُّ من أن يُشرح له مثلُ ذلك، وإنما أفرَقُ من وقوع هذه الرسالة في يد غلامٍ مترعرِع، ليس إلى الفهم بمتسرّع، فتستعجم عليه اللفظة، فيظلُّ معها في مثل القيْد، لا يقدر على المَجَل ولا الرُّويد.

وكم خالبت الذِّئابَ السِّلَقُ، وفي الضمائر تُكَنُّ الفِلَقُ، أي الدواهي، ومنه قول خَلَفٍ:

موتُ الإمـام فِـلْقةٌ من الفِـلَقْ

والسِّلَق: جمع سِلْقةٍ، وهي أُنثى الذئب.

وملكٍ سانى ملكةً، ثمّ صنعتْ له مَهلكةً! يقول القائل: بأبي أنت، جادَ عملُك وأتقنتَ! ولو قدر لبتَّ الوَدَج، وإنما جامَل وسَدَج.

ولعل بعض العتارف يلفِظ إلى البائضة حَبّة البُرّ، ويأنس بها في حَرٍّ وقُرّ، وفي فؤاده من الضِّغْن أعاجيبُ، وتكثر وتقِلّ المناجيب، والمناجيب هاهنا تحتمل أمرين: أحدهما من النَّجابة، والآخر من قولهم: مناجيب أي ضِعافٌ، من قول الهُذَليّ:

بعثتُه في سواد اللَّيل يرقُبني إذ آثَرَ النَّومَ والدِّفْءَ المناجيبُ

والمعنى: أنّ المناجيب من النَّجابة تقِلُّ، والمناجيب من الوَهن تكثُر.

ولعلّ ذلك الصّاقع يرقُب لأُمّ الكيْكة حِماما، ولا يرقب لها ذِماما. يقول في النفس المتحدّثة: ليت الذابح بَكّر على المُنْقِضة، فإنها عين المُبْغِضة. أو يقول: لو أني جُعلت في قِدْر، أو بعضِ الوُطُس فلحقتُ بالهِدْر، لتزوَّجتْ هذه من الدِّيَكة شاباً مقتبَلا، يُحسن لها حبّاً قَبَلا.

٣،٢١ وأنا أذاكره بالكلمة العارضة، إذ كان قد بدأ بالإيناس، وترك مَكايد الناس: ألا يعجب من قول العرب: فِداءٍ لك، بالكسر والتنوين كما قال الراجز:

ويْـهًا فـداءٍ لك يا فَـضالَهْ أَجِـرَّه الرُمحَ ولا تُبـالَهْ

ويروى تهالَه. وذكر أحمد بن عُبيد بن ناصِح، وهو المعروف بأبي عَصيدة، أنّ قولهم فداءٍ لك بالكسر، إذا كان لها مُرافِعٌ لم يجُزْ فيها الكسرُ والتنوين. ولا ريب أنه يحكي ذلك عن العلماء الكوفيّين. وعيّنَه في قول النابغة:

مهْلاً فـداء لك الأقوامُ كلُّهُـمُ ومـا أُثَمِّـر من مـالٍ ومن وَلَدِ

فأمّا البصريّون فقد روَوْا في هذا البيت: فداءٍ لك.

٤،٢١ وكيف يقول الخليل المُخْلِص، وهو عن الهِجران متقلِّص: إنّ حنينه حنين والهٍ من النُّوق، وهي الذاهلة إن حُمل عليها بعضُ الوسوق، وإنما تسجَع ثلاثاً أو أربعا، ثمّ يَكون

سُلوُّها مُتْبعا؟ فأمّا الحمامة الهاتفة فقد رزقها البارئُ صِيتاً شائعا، وظلَّ وصفُها بالأسف ذائعا، تنهض إلى التقاط حَبٍّ، وتعود إلى جَوْزَلها ذات أَبّ، فإنْ هي صادفته أكلَ سُوذانق، ليس مَن أبصر أثره بالآنق، غدا به ظُفر شاهِين، وهي البائسة من اللاهين، فما هي إلا مثلُ الحيوان، تملُّ حالَها في أقصر أوان.

وقد زعم زاعمٌ، لا يصدَّق، أنّ الحمائم في هذا العصر يبكين مُقْعَدًا هلك في عهد نوح، أبرح له البارح أم رُمي بالسُّنوح، وإنّ دوامها على ذلك لدليلُ الوفاء، وما العِوَض عن خليل الصّفاء؟ لا عِوَض ولا نائب إلا فيه، وكيف يُعْتَب الزَّمن على تجافيه؟ وإنما حُشي بشَرٍّ وغدْر، وكُتِب له العزُّ في القَدْر.

وأمّا الظَّبْية فإنها لا توصَف بحنين، ولكن تبتقل بلبٍّ مَنين. ومن لها باليانع من الأَراك، ولا تقول لفارس الخيل الشازبة: دَراكِ! ومن كان وجْدُه يعدِل عن الخَلَد، فإنه إذا جنب إلى الولد، فسوف تَذَره المُدَد ناسيا، كأنه ما جزع آسيا.

وما أقلَّ صِدقَ الأُلّاف، ولو بِيعوا من الذَّهب لا الوَرِق بآلاف:

وليس خليلي بالمَلول ولا الذي إذا غِبتُ عنه باعني بخليلِ

وأحسب كُثيِّرًا تفوَّه بهذه المقالة على غِرَّة، وما عرف مكانَ الشِّرّة، فكيف يُقْدَر على إخاء المَلَك، أم كيف يُرتفع إلى الفَلَك؟

وأمّا ما ذكره من حالى، غُطِّيَ شخصه أن يُلحَظ بنواظر الغِيَر، ومُتِّع من مالٍ بِحِيَر، أي ١،٢٢
كثير، قال الراجز:

يا ربَّنا مَن سرَّه أن يَكبرا فسُقْ له يا ربِّ مالاً حِيَرا

فطالما أُعطِيَ الوثنُ سعودا، فصار حضوره للجَهَلة موعودا! فإن سُررتُ بالباطل، فشُهرتُ باتّخاذ النياطل، وإنّ الصابر مأجورٌ محمود، ولا ريبَ أن سيُقدَر لمن ظعن شِربٌ مثمود. وأحلف كيَمينِ امرئ القيس لمّا رغب في مُقامه عند الموموقة، ولم يفْرَق من الرامقة ولا المرموقة، فقال:

فقلتُ: يمينَ الله، أبرحُ قاعدًا ولو قطعوا رأسي لديكِ وأوصالي

والأخرى التي أَقسم بها زُهيرٌ، إذ عصفَت بالحرب القائمة هَيْر، أعني قوله:

فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حوله رجالٌ بَنَوْه من قُريشٍ وجُرْهُمِ
يمينًا لَنِعْمَ السَّيِّدانِ وُجدتما على كلِّ حالٍ من سَحيلٍ ومُبْرَمِ

وبالحَذَّاء التي نطق بها ساعدةُ، والمُهجة إلى مَلِكها صاعدة، فقال:

حَلِف امرئٍ بِرِّ سرفتِ يمينَه ولَكلُّ مَن ساس الأمورَ مجرَّبُ

وأُولي مع ذلك أَلِيّةَ الفرزدق لمّا رهِب وقوعَ انتقام، فاغتنم ما بين الكعبة والمَقام، ووصف ما صنع فقال:

ألم تـرني عاهـدتُ ربّي وإنني لَبينَ رِتاجٍ قائمًا ومَقـامِ
على حلفةٍ لا أشتمُ الدّهرَ مُسْلِمًا ولا خارجًا من فِيَّ زُورُ كلامِ

إنّي لَمكذوب عليه كما كذبت العربُ على الغُول، وإنها عمّا يؤثَر لفي شغول، وكما تقوّلت الأمثالُ السائرة على الضَّبّ، وله بالكَلَدة إرباب الصَّبّ. وكما تكلّمتْ على لسان الضَّبُع وهي خرّساء، ما أطلق لسانَها الوَضَحُ ولا المساء.

يُظَنُّ أنني من أهل العلم، وما أنا له بالصاحب ولا الخِلّم. وتلك لَعَمري بليّةٌ، تُفتقد معها الجليّة. والعلوم تفتقر إلى مِراس، ودارسٍ للكتب أخي دِراس. ويقال إنني من أهل الدين، ولو ظهر ما وراء السَّدين، ما اقتنع لي الواصفُ بسببٍ، وودَّ أن يسقيني جوْزلاً بشَبّ، وكيف يُدّعى للعِلج الوحشيّ، وإنما أبَدَ في الرّوض الحَبَشيّ، أنّ تغريده في السَّحَر أشعار موزونةٌ، تأذَن لنظيرها المخزونة؟[1]؟ وهل يصوَّر لعاقلٍ لبيب، أنَّ الغُراب النّاعب صدح بتشبيب، وأنّ العصافير الطائرة بأجنحة، كعصافير المُنذِر الكائنة للتَّنجة؟ وكيف يظنُّ الظانُّ أن للطائر أساجيعَ حمامة، وإنه لأخرسُ مع الدَّمامة؟ فبُعد مَن زعم أنّ الحَجَر متكلّم، وأنه عند الضَّرب متألّم. ومَن التمس من اللُّغام كُسوة، فإنه لا يجد إسْوة. ١،٢،٢٢

ولو أني لا أشعُر بما يقال فيَّ، لأُرِحتُ من إنكاري وتلافيّ، وكنت كالوَثَن: سَواءٌ عليه إن وُقِّر من الوَقار، وإن أوقِر من الأوقار، وكالأرض السَّجنة ما تحفِل أن قيل هي مَريعة، أو قيل لها بئْسَت الزَّريعة؛ وكالفرير المعتبَط: ما يأبه لقول الآكل: إنه لساحٌ، ولا إذا قُصب: إنه بالذّكة شاحٌ. والله المستنصَر على الإلاقيّ، لم تُوزَن الراكدة بالأواقيّ، والإلاقيُّ منسوبٌ إلى الإلاق وهو البرق الكاذب. ٢،٢،٢٢

وكيف أغتبط إذا تُخُرّص عليَّ، وعُزيتِ المعرفةُ إليَّ؟ ولست آمناً في العاقبة، فضيحةً غير مصاقِبة، ومَثَلي، إن جذِلتُ بذلك، مَثَلُ من اتُّهم بمالٍ، فاعتقد أنّ ما ذاع من الخبر يأتيه بِمال[2]، فسرّه قول الجَهَلة: إنه لَحلف اليسار، والذهب في يمينه واليسار. فطلب منه بعضُ السلاطين أن يحمل إليه جملةً وافرة، فصادف أُكذوبةً زافرة، وضربه كي يُقِرّ، وقُتل في العقوبة ولم يُعْطَ البِرّ.

---

١ في كل الطبعات: (المخزونة)، ولعل الصواب (المخزونة) بالخاء المعجمة. ٢ في ب: [بجَمال]، ولعل الصواب ما أثبتنا، بحاء غير معجمة كما جاء في الأصل.

وقد شهد الله أني أجذَل بمن عابني، لأنه صدق فيما رابني، وأهتمُّ لثناءٍ مكذوب، يتركني كالطريدة العَذوب، ولو نُطحتُ بقَرْنَيِ الجَرادة، لامتعتُ من كلِّ إرادة، فأمّا روْق الوعل، فأعْوَزه عندي نطيحٌ، لأني بروْق الظَبْيِ أَطيح. ففغر الله لمن ظنَّ حسناً بالمُسيء، وجعل حجَّه في النَّسيء. ولولا كراهتي حضوراً بين النّاس، وإيثاري أن أموت مِيتةَ عَلْهَبٍ في كِناس، فاجتمع معي أولئك الخائلون، لصحَّ أنهم عن الرُّشد حائلون، وأنار لهم الحقُّ الطامس، وقبض على القَتاد[1] اللامسُ. ٣،٢،٢٢

١ في كل الطبعات ما عدا ن: (القتاد)، ولعل الصواب ما أثبته نيكلسون: (القياد).

١،٢٣ وأمّا وروده حلبَ، حرسها الله، فلو كانت تعقِل لفرِحتْ به فرحَ الشَّمْطاء المنهبلة، ليست بالآبلة ولا المؤبّلة، شحط سليلُها الواحد، وما هو لحقّها جاحد. وقدِم بعد أعوامٍ، فنقعتْ به فرْطَ أُوامٍ، وكانت معه كالخنساء ذات البُرْثُن، رتعت به في الأصيل، وليس هو لحتفٍ بوصيل، فلمّا رأت المكان آمناً، ولم تخش للسِّراح الخُمُع كامناً، انبسطت في المَراد الواسع وخلّفته، يحاول أُنُفاً تكلفته، لتُجِرَّ لذلك الولد ما في الأخلاف، ولا تلافي بُعيْد التّلاف، فعادت المسكينة فلم تُصِبْه، فقالت للصَّمَد: لا تُنْصِبه، إن كان وقع في مخالب الذّيب، ومُني ببعض التعذيب، فأنت القادر على تعويض الأطفال، والعالم بعُقبى الطِّيَرة والفال. فبينا هي تَرَدَّدُ بين العَلَه والوَلَه، بغم لها الفقيدُ من حِقفٍ اتخذ فيه مَرْبِضا، ولم يرَ من الرُّماة مُنْبِضا، هكع لما شبِع. فما ساءه القَدَر ولا سُبع. فغمر فؤادَها ابتهاجٌ، من بعدِ ما وضح لها المنهاج.

ولو رجع القارظ إلى عَنَزَةَ، ما بان فيها الطَّرب للرّجْعة، وما قُدر من زوال الفجعة، إلا دون ما أنا مَضْمِرٌ مُجِنّ، من المَسَرّة بدنوّ الدّيار، وإلقائه عصا التّسيار، فالحمد لله الذي أعاد البارق إلى الغَمام الوسْميّ، وأتى المُومِض بحلى السُّميّ. وإنّ حلب المنصورة لتختلُّ إلى من يعرف قليلاً من علم، في أيّام المحاربة والسِّلم، فما باله شيّد الله الآداب بأن يزيده في المُدّة، فإنما هو لغرابها كالعُدَّة.

٢،٢٣ وإني لأعجبُ من تمالؤ جماعة، على أمرٍ ليس بالحَسَن ولا الطاعة، ولا ثَبَتَ له يقينٌ، فيشوفه الصَّنَع أو يقين، قد كِدتُ ألحق برهْط العدم، من غير الأسف ولا النَّدم، ولكنّما أرهبُ قدومي على الجبّار، ولم أُصْلِح نَخْلي بإبار. وقيل لبعض الحكماء: إنّ فلاناً تلطّف حتى قتل نفسه، ولم يُطقْ في الدار الخالية عَفْسه، وكِره أن يمارس بدائع الشُّرور، وأحبَّ النُّقلة إلى منازل السُّرور، فقال الحكيم قولاً معناه: أخطأ ذلك الشابُّ المقتبل، وله ولأمّه يُحَقّ الهَبَل، هلاّ صبر على صروف الزمان، حتى يمنو له القَدَرَ مانٍ؟ فإنه لا يشعُر علامَ يقدَم، ولكلّ بيتٍ هَدَم! ولولا حكمة الله جلّت قُدرته، وأنه حجز الرَّجلَ

عن الموت، بالخوف من العَلز والفَوت، لَرغب كلُّ من احتدم غضَبُه، وكَلَّ عن ضريبةٍ مِقْضَبُه، أن تُتْرَع له من الموت كؤوس، والله العالم بما يؤوس.

١،٣،٢٣ وأمَّا أبو القَطِران الأسديُّ، وأيُّ البَشَر من الخطوب مَفْديّ، فصاحب غزلٍ وتبطُّل، وتوفُّزٍ على الخُرَّد وتعطُّل، وما أشكُّ أنّ الشيخ، أقرّ الله عينَ الأدب بالزيادة في عمره، أشدُّ شوقًا إلى أحمد بن يحيى مع صَمَمه، وأبي الحسن الأثرم مع ثَرَمه، من المرّار بن سعيد عند رجاء العِدَة وخوف الوعيد، وهو ذلك المتهيّم إلى وحشيّةَ، وإن فقد لِبينها الحشيّة، واذّكر ثغرًا كالإغريض، وخدًّا يعدل بلون الإحريض. وإنما ودُّ الغانية خِلابٌ وخِداعٌ، وللكمد في هواه ابتداعٌ. ولو هلكت تلك المرأة والمرّار يعيش، لَعَدّ أنه بتَلَفها نعيش، ولا سيمَّا بعد السّنّ العالية، وقوّة النّفس الآلية. ولعلّ أبا القطران لو مُتّع بهذه المذكورة ما يكون قدْره مائة حِقبة، على غير الجزع والرّقبة، لجاز أن يغرَض من الوِصال، إذا علم أنّ حبْله في اتّصال. ولو نزل بها شيءٌ تتغيَّر به عن العهد، لتمنَّى أن تُقذَف إلى غير المهد، لأنّ ابن آدم بخيلٌ مَلول، تسري به إلى المنيَّة أَمونٌ ذَلول. ولو أصابها العَوَر، بعد أن سكن عينَها الحَوَر، لظنَّ أن ذلك نبأٌ لا يُغفَر ولا يكفَّر، فكيف يُعتَب على الفاهين، ويُنتقم من القوم السّاهين؟ والله سبحانه قد رفع ذلك عن ساهٍ ما علِم، ونائمٍ إذا أحسّ بالمؤلم ألِم.

٢،٣،٢٣ ومن أين لذلك الشّخص الأسَديّ، ما وهبه الله للشيخ من وفاءٍ لو علم به السّمَوْءَل لاعترف أنه من الغادرين، أو الحارثُ بن ظالم لَشهد أنه من السّادرين! من قولهم فعل كذا وكذا سادرًا، أي لا يهتمُّ لشيء، وإنما عاشَر أبو القطران أعبُدًا في الإبل وآميا، ونظر إلى عقِبه داميا، ممَّا يطأ على هَراسٍ، ومن له في المكلأة بالفَراس؟ وهو التَّمر الأسود، ومن أبيات المعاني:

إذا أكلوا الفَراس رأيتَ شامًا ... على الأنباث منهمْ والغيوبِ
فما تنفكُّ تسمع قاصفاتٍ ... كصوت الرّعد في العام الخصيبِ

ولعلّه لو صادف غانيةً تزيد على وحشيّةَ بشِقّ الأَبلُمة، لسَلاها غير المؤلة، وإنّما ديدنُ ذلك الرّجل ونُظرائه صفةُ ناقةٍ أو رَبْع، وما شجرُه المغترَس بالنَّبْع. إذا جنى الكَمْأة بَجَح، وخال أنه قد نجح! ولو حضر أُخْوِنةً حضرها الشّيخ لعاد كما قال القائل:

فلو كنتَ عُذْريَّ العلاقة لم تبِتْ بطيناً وأنساك الهوى كثرةَ الأكلِ

٣،٣،٢٣ وهو، قدّر الله له ما أحبَّ، قد جالس ملوك مصر التي قال فيها فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وهٰذِهِ الأنهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُون؟﴾ وقد أقام بالعراق زمناً طويلا، وأدام على الأدب تعويلا، وبالعراق مملكةُ فارسَ، وهم أهل الشَّرف والظّرف، يوفي صَرْفُهم في الأطعِمة على كلِّ صَرْف، ولا ريب أنه قد جالس بقاياهم، واختبر في المعاشَرة سجاياهم، وعاطوْه الأكْؤسَ أُلاتِ التصاوير، على عاد المَرازِبة الأساوير، كما قال الحَكَميُّ:

تدور علينا الكأسُ في عَسْجديّةٍ حبَتْها بأنواع التصاوير فارسُ
قَرارتها كِسْرى وفي جَنَباتها مَهًا تـذَّريها بالقِسِيّ الفوارسُ

وأبو القَطِران كان يستقي النُّطفة بخُلبة، ويجعلها في الغُمَر أو العُلبة، وإذا طعِم فَمَن له باللَّهيدة، وإن أخصب شرع في النَّهيدة.

٤،٢٣ وما أشكُّ أنه، أمتع اللهُ الآداب ببقائه، لو رُزق محاوَرة أبي الأسْوَد على عَرَجه، ونُخله المتنادَر وجَرَجه، لكانت مِقَتة له أبلغ من مقة مَهْدِيّ ليْلاه، ولا أقول رؤبةَ أُبيْلاه. ولو أدرك محاضرة أبي الخطّاب لكان بدَوَش عينيه أشدَّ شَغَفاً من الحادرة بسُمَيّةَ، ومن غيْلانَ بمَيّةَ، لأنه قال:

وعينانِ قال اللهُ كُونا فكانتا فعولانِ بالألباب ما تفعل الخمرُ

وهو بجَلَع أبي الحسن سعيد بن مَسْعَدة أعجبُ من كُثيِّر بشَنَب عَزّةَ، والعُذريّ بلَمَى بُثينةَ. ولوكان أبو عُبيدة أذفر الفم،لما أمِنتُ مع كَلَفه بالأخبار، أن يقبِّله شقَّ البَلَسة بلا استكبار، وفي الحديث عن عائشة، رحمة الله عليها: كان رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم،يُقبّلني شَقَّ التينة. وروى بعضهم: شقَّ التمرة. وذلك أن يأخذ الشّفة العُليا بيده والسُّفلى بيده الأخرى ويُقبِّل ما بين الشفتين.

٥،٢٣ وأما مَن فقده من الأصدقاء لمّا دخل حلب، حرسها الله، فتلك عادة الزَّمن، ليس على السالم بمؤتمَن، يبدّل من الأبيات المسكونة قبورا، ولا يُلحِق بعثرةٍ جُبورا. وإنَّ رَمَس الهالك لبيتُ الحقّ، وإن طرق بالمِلّ الأشقّ. على أنه يُغني الثاوِيَ بعد عدمٍ، ويكفيه المئونة مع القِدَم. وإنَّ الجسد لَمِن شرٍّ خبيءٍ، يبعُد من سبيٍّ وسبيء. قال الضّبيّ:

ولقد علمتُ بأن قصْري حُفرةٌ ما بعدها خوفٌ عليَّ ولا عَدَمْ
فأزور بيتَ الحقِّ زوْرةَ ماكث فعَلامَ أحفِل ما تقوّض وانهدمْ؟

وما زالت العرب تسمّي القبر بيتا، وإن كان المنتقل إليه ميتا، قال الرّاجز:

اليوم يُبنى لدُويدٍ بيتُهُ يا رُبَّ بيتٍ حسبٍ بنيْتُهُ
ومِعصَمٍ ذي بُرَةٍ لويتُهُ لوكان للدّهر بِلًى أبليْتُهُ
أوكان قِرني واحداً كفيْتُهُ

٦،٢٣ فأمّا الفصل الذي ذكر فيه الخليل، فقد سقط منه اسم الذي غلا فيَّ، وقرن بالنُّجوم الصَّلافيَّ، ومن كان، فغفر اللهُ جرائمه، وحفِظ له في الأبد كرائمه، فقد أخطأ على نفسه فيما زعم وعليَّ، ونسب ما لا أستوجب إليَّ. وكم أعتذر وأتنصَّل، من ذنبٍ ليس يتحصَّل! وإنّي لأكرهُ بشهادة الله تلك الدَّعْوى المُبْطِلة، كَراهةَ المسيح مَن جعله ربَّ العِزة، فما ترك للفِتَن من مَهَرْبَة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ

ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي ولا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلّامُ ٱلْغُيُوبِ﴾ .

١،١،٢٤ وأمّا أبو الفرج الزَّهْرَجيُّ فمعرفته بالشّيخ تُقْسِم أنه للأدب حليفٌ، وللطَّبع الخيِّر أليفٌ. ووددتُ أنّ الرّسالة وصلتْ إليَّ، ولكنّ ما عدل ذلك العديلُ، فبِعد ما تغنَّى هديل، هلاَّ اقتنع بنَفَقةٍ أو ثوْب، وترك الصُّحُف عن نوْب؟ فأَرِب من يديه، ولا اهتدى في اللَّيلة بفَرْقَديْه. لو أنه أحد لصوص العرب الذين رُويتْ لهم الأمثالُ السّائرة، وتحدَّثت بهم المُنْجِدة والغائرة، لما اغتفرتُ ما صنع بما نظم، لأنه أفرط وأعظم، أي أتى عظيمة وبَتَك من القلائد نظيمةً.

٢،١،٢٤ وقد وُفِّق أبو الفرج وولده، وصار كالفُلّة ثَمَدُه، لمّا درس عليه الكتب، وحفظ عنه ما يكون التُّرْتُب، فسلّم العاتكةَ إلى القاريّ، والنافجةَ إلى المرء الداريّ، والرُّمح الأطول إلى ابن الطُّفيل، والأعِنّة إلى أحلاس الخيل.

٢،٢٤ وإن كان الشّيخ مارَس من التَّعب أُمَّ الرُّبيق، فقد جدّد عهدَه الأوَّل بقُويق، وإنه لَنِعم النَّهر، لا يُغرِق السّابح ولا يَبهَر، وبناتُه المخطوبات صغارٌ، يؤخذن منه في الغفلة ولا يَغار. يَعولهنَّ، والقدر يَعولهنَّ، سترْن الأنفُسَ فما تبرَّجن، ولكنْ بالرَّغم خرجن. خدورهنَّ من ماء، زارتهنَّ الملموءةُ بالإلماء، والملموءة الشَّبكة، يقال: ألمأ على الشيء إذا أخذه كلَّه. ما يشعُر قويقٌ المسكين، أعَرَبٌ سَبَتْ من ولد أم رومٌ، ولا يحفل بما تروم. ولقد ذكره البُحْتُريّ، ونعته الصَّنَوْبَريّ، وإخالُ أنّ الشيخ أفسدتْه عليه دِجلةُ وصَراتها، وأعانها على ذلك فُراتها.

١،٣،٢٤ وأمَّا حلب، حماها اللهُ، فإنّها الأمُّ البَرَة، تُعقَد بها المَسَرّة، وما أحسبُها، إن شاء الله، تُظاهر بذميم العقوق، وتغفل المفترض من الحقوق. ووحشيّةُ يُحتمل أن يكون، آنس اللهُ الآدابَ ببقائه، جعلها نائبةً عمّن فقده من الإخوان، الذين عُدم نظيرُهم في الأوان. وكذلك تجري أمثال العرب: يكْنون فيها بالاسم عن جميع الأسماء، مثال ذلك أن يقول القائل:

فلا تشلَلْ يدٌ فتكتْ بعمرٍو فإنك لن تُذَلَّ ولن تُضاما

يجوز أن يرى الرجل رجلاً قد فتك بمن اسمه حَسّانُ أو عُطارِدُ أو غير ذلك، فيتمثّل بهذا البيت، فيكون عمرو فيه واقعاً على جميع من يُتمثَّل له به.

وكذلك قول الراجز: ٢،٣،٢٤

أَوْرِدَها سعدٌ وسعدٌ مشتمِلْ

صار ذلك مثلاً لكلِّ من عمل عملاً لم يُحْكمه، فيجوز أن يُقال لمن اسمه خالدٌ أو بَكرٌ أو ما شاء الله من الأسماء. ويضَعون في هذا الباب المؤنَّث موضع المذكَّر، والمذكّر موضع المؤنَّث، فيقولون للرجل: أَطِرِّي فإنّكِ ناعلةٌ، والصيفَ ضيّعْتِ اللّبَن، ومُحْسِنة فَهِيلي، وابتدئيهنَّ بعَفالِ سُبيتِ. وإذا أرادوا أن يخبروا بأنّ المرأة كانت تفعل الخير ثمّ هلكتْ فانقطع ما كانت تفعله، جاز أن يقولوا: ذهب الخيرُ مع عمرو ابن حُمَمَة. وجائزٌ أن يقولوا لمن يحذِّرونه من قُرب النّساء: لا تَبِتْ من بَكريٍّ قريباً؛ والبكريُّ أخوك فلا تأمَنْه. ومثلُ هذا كثير.

وأمّا شكواه إليّ، فإنّني وإيّاه كما قيل في المَثَل: الثكلى تُعين الثكلى، وعلى ذلك حمل ١،١،٢٥
الأصمعيُّ قول أبي دُواد:

ويُصيخ أحيانًا كما اس ... تمع المُضلُّ دُعاءَ ناشدْ

كِلانا بحمد الله مُضِلّ، فعلى من نحمل وعلى من نُدِلُّ؟ أمّا المطيّة فآلية، وأمّا المَرادة فخالية، والرَكْب يفتقر إلى الحَصاة، وكلّهم بَهَش للوَصاة:

يشكو إليّ جَمَلي طولَ السُّرى ... صبرٌ جميلٌ فكِلانا مبْتلى

إن اشتكتِ السَّمُرة سَفَنَ العاضدِ إلى السَّيالة، فإنها تشكو النازلة إلى شاكٍ، والصّدق أفضل من الابتشاك. ولا أرتاب أنه يحفظ قول الفَزاريّ منذ خمسين حِجّة أو أكثر:

أعُيَينَ هلّا إذ بُليتَ بحبِّها ... كنتَ استعنتَ بفارغ العقلِ
أقبلتَ تبغي الغوْثَ من رجلٍ ... والمستغاث إليه في شُغلِ

ولم يزل أهل الأدب يشْكون الغِيَر في كلّ جِيل، ويُخَصُّون من العجائب بسَجِلٍ سجيلٍ. ٢،١،٢٥
وهو يعرف الحكايةَ أنّ مَسْلَمة بن عبد الملك أوصى لأهل الأدب بجزءٍ من ماله، وقال: إنهم أهل صناعةٍ مجفوّةٍ. وأحسب أنهم والحُرفةَ خُلِقا توأمَين، وإنما ينحّ بعضهم في ذات الزُّمَين، ثمّ لا يلبث أن تزِلّ قدمُه، ويتفرّى بالقدَر أَدَمُه. وقد سمع في مصر بقِصّة أبي الفضل وسعيد، وما كان أحدهما من الآخر ببعيد. وإذا كان الأدب على عهد بني أُمَيّة يُقصَد أهله بالجفْوة، فكيف يَسلمون من باسٍ، عند مملكة بني العبّاس؟ وإذا أصابتهم المِحَن في عِدّان الرشيد، فكيف يُطمَع لهم بالحظِّ المَشيد؟ أليس أبو عُبيدة قدم مع الأصمعيّ وكلاهما يريد النُّجعة، ولا يلتمس إلى البصرة رَجعة، فتُشَبِّث بعبد الملك، ورُدَّ مَعْمَر، ومن يعلم بما يُجِنُّ الخَمَر؟

ومن بغى أن يتكسَّب بهذا الفنّ، فقد أودع شرابه في شَنّ، غيرِ ثقةٍ على الوديعة، بل هي منه في صاحب خديعة.

وقد رُوي أنّ سيبويه لمّا اختبر شأنَه وراز، رغِب في ولاية المَظالم بشيراز، وأنّ الكسائيَّ تحوَّب ممّا صنع به، فأعانه كي يشحَط على مطلبه.

فأمّا حبيب بن أوسٍ فهلك وهو بالموْصل على البريد: وصاحب الأدب حليف التصريد.

٢،٢٥ وأمّا الذين ذكرهم من المصحِّفين، فغيرُ البَرَرة ولا المُنْصِفين. وما زال التَّثْفُل يعرِض لأذاة الأسد، وما أحسبه يشعر بمكان الحسد، فإذا ادَّلج وَردٌ هَموس، تشقى به التامكةُ أو اللَّموس، فتُعالةُ به مُنذِرٌ، كأنه للمفترَس محذِّر، ولا يراه الضَّيْغم موْضعاً للعتاب، ويجعل أمره فيما يُحتمل من الخَطب المُنتاب. وكم من أغلبَ مُثارٍ، يسهَّد لغناء الطَّيْشار، وإذا هو بليلٍ تغنَّى، فالقَسْوَر به معنيٌّ:

ما يضرُّ البحرَ أمسى زاخراً ... أن رمى فيه غلامٌ بحَجَرْ

أوكلّما طنَّ الذّبابُ أروعُهُ؟ ... إنَّ الذُّبابَ إذًا عليَّ كريمُ

ومازال الهَمَج يقولون، ويقصُرون عن المكرُمة فلا يطُولون، وإنهم عما أثَّل متثاقلون، وطُلاّب الأدب في جباله واقلون.

من انفرد بفضيلةٍ أثيرة، فإنّه يتقدَّم بمناقبَ كثيرة، وإن حُسّاد البارع لكما قال الفرزدق:

فإن تهْجُ آلَ الزِّبْرقان فإنّما ... هجوتَ الطّوالَ الشُّمَّ من آل[1] يَذْبُلِ

وقد ينبح الكلبُ النّجومَ ودونَها ... فراسخُ تُنْضيه[2] ناظرَ المتأمِّلِ

---

١ كذا، والمشهور أن يذبل جبل؛ وفي الديوان ونقائض جرير والفرزدق: من هضب يذبل. ٢ في كل الطبعات: (تقصي)، والصواب (تنضي) كما في الديوان والنقائض.

يعدو على الحاسد حسدُه، ويذوب من كَبْتٍ جسدُه:

فهل ضربةُ الرّوميِّ جاعلةٌ لكم أبًا عن كُليبٍ أو أبًا مثل دارِمِ؟

فأمّا ما ذكره من قول أبي الطيّب: ١،١،٢٦

أَذُمُّ إِلى هذا الزمان أُهَيْلَهُ

فقد كان الرّجل مُولَعًا بالتّصغير، لا يقنع من ذلك بخُلسة المُغير؛ كقوله:

من لي بفَهم أُهَيْلِ عصرٍ يدّعي أن يحسُب الهنديَّ فيهم باقلُ؟

وقوله:

حُبيّبتا قلبا، فؤادا هَيا جُمْلُ

وقوله:

مَقالي للأُحيمق يا حليمُ

وقوله:

ونام الخُويدمُ عن ليلنا

وقوله:

أفي كل يوم تحت ضِبْني شُويعرٌ

وغير ذلك مما هو موجود في ديوانه، ولا ملامةَ عليه، إنما هي عادة صارت كالطبع، ٢،١،٢٦
فما حسُن بها مألوف الرَّبْع، ولكنها تُغتفر مع المَحاسن، والشامُ قد يظهر على المراسن.

وهذا البيت الذي أوله:

أذُمّ إلى هذا الزمان أُهيلَهُ

إنما قاله في عليّ بن محمد بن سيّار بن مُكرم بأنطاكية قبل أن يمدح سيفَ الدولة عليّ ابن عبد الله بن حَمْدان، والشعراء مطلَقٌ لهم ذلك، لأن الآية شهدت عليهم بالتخرص وقول الأباطيل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ﴾. وأهلٌ كلمةٌ أصلُ وضعِها للجماعة، فيقال: ارتحل أهل الدار، فيعلم السامع أن المتكلم لا يقصِد واحداً بما قال، إلا أن هذه الكلمة قد استُعملت للآحاد، فقيل: فلانٌ أهل الخير وأهل الإحسان، قال حاتم الطائيّ:

ظلَّتْ تلوم على بَكرٍ سمحتُ به إنّ الرزيئةَ في الدنيا ابنُ مسعودِ
غادَره القومُ بالمَعْزاء منجدِلاً وكان أهلَ النَّدى والحزْمِ والجودِ

وكأنّ هذه اللفظة أصلُها أن تكون للجمع، ثمّ نُقلت إلى الواحد، كما أن صديقاً وأميراً ونحوهما إنما وُضعن في الأصل للأفراد، ثم نُقلن إلى الجمع على سبيل التشبيه. وكذلك قولهم: بنو فلان أخ لنا. ويقال: أهلٌ وأَهْلَةٌ، وأَهَلاتٌ في الجمع، قال الشاعر:

فهم أَهَلاتٌ حوْل قيس بن عاصمٍ إذا أدلجوا بالليل يدْعون كوْثرا

وقال بعض النحويين في تصغير آلِ الرجل: يجوز أُوَيْل وأُهَيْل، كأنه يذهب إلى أن الهاء في أهل أُبدلت منها همزة، فلما اجتمعت الهمزتان جُعلت الثانية ألفاً، ومثل هذا لا يثْبُت. والأشبه أن يكون آلُ الرجل مأخوذاً من آلَ يؤول، إذا رجع، كأنهم يرجعون إليه أو يرجع إليهم.

وأمّا ما ذكره من حكاية القُطْرَبُّليّ وابن أبي الأزهر، فقد يجوز مثله، وما وضح أن ذلك ٢،٢٦
الرجل حُبس بالعراق، فأما بالشام فحَبْسه مشهور.

وحُدّثتُ أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال: هو من النَّبْوة، أي المرتفع من الأرض. وكان قد طمِع في شيء قد طمع فيه مَن هو دونه. وإنما هي مقادير، يديرها في العلوّ مُدير، يظفر بها من وُفّق، ولا يُراع بالمجتهد أن يُخفِق.

وقد دلّت أشياءُ في ديوانه أنه كان متألها، ومثلَ غيره من الناس متدلها، فمن ذلك قوله:

ولا قابلاً إلا لخالقه حُكما

وقوله:

ما أقدرَ اللهَ أن يُخزي بريّتَه ولا يصدِّق قوماً في الذي زعموا

وإذا رُجع إلى الحقائق، فنُطقُ اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان، لأن العالَم مجبول على الكذب والنِفاق، ويُحتمل أن يُظهر الرجل بالقول تديّنا، وإنما يجعل ذلك تزيّنا، يريد أن يصل به إلى ثناء، أو غرض من أغراض الخالبة أُمّ الفَناء، ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون، وفيما بطن مُلحِدون.

وما يلحقني الشكّ في أن دِعْبِل بن علي لم يكن له دين، وكان يتظاهر بالتشيّع، وإنما ٣،٢٦
غرضُه التكسّب، وكم أثبت نَسَباً بتنسُّب ولا أرتاب أن دعبلاً كان على رأي الحَكَمي وطبقته، والزندقة فيهم فاشية، ومن ديارهم ناشية.

وقد اختُلِف في أبي نواس: ادُّعي له التألهُ وأنه كان يقضي صلواتِ نهاره في ليله، والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه، وذلك أن العرب جاءها النبيّ صلى الله عليه، وهي ترغب إلى القصيد، وتقصُر هِمَمها عن الفصيد، فاتّبعه منها متبّعون، ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِما يُوعُون﴾.

فلما ضرب الإسلام بجِرانه، واتّسق مُلكه على أركانه، مازَج العربُ غيرَهم من الطوائف، ٤،٢٦
وسمعوا كلام الأطبّاء وأصحاب الهيئة وأهل المنطق، فمالت منهم طائفة كثيرة.

ولم يزل الإلحاد في بني آدم على ممرّ الدهور، حتى إن أصحاب السِّيَر يزعُمون أن آدم صلّى الله عليه بَعث إلى أولاده فأنذرهم بالآخرة وخوّفهم من العذاب فكذّبوه وردّوا قوله، ثم على ذلك المنهاج إلى اليوم.

وبعض العلماء يقول إنّ سادات قُريش كانوا زنادقةً. وما أجدرَهم بذلك! وقال شاعرهم يرثي قتلى بَدْر، وتُروى لشدّاد بن الأَسْود اللَّيثي:

ألمّتْ بالتحيّة أمُّ بكرٍ ... فحيُّوا أمَّ بكرٍ بالسلامِ
وكائنْ بالطَّويّ طويّ بَدْرٍ ... من الأحساب والقوم الكرامِ
وكائنْ بالطويّ طويّ بدر ... من الشِّيزَى تُكلَّل بالسَّنامِ
ألا يا أمَّ بكرٍ لا تُكِرّي ... عليَّ الكأسَ بعد أخي هشامِ
وبعد أخي أبيه وكان قَرْمًا ... من الأقوامِ شُرّابِ المُدامِ
ألا مَن مُبلغ الرحمنِ عنّي ... بأنّي تاركٌ شهرَ الصيامِ
إذا ما الرأس زايلَ منكِبَيه ... فقد شبِع الأنيسُ من الطعامِ
أيُوعِدنا ابنُ كَبْشةَ أن سنَحْيا ... وكيف حياةُ أصداءٍ وهامِ
أتترُك أن تردَّ الموتَ عنّي ... وتُحْيِيَني إذا بَلِيَتْ عِظامي؟

ولا يدّعي مثلَ هذه الدعاوي إلا من يستبسل وراءها للِحمام، ولا يأسف له عند الإلمام.

وحُدّثتُ أن أبا الطيّب أيامَ كان إقطاعه بصَفّ رُئيَ يصلّي بموضع بمعرّة النُّعمان يقال ٥،٢٦
له كنيسة الأعراب وأنه صلّى ركعتين، وذلك في وقت العصر، فيجوز أن يكون رأى أنه على سَفَر، وأن القصْر له جائز.

وحدثني الثقة عنه حديثاً معناه أنه لما حصل في بني عَديّ وحاول أن يخرج فيهم، قالوا له وقد تبيّنوا دعواه: هاهنا ناقةٌ صعبة، فإن قدرت على ركوبها أقررنا أنك مُرسَل. وأنه مضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل، فتحيّل حتى وثب على ظهرها، ففرتْ ساعةً وتنكّرت بُرهةً، ثم سكن نِفارُها ومشت مَشْيَ المُسْمِحة، وأنه ورد بها الحِلّة وهو راكب عليها، فعجبوا له كل العَجَب، وصار ذلك من دلائله عندهم.

وحُدّثتُ أيضاً أنه كان في ديوان اللاذقيّة، وأن بعض الكتّاب انقلبت على يده سكّينُ الأقلام فجرحته جُرحاً مفرطاً، وأن أبا الطيّب تفل عليها من رِيقه، وشدّها غير منتظر لوقته، وقال للمجروح: لا تحُلَّها في يومك. وعدّ له أيّاماً ولياليَ، وأن ذلك الكاتب قبِل منه، فبرىء الجرح، فصاروا يعتقدون في أبي الطيّب أعظمَ اعتقاد، ويقولون: هو مُحْيي الأموات.

وحدّث رجل: كان أبو الطيّب قد استخفى عنده في اللاذقية أو في غيرها من السواحل، أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع،فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل، ولقيهما كلبٌ ألحّ عليهما في النُباح ثم انصرف، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد: إنك ستجد ذلك الكلبَ قد مات. فلما عاد الرجل ألفى الأمر على ما ذكر. ولا يمتنع أن يكون أعدّ له شيئاً من المطاعم مسموماً وألقاه له وهو يُخفي عن صاحبه ما فعل. والخَرَبَق سمّ الكلاب معروف.

٦،٢٦ وأما القطربُلّي وابن أبي الأزهر فمن الزوْل اجتماعُهما على تأليف كتابٍ، وقلّ ما يُعرف مثلُ ذلك. ونحوٌ منه قصةُ الخالديّين اللذيْن كانا في الموصل وهما شاعران، وقد كانا عند سيف الدولة وانصرفا على حدّ مغاضَبة. ولهما ديوان يُنسب إليهما لا ينفرد فيه أحدهما بشيء دون الآخر إلا في أشياءَ قليلةٍ. وهذا متعذر في ولد آدم إذ كانت الجِبلّة على الخلاف وقلّة الموافقة.

فأما أن يعمل الرجل شيئًا من كتابٍ، ثم يتمّه الآخر، فهو أسْوغُ في المعقول من أن يجتمع عليه الرجلان. والبغداديون يحكون أن أبا سعيد السيرافيّ عمل من كتابه المعروف بالمُقْنِع أو الإقناع إلى باب التصغير، ثم تُوُفّي وأتمّه بعده ولدُه أبو محمد.

وقد يجوز مثلُ هذا، وليس عندهم فيه ريب، وحكى لي الثقة أن أبا عليّ الفارسيّ كان يذكر أن أبا بكر بن السرّاج عمل من المُوجَز النصفَ الأول لرجل بزّاز، ثم تقدّم إلى أبي عليّ بإتمامه، وهذا لا يُقال إنه من إنشاء أبي علي لأن الموضوع من الموجز، هو منقول من كلام ابن السرّاج في الأصول وفي الجُمَل، فكأنّ أبا عليّ جاء به على سبيل النسْخ، لا أنه ابتدع شيئًا من عنده.

والذين روَوْا ديوان أبي الطيّب يحكون عنه أنه وُلد سنة ثلاث وثلثمائة. وكان طلوعه ١،٧،٢٦
إلى الشام سنة إحدى وعشرين، فأقام فيه بُرهة ثم عاد إلى العراق ولم تطُلْ مُدّتُه هنالك. والدليل على صحّة هذا الخبر أن مدائحه في صِباه إنما هي في أهل الشام إلا قوله:

كُفّي أراني ويْكِ لوْمَكِ ألْوَما

وأما شكيّتُه أهلَ الزمان إليه، فإنه سلك في ذلك منهاج المتقدمين، وقد كثر المقال في ذمّ الدهر حتى جاء في الحديث: لا تَسُبّوا الدهر فإن الله هو الدهر، وقد عُرف معنى هذا الكلام، وأنّ باطنه ليس كظاهره، إذ كان الأنبياء عليهم السلام لم يذهب أحدٌ إلى أن الدهر هو الخالق ولا المعبود. وقد جاء في الكتاب الكريم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ وقول بعض الناس: الزمان حركة الفَلَك، لفظٌ لا حقيقة له. وفي كتاب سيبويه ما يدلّ على أن الزمان عنده: مُضِيُّ الليل والنهار. وقد تُعُلّق عليه في هذه العبارة.

وقد حدثْتُه حدّاً ما أجدرَه أن يكون قد سبق إليه إلا أني لم أسمعه، وهو أن يقال: الزمان شيء أقلُّ جزءٍ منه يشتمل على جميع المُدْرَكات، وهو في ذلك ضدُّ المكان، لأن

أقلَّ جزءٍ منه لا يمكن أن يشتمل على شيء كما تشتمل عليه الظروف، فأما الكون فلا بدّ من تشبُّثه بما قلّ وكثُر.

والذين قالوا: وما يُهلكنا إلا الدهرُ وغير ذلك من المقال، مثل البيت المنسوب إلى الأخطل، وذكره حبيب بن أوسٍ لشَمْعَلة التغلبي، وهو: ٢،٧،٢٦

فإنّ أمير المؤمنين وفِعله لكالدهر لا عارٌ بما فعل الدهرُ

وقول الآخر:

الدهر لا ءمَ بين أُلفتنا وكذاك فرّق بيننا الدهرُ

وقول أبي صَخْر:

عِجبتُ لسعْي الدهر بيني وبينها فلمّا انقضى ما بيننا سكن الدهرُ

لم يُدّعَ أن أحداً منهم كان يقرّب للأفلاك القرابين، ولا يزعم أنها تعقِل، وإنما ذلك شيء يتوارثه الأُمم في زمان بعد زمان.

وكان في عبد القيس شاعر يقال له شاتم الدهر، وهو القائل:

ولما رأيتُ الدهر وعْرًا سبيلُه وأبدى لنا وجهًا أمزبَّ مجدَّعا
وجَبهةَ قِردٍ كالشِّراكِ ضئيلةً وأَنفًا ولَوّى بالعثانينِ أخدعا
ذكرتُ الكرامَ الذاهبين أُولي النَّدى وقلتُ لعمرو والحُسام ألا دَعا

وأما غيظه على الزنادقة والملحدين فأجره اللهُ عليه، كما أجره على الظمأ في طريق مكّة، واصطلاء الشمس بعَرَفة، ومَبيته بالمزدلِفة. ولا ريب أنه ابتهل إلى الله سبحانه في الأيام المعدودات والمعلومات، أن يُثبّت هِضابَ الإسلام، ويقيم لمن اتّبعه النيّر من الأعلام. ولكن الزندقة داءٌ قديم، طالما حلّ بها الأديم. وقد رأى بعض الفقهاء أن الرجل إذا ظهرت زندقته ثم تاب فَزَعًا من القتل لم تُقبل توبتُه. وليس كذلك غيرهم من الكُفّار، لأن المرتدّ إذا رجع قُبل منه الرجوع. ١،٢٧

ولا ملّة إلا ولها قوم ملحدون، يُرُون أصحاب شرعهم أنهم موالفون وهم فيما بطن مخالفون، ولا بدّ أن ينهتكَ مُخادع، وتبدُوَ من الشرّ جَنادع. وقد كانت ملوك فارسَ تقتُل على الزندقة.

والزنادقة هم الذين يسمَّون الدهريةَ، لا يقولون بنبوّة ولا كتاب. وبشّار إنما أخذ ذلك عن غيره، وقد رُوي أنه وُجد في كتبه رُقعةٌ مكتوب فيها: إني أردت أن أهجو فلان ابن فلان الهاشميّ فصفحتُ عنه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وزعموا أنه كان يُشارّ سيبويه، وأنه حضر يوماً حلقةَ يونس بن حبيبٍ فقال: هل ههنا من يرفع خبرًا؟ فقالوا: لا، فأنشدهم: ١،٢،٢٧

بني أُميّةَ هُبّوا من رُقادِكُمُ ... إنّ الخليفةَ يعقوبُ بن داودِ
ليس الخليفةُ بالموجود فالتمِسوا ... خليفةَ الله بين الناي والعودِ

وكان في الحلقة سيبويه، فيدّعي بعض الناس أنه وشى به. وسيبويه فيما أحسبُ كان أجلّ مَوضعاً من أن يدخُل في هذه الدنيّات، بل يعمِد لأمور سنيّات. وحُكي عنه أنه عاب عليه قوله:

على الغَزَلَى منّي السلامُ فطال ما ... لهوتُ بها في ظلّ مخضَرّةٍ زُهرِ

فقال سيبويه: لم تستعمل العرب الغَزَلَى، فقال بشّار: هذا مثل قولهم البَشَكَى والجَمَزَى، ونحو ذلك.

٢،٢،٢٧ وجاء بشار في شعره بالنينان جمع نُونٍ من السمك، فيقال إنه أنكره عليه، وهذه أخبار لا تثبُت. وفيما رُوي في كتاب سيبويه أن النون يُجمع على نينان، فهذا نقضٌ للخبر.

وذكر مَن نقل أخبار بشّار أنه توعّد سيبويه بالهجاء، وأنه تلافاه واستشهد بشعره. ويجوز أن يكون استشهاده به على نحو ما يذكره المتذاكرون في المجالس ومجامع القوم. وأصحاب بشارٍ يروون له هذا البيت:

وما كلّ ذي لُبٍ بمؤتيك نُصحَه وما كلّ مؤتٍ نصحَه بلبيبِ

وفي كتاب سيبويه نصفُ هذا البيت الآخر، وهو في باب الإدغام لم يُسمِّ قائلَه. وزعم غيرُه أنه لأبي الأَسود الدؤلي.

ويقال: إن يعقوب بن داود وزيرَ المهديّ تحامل على بشّار حتى قُتل، واختُلف في سِنّه: فقيل كان يومئذ ابن ثمانين سنة، وقيل أكثر، والله العالم بحقيقة الأمر.

ولا أحكُم عليه بأنه من أهل النار، وإنما ذكرتُ ما ذكرت فيما تقدّم لأني عقدْتُه بمشيئة الله، وإن الله لحليمٌ وهّاب.

١،٣،٢٧ وذكر صاحبُ كتاب الوَرَقة جماعة من الشعراء في طبقة أبي نواس ومَن قبلَه، ووصفهم بالزندقة، وسرائر الناس مغيَّبة، وإنما يعلم بها علاّمُ الغيوب. وكانت تلك الحال تُكتَم في ذلك الزمان خوفًا من السيف، فالآن ظهر نجيثُ القوم، وانقاضت التريكةُ عن أخبثِ رأل.

وكان في ذلك العصر رجل له أصدقاء من الشيعة وصديقٌ زنديقٌ، فدعا المتشيعة في بعض الأيام فجاء الزنديق فقرع حلقة الباب وقال:

أصبحتُ جمَّ بَلابل الصدرِ متقسمَ الأشجان والفكرِ

فقال صاحب المنزل: ويحك! ممّ ذا؟ فتركه الزنديق ومضى، فلقيه صاحبُ المأدُبة فقال له: يا هذا، أردتَ أن تُوقِعني فيما أكرهُ، خوفًا من أن يظُنّ أصدقاؤه أنه زنديق، فقال: ادعُهم ثانيةً وأعْلِمْني بمكانهم. فلما حصلوا عنده جاء الزنديق فقال:

أصبحتُ جم بلابل الصدرِ متقسمَ الأشجان والفكرِ

فقالوا: ويحك! مما ذا؟ فقال:

مما جَناه على أبي حَسَنٍ عُمَرٌ وصاحبُه أبو بكرِ

وانصرف. ففرح الشيعةُ بذلك، ولقيه صاحب المنزل فقال: جُزيتَ عني خيرًا، فقد خلصتَني من الشُبهة!

وكان يجلس في مجلس البصرة جماعة من أهل العلم، وكان فيهم رجل زنديق له سيفانِ، قد سمّى أحدَهما الخيرَ والآخَرَ الفَلَحَ فإذا سلّم عليه رجل من المسلمين قال: ٢،٣،٢٧

صبّحك الخيرُ ومسّاك الفَلَحْ

ثم يلتفت لأصحابه الذين قد عرفوا مكان السيفيْن فيقول:

سيفان كالبَرْق إذا البرقُ لَمَحْ

فأما قول الحكَميّ:

تِيهُ مُغنٍّ وظَرْفُ زنديقِ

فقد عِيب عليه هذا المعنى، وقيل إنه أراد رجلاً من بني الحارث كان معروفًا بالزندقة والظرف، وكان له موضع من السلطان.

[وأما][1] قوله في صدر هذا البيت:

نديمُ قيلٍ مُحَدِّثُهُ مَلِكُ

فهو نحو من قول امرئ القيس:

فاليومَ أَشْرَبْ غيرَ مستحقِبٍ إثمًا من الله ولا واغلِ

وليس ينبغي أن يُحمل على قول مَن وقف على الهاء كما قال:

يا بيْذَرَهْ، يا بيذرهْ، يا بيذرهْ

وكما قال الآخر:

يا رُبَّ أبْلَزَ من العُصْم صَدَعْ تقبّضَ الظِلُّ عليه فاجتمعْ
لما رأى ألا دَعَهْ ولا شِبَعْ مال إلى أرْطاةِ حِقْفٍ فاضطجَعْ

لأن هذا حسُنَ فيه إظهار الهاء، إذ كان الكلام تامًّا يحسُن عليه السكوت، وقوله: مُحَدِّثُهُ ملك، مُضاف ومضاف إليه، فلا يحسُن فيه مثلُ ذلك، إذ كان الاسمان كاسم واحد.

وأما صالح بن عبد القُدّوس فقد شُهر بالزندقة، ولم يُقتل، ولله العلم، حتى ظهرت عنه ٤،٢٧
مقالات توجِب ذلك. ويُروى لأبيه عبد القدوس:

١ زيادة ليست في المخطوطات وأضافتها بنت الشاطئ لمقتضى السياق.

كم أهلكتْ مكّةُ من مزائرٍ خرّبها الله وأبياتَها
لا رَزَق الرحمنُ أحياءها وأشْوتِ الرحمةُ أمواتَها

وقد كان لصالح ولدٌ حُبس على الزندقة حبساً طويلاً، وهو الذي يُروى له:

خرجْنا من الدنيا ونحن مِنَ أهْلها فما نحن بالأحياء فيها ولا الموْتَى
إذا ما أتانا مزائرٌ مستفقَّدٌ فرِحْنا وقلنا: جاء هذا من الدنيا

وأما رجوعه عن الزندقة لمّا أحسّ بالقتل، فإنما ذلك على سبيل الخَتْل. فصلى الله على محمد، فقد رُوي عنه أنه قال: بُعثتُ بالسيف، والخير في السيف، والخير بالسيف. وفي حديث آخر: لا تزال أُمّتي بخيرٍ ما حملتِ السيوفَ. والسيف حمل صالحًا على التصديق، وردّه عن رأي الزنديق، وتلك آية من آيات الله إذا هي ظهرت للنفس الكافرة، فقد فِيَ لا ريبَ زمانُها، ولا يُقبل هناك إيمانُها: ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ وللسفَه طَلّ ووَبْل.

وأما القصّار فجهلٌ يُجْمَع ويُصار، ولو تبع حِقًّا مقروبا، لَكُفِيَ سمًّا مشروبا، ولكن الغرائز ١،٥،٢٧
أعادٍ، ولا بدّ من لقاء الميعاد.

وأما المنسوب إلى الصناديق، فإنه يُحسَب من الزناديق. وأحسبُه الذي كان يُعرف بالمنصور، ظهر سنةَ سبعين ومائتين، وأقام بُرهة باليمن، وفي زمانه كانت القِيان تلعب بالدُّفّ وتقول:

خُذي الدّفَّ يا هذه والعَبي وبُثّي فضائلَ هذا النبي
تولّى نبيُّ بني هاشمٍ وقام نبيُّ بني يَعْرُبِ
فما نبتغي السعْيَ عند الصَّفا ولا زوْرةَ القبر في يَثْرِبِ
إذا القوم صلّوْا فلا تنهَضي وإن صوّموا فكُلي واشْرَبي
ولا تحرِمي نفسَكِ المؤمنيـ نَ من أقربينَ ومن أجْنبي

فكيف حللتِ لذاك الغريبِ وصِرتِ محرَّمةً للأبِ؟
أليس الغِراسُ لمن ربَّهُ وروّاه في عامه المُجْدِبِ؟
وما الخمر إلا كماء السحا بِ طِلْقٌ فقُدِّسْتَ من مَذهبِ

فعلى معتقِد هذه المقالة بَهْلةُ المبتهلين.

وهذه الطبقة، لعنها الله، تستعبد الطَّغام بأصناف مختلفة، فإذا طمعت في دعوى ٢،٥،٢٧
الربوبية لم تتثبّ في الدعوى، ولا لها عمّا قبُح رَعْوى، وإذا علمتْ أن في الإنسان تميّزا، أرتْه إلى ما يحسن تحيّزا.

وقد كان باليمن رجل يحتجب في حِصن له، ويكون الواسطةُ بينه وبين الناس خادماً له أَسودَ قد سمّاه جبريل، فقتله الخادم في بعض الأيام وانصرف. فقال بعض المُجّان:

تبارك الله في عُلاه فرّ من الفِسق جَبرئيلُ
وظلّ مَن تزعُمون ربًّا وهْو على عَرشه قتيلُ

ويقال إنه حمله على ذلك ما كان يكلّفه من الفِسق.

وإذا طمع بعضُ هؤلاء، فإنه لا يقنع بالإمامة ولا النبوّة، ولكنه يرتفع صُعُدًا في الكذب، ويكون شُربه من تحت العَذِب، أي الطُّحْلُب.

ولم تكن العرب في الجاهلية تُقْدِم على هذه العظائم، والأمورِ غيرِ النظائم. بل كانت ٣،٥،٢٧
عقولهم تجنَح إلى رأي الحكماء، وما سلف من كتب القدماء. إذ كان أكثر الفلاسفة لا يقولون بنبيّ، وينظرون إلى من زعم ذلك بعين الغبيّ.

وكان ربيعة بن أُميّة بن خَلَفٍ الجُمحيّ جرى له مع أبي بكر الصدّيق، رحمة الله عليه، خَطْب، فلحِق بالروم، ويُروى أنه قال:

لحِقتُ بأرض الروم غير مفكّرٍ بتركِ صلاةٍ من عِشاء ولا ظُهرِ
فلا تتركوني من صَبوحِ مُدامةٍ فما حرّم الله السُّلاف من الخمرِ
إذا أمرتْ تيمُ بن مُرّةَ فيكُمُ فلا خيرَ في أرض الحجاز ولا مِصرِ
فإن يَكُ إسلامي هو الحقّ والهُدَى فإنّي قد خلّيتُه لأبي بكرِ

وافتتن الناسُ في الضلالة حتى استجازوا دعوى الربوبية، فكان ذلك تنطّساً في الكُفر، وجمعاً للمعْصِيَة في المزاد الوُفْر. وإنما كان أهل الجاهلية يدفعون النبوّة ولا يجاوزون ذلك إلى سِواه.

ولما أجْلى عمرُ بن الخطّاب، رحمة الله عليه، أهلَ الذمّة عن جزيرة العرب، شقّ ذلك على الجالين، فيقال إن رجلاً من يَهودِ خيْبر يُعرف بسُمَيْر بن أدكن قال في ذلك:

يصول أبو حَفصٍ علينا بدِرّةٍ رُويدَكَ إنّ المرءَ يطفو ويرسُبُ
كأنك لم تتبع حَمولةَ ماقطٍ لتَشبَعَ إنّ الزاد شيءٌ محبَّبُ
فلو كان موسى صادقًا ما ظهرتُمُ علينا ولكنْ دولةٌ ثُمّ تذهبُ
ونحنُ سبقْناكمْ إلى الميْن فاعرفوا لنا رُتبةَ البادي الذي هو أكذبُ
مشيْتمْ على آثارنا في طريقنا وبُغْيتكم في أن تَسودوا وتُرْهَبوا

وما زال اليمن منذ كان مَعْدِناً للمتكسبين بالتديّن، والمحتالين على السُّحْت بالتزيّن. ٤،٥،٢٧
وحدّثني مَن سافر إلى تلك الناحية أن به اليوم جماعة كلهم يزعُم أنه القائم المنتظَر، فلا يَعدَم جبايةً من مالٍ، يصِل بها إلى خسيس الآمال.

وحُكي لي أن للقرامطة بالأحساء بيتاً يزعُمون أن إمامهم يخرج منه، ويقيمون على باب ذلك البيت فرساً بسَرج ولِجام، ويقولون للهَجَ والطغام: هذا الفرس لركاب المهديّ، يركبه متى ظهر بحقّ بديٍ. وإنما غرضهم بذلك خَدْعٌ وتعليل، وتوصّلٌ إلى المملكة وتضليل.

٥،٥،٢٧ ومن أعجب ما سمعتُ أن بعض رؤساء القرامطة في الدهر القديم، لما حضرته المنيّةُ جمع أصحابَه وجعل يقول لهم لمّا أحسّ بالموت: إني قد عزمت على النُّقلة، وقد كنت بعثتُ موسى وعيسى ومحمداً، ولا بُدّ لي أن أبعث غيرَ هؤلاء! فعليه اللعنة، لقد كفر أعظمَ الكفر، في الساعة التي يجب أن يؤمن فيها الكافرُ، ويؤوب إلى آخرته المسافر.

وأما الوليد بن يزيد فكان عقله عقلَ وليد، وقد بلغ سنّ الكهل الجليد، ما أغنتْه ١،١،٢٨
نيةٌ سابحةٌ، ولا نفعت البُنابجة. وشُغل عن الباطية، بجريرة النفس الخاطية. دحاه إلى سَقَرَ داحٍ، فما يغترف بالأقداح. وقد رُويت له أشعار، يلحق به منها العار، كقوله:

أَدْنِيا منّي خليلي ... عَبْدَلاً دونَ الإزارِ
فلقد أيقنتُ أني ... غيرُ مبعوثٍ لنارِ
واتركا مَن يطلب الجنّـ ... ـةَ يسعى في خَسارِ
سأروض الناسَ حتى ... يركبوا دينَ الحِمارِ

فالعَجَبُ لزمانٍ صيّر مثله إماما، وأَورده من المملكة جِماما، ولعل غيره ممن مَلَكَ يعتقد مِثلَه أو قريبا، ولكن يساتر ويخاف تثريبا. ومما يُروى له:

أنا الإمام الوليد مفتخرًا ... أجُرّ بُرْدي وأسمعُ الغَزَلا
أسحَبُ ذَيلي إلى منازلها ... ولا أُبالي مَن لامَ أو عذلا
ما العيش إلا سماعُ مُحْسِنةٍ ... وقهوةٌ تترُك الفتى ثَمِلا
لا أرتجي الحُور في الخلود وهل ... يأمُل حُورَ الجِنان من عقلا؟
إذا حَبَتْكَ الوِصالَ غانيةٌ ... فجازِها بَذْلَها كمَنْ وصَلا

ويقال إنه لمّا أُحيط به، دخل القصرَ وأغلق بابه وقال: ٢،١،٢٨

دَعُوا لِيَ هِنْدًا والرَّبابَ وفَرْتَنى ... ومُسْمِعةً حسْبي بذلك مالا
خُذوا مُلككمْ لا ثبّت اللهُ مُلككمْ ... فليس يساوي بعد ذاك عِقالا
وخَلُّوا سبيلي قبل عيرٍ وما جرى ... ولا تحسُدوني أن أموت هُزالا

فأُلِب عن تلك المنزلة أيّ أَلَب، ورئي رأسه في فم كلب.

كذلك نقل بعض الرواة، والله القائم بجزاء الغُواة. ولا حيلةَ للبشر في أمّ دَفْرٍ، أعْيت كل حَضرٍ وسَفْرٍ. كان حَقّ الخلافة أن تُفْضي إلى من هو بنُسكٍ معروفٌ، لا تصرِفه عن الرشد صروف، ولكن البليّة خُلقت مع الشمس، فهل يخلُص مَن سكن في رَمْس؟

٢،٢٨ وأمّا أبو عيسى بن الرشيد، فليس بالناشد ولا النشيد. وإن صحّ ما رُوي عنه فقد باينَ بذلك أسلافَه، وأظهر لأهل الديانة خلافه.

وما يحفل ربُّه بالعبيد صائمين لِخيفة ولا مُفطرين، ولكن الإنس غدَوا مُخطرين[1]. وربما كان الجاهل أو المتجاهل، ينطِق بالكلمة وخَلْدُه بضدّها آهل، وإنما أقول ذلك راجيًا أن أبا عيسى ونُظَراءه لم يتّبعوا في الغيّ أُمراءه، وأنهم على سِوى ما علن يبيّتون، لقد وعَظَهم الميّتون.

ورأى بعضهم عبدَ السلام بن رَغْبان، المعروف بدِيك الجِنّ، في النوم وهو بحسن حالٍ، فذكر له الأبيات الفائيّة التي فيها:

هي الدنيا وقد نعِموا بأُخرى وتسويفُ الظنون من السُّوافِ

أي الهلاك. فقال: إنما كنتُ أتلاعب بذلك ولم أكن أعتقده. ولعل كثيرًا ممن شُهر بهذه الجهالات تكون طويّتُه إقامةَ الشريعة، والإرتاع برياضها المَريعة. فإن اللسان طمّاحٌ، وله بالفَنَد إسماح. وكان أبو عيسى المذكور يُستحسن شعرُه في البيتين والثلاثة، وأنشد له الصُّولي في نوادره:

لساني كَتومٌ لأسراره ودمعي نَمومٌ بسِرّي مُذيعُ
ولولا دموعي كتمتُ الهوى ولولا الهوى لم يكن لي دموعُ

١ في جميع الطبعات: محظرين.

فإن كان فرّ من صيامِ شهر، فلعله يقع في تعذيب الدهر، و﴿لا يَيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

٣،٢٨ وأمّا الجَنَابيّ فلو عوقب بلدٌ بمن يسكُنه، لجاز أن تؤخذ به جَنَابةُ، ولا يُقبل لها إنابة. ولكن حُكم الكتاب المُنزل أجدرُ وأحرى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾. وقد اختُلف في حديث الرُّكن معه: فزعم من يدّعي الخبرة به أنه أخذه ليعبُده ويعظّمه، لأنه بلغه أنه يد الصنَم الذي جُعل على خَلْق زُحَل. وقيل: جعله مَوْطئاً في مرتفَق، وهذا تناقضٌ في الحديث. وأيّ ذلك كان، فعليه اللعنة ما رسا ثَبير وهَمى صَبير.

١،٤،٢٨ وأما العَلَويّ البصريّ فذكر بعض الناس أنه كان قبل خروجه يذكر أنه من عبد القيس ثمّ من أنمار. وكان اسمُه أحمد، فلمّا خرج تسمّى عَليًّا. والكذب كثير جمّ، كأنه في النَّظر طوْد أشمّ؛ والصدْق لديه كالحَصاة، تُوطأ بأقدامِ عُصاة. وتلك الأبيات المنسوبة إليه مشهورة وهي:

أيا حِرفةَ الزَّمْنى ألَمَّ بك الرَّدى ... أما لي خلاصٌ منكِ والشَّمْلُ جامعُ
لئن قنِعتْ نفسي بتعليم صِبْيةٍ ... يدَ الدهْر إني بالمَذلّة قانعُ
وهل يرضَيَنْ حُرٌّ بتعليم صبْيةٍ ... وقد ظُنَّ أنَّ الرزق في الأرض واسعُ

وما أمنعُ أن يكون حَمَله حُبّ الحُطام، على أن غرِق في بحرِ طامٍ، يسبحَ فيه ﴿ما دامَتِ السَّمَٰوَٰتُ وَالۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

٢،٤،٢٨ وقد رُويت له أبياتٌ تدُلّ على تألّهٍ، وما أدفعُ أن تكون قيلت على لسانه، لأنّ مَنْ خبر هذا العالَم حَكَم عليه بفجور ومينٍ، وأخلاق تبعُد من الزَّين. والأبيات:

قتلتُ النّاس إشفاقًا ... على نفسيَ كيْ تَبْقَى
وحُزتُ المال بالسَّيفِ ... لكيْ أنعَم لا أَشقى
فمَنْ أبصَر مَثواي ... فلا يظلِمْ إذًا خَلْقا

فواويلي إذا مـا مُـ ـتُ عند الله ما ألقى
أخُـلدًا ـفي جِوار اللّـ ـه أمْ ـفي ناره أُلقى ؟

وأنشدني بعضهم أبياتًا قافية طويلة الوزن، وقافِيَتها مثلُ هذه القافية، قد نُسبت إلى عَضُد الدّولة. وقيل إنّه أفاق في بعض الأيّام، فكتبها على جدار الموضع الذي كان فيه، وقد نُحِيَ بها نحو أبيات البصريّ. وأشهدُ أنها متكلَّفة، صنعها رقيعٌ من القوم، وأنّ عضد الدولة ما سمع بها قطّ.

١،٥،٢٨ وأمّا الحكاية عن أصحاب الحديث أنهم صحّفوا رَخَمَةَ فقالوا: رَخْمة، فلا أصدّق بما يجري مجراها، والكذب غالب ظاهر، والصدق خفيّ متضائل، ف﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ ﴾. وكذلك ادّعاء من يدّعي أنّ علياً، عليه السلام، قال: تهلِك البصرة بالزنج؛ فصحّفها أهل الحديث: بالريح، لا أومِنُ بشيء من ذلك. ولم يكن عليّ، عليه السلام، ولا غيره ممن يُكشَف له علم الغيب، وفي الكتاب العزيز: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلّا اللّٰهُ﴾ وفي الحديث المأثور: أنه سمع جَوارِيَ يغنّين في عُرس ويقلن:

وأهـدى لنـا أكْبُشًـا تُجـبح ـفي المِـربَـدِ
وزوجُكِ ـفي النّادي ويعـلَمُ مـا ـفي غـدِ

فقال: لا يعلم ما في غدٍ إلا الله. ولا يجوز أن يُخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب، حرسها الله، في سنة أربع وعشرين وأربعمائة، اسمه فلان بن فلان، وصفته كذا؛ فإن ادّعى ذلك مُدّعٍ فإنمّا هو متخرّص كاذب.

٢،٥،٢٨ وأمّا النجوم فإنمّا لها تلويح لا تصريح، وحُكي أنَّ الفضل بن سَهْل كان يتمثل كثيرًا بقول الراجز:

لئن نجوتُ ونجتْ ركائبي من غالبٍ ومن لفيفِ غالبِ
إنّي لنجّاءٌ من الكرائبِ

وأنّ غالبًا كان فيمن قتله، فهذا يتّفق مثلُه. وأجدِرْ بهذه الحكاية أن تكون مصنوعة. فأمّا تمثّله بالشعر فغير مستنكَر، وربما اتفق أن يكون في الوقت جماعة يُسمّون بهذا الاسم، فيمكن أن يقترن معنى بلفظٍ، على أنّ في الأيام عجائب، وفوق كلّ ذي علم عليم.

وقد حُكي أنّ إياس بن معاوية القاضي كان يُظَنّ الأشياء فتكون كما ظنّ، ولهذه العلّة قالوا: رجل نِقاب وألْمَعِيّ، قال أوْس:

الألمعيُّ الذي يظُّن لكُ الظـ نَّ كأن قـد رأى وقـد سمِـعا

وقال:

نِقـابٌ يحـدِّث بالغـائبِ

فأمّا الحسين بن منصور فليس جهله بالمحصور. وإذا كانت الأُمّة ربّما عبدت الحَجَر، ١،١،٢٩
فكيف يأمن الحصيفُ البُجَر؟ أراد أن يدير الضلالة على القُطب، فانتقل عن تدبير العُطب، ولو انصرف إلى عِلاج البِرس، ما بقي ذِكرٌ عنه في طِرس، ولكنّها مقادير، تغشى الناظر بها سماديرُ. فكونُ ابن آدم حصاةً أو صخرةً، أجملُ به أن يُجعل سُخرةً. والناس إلى الباطل سِراع، ولهم إلى الفِتن إشراع.

وكم افتُري للحلّاج، والكذبُ كثير الخِلاج، وجميع ما يُنسب إليه مما لم تجرِ العادة بمثله ٢،١،٢٩
فإنّه المَين الحنَبَريت، لا أُصدّق به ولو كُرِيتُ. وممّا يُفتعل عليه أنه قال للّذين قتلوه: أتظنّون انكم إيّاي تقتلون؟ أنمّا تقتلون بَغْلة الماذَرائي، وأنّ البغلة وُجدت في إصطبلها مقتولة.

وفي الصّوفية إلى اليوم من يرفع شانَه، ويجعل مع النجم مكانَه. وبلغني أنَّ ببغداد قوماً ينتظرون خروجه، وأنهم يقفون بحيث صُلب على دِجلةَ يتوقّعون ظهوره. وليس ذلك ببدع من جهل الناس، ولو عَبَد عابد ظبيَ كِناس، فقد نزل حظٌّ على قِرد، فظفر بأكرم الورد. وقالت العامّة: اسجُدْ للقرد في زمانه. وأنا أتحوَّب من ذكر القرد الذي يقال: إنّ القُوّاد في زمن زُبيدة كانوا يدخلون لسلامٍ عليه وأنّ يزيد ابن مَزْيَد الشَّيبانيَّ دخل في جملة المسلِّمين فقبّله. وقد رُوي أن يزيد بن معاوية كان له قِرد يحمله على أتانٍ وحشيةٍ ويُرسلها مع الخيل في الحَلْبة.

وأمّا الأبيات التي على الياء: ٣،١،٢٩

يا سِرَّ سِرٍّ يدِقُّ حتَّى ... يجِلّ عن وصفِ كلّ حَيّ
وظاهِرًا باطنًا تبدّى ... من كلّ شيءٍ لكلّ شيء
يا جملة الكلّ لستَ غيري ... فما اعتذاري إذًا إليّ؟

فلا بأس بنظمها في القوّة، ولكن قوله: إليّ، عاهة في الأبيات: إن قُيّد فالتقييد لمثل هذا الوزن لا يجوز عند بعض النّاس، وإنْ كسر الياءَ من إليّ فذلك رديء قبيح.

وأصحاب العربية مجمعون على كراهة قراءة حَمْزةَ: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيّ﴾: بكسر الياء. وقد رُوي أنّ أبا عمرو بن العلاء سئل عن ذلك فقال: إنه لَحسن، تارةً إلى فوق، وتارةً إلى أسفل، يعني فتح الياء في مُصْرِخيّ وكسرَها، والذين نقلوا هذه الحكاية يحتجّون بها لحمزةَ ويذهبون إلى أن أبا عمرو أجاز الكسر لالتقاء الساكنَيْن. وإن صحّت الحكاية عنه، فما قالها إلا متهزئًا على معنى العكس، كما قال الغَنَويّ وهو سَهْم بن حَنْظلة:

لا يمنع الناسُ منيّ ما أردتُ ولا أُعطيهِمُ ما أرادوا حُسْنَ ذا أدَبا

أي ليس ذلك بحَسَن وهذا كما يقول الرّجل لولده إذا رآه قد فعل فعلاً قبيحًا: ما أحسنَ هذا! وهو يريد ضدّ الحسن. ولم يأت كسرُ هذه الياء في شعر فصيح. وقد طعن الفَرّاء على البيت الذي أنشده:

قالت لها: هل لكِ يا تا فِيّ؟ قالت له: ما أنت بالمَرْضيّ

وقد سمعتُ في أشعار المحْدَثين: إليّ وعَليّ، ونحو ذلك، وهو دليل على ضَعف المُنَة وركاكة الغريزة. وكذلك قوله: الكُلّ، وإدخاله الألف واللام مكروه. وكان أبو علي يجيزه ويدّعي إجازته على سيبويه، فأما الكلام القديم فيُفتقد فيه الكلّ والبعض، وقد أنشدوا بيتًا لسُحَيْم:

رأيت الغنيَّ والفقيرَ كِليهما إلى الموت يأتي الموتُ للكلّ مَعْمِدا

ويُنشَد لفتًى كان في زمن الحلّاج: ١،٢،٢٩

إن يكنْ مذهبُ الحلول صحيحًا فإلهي في حُرمة الزَّجّاجِ
عرضتْ في غِلالةٍ بطِرازٍ بين دارِ العطّارِ والثلّاجِ
زعموا لي أمرًا وما صحّ لكنْ هو من إفْكِ شيخنا الحلّاجِ

وهذه المذاهب قديمة، تنتقل في عصر بعد عصر، ويقال إن فرعون كان على مذهب الحلولية، فلذلك ادّعى أنه رب العِزّة.

وحُكي عن رجلٍ منهم أنه كان يقول في تسبيحه:

سُبْحانك سُبحاني غُفرانك غُفراني

وهذا هو الجنون الغالب، إنّ من يقول هذا القول معدود في الأنعام، ما عرف كُنْه الإنعام. وقال بعضهم:

أنا أنتَ بلا شكٍّ فسُبحانُك سُبحاني
وإسخاطُك إسخاطي وغُفرانُك غفراني
ولِمْ أُجلَدُ يا ربّي إذا قيل هو الزاني

وبنو آدم بلا عقول، وهذا أمر يلقَنه صغير عن كبير، فيكون بالهلكة أوْفى صبير: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

ويُروي لبعض أهل هذه النِّحْلة: ٢،٢،٢٩

رأيتُ ربّي يمشي بلالَكةٍ في سوق يحيى فكدتُ أنفطرُ
فقلت: هل في اتصالنا طَمَعٌ؟ فقال: هيهاتَ! يمنع الحَذَرُ
ولو قضى اللهُ أُلفةً بهوًى لم يلكُ إلّا السجود والنّظرُ

وتؤدّي هذه النّحلة إلى التناسخ، وهو مذهب عتيق يقول به أهل الهند، وقد كثر في جماعة من الشّيعة، نسأل الله التوفيق والكفاية.

ويُنشَد لرجل من النُّصَيْريّة:

اعْجَبي أُمَنا لصَرف اللّيالي جُعلتْ أُختُنا سُكينةُ فارَهْ
فازجُري هذه السّنانير عنها واتركيها وما تضُمّ الغِرارَهْ

وقال آخر منهم:

تبارك اللهُ كاشِفُ المِحَنِ فقد أرانا عجائبَ الزّمنِ
حمارُ شيْبانَ شيخ بلدتنا صُيِّره جارُنا أبو السكَنِ
بُدّل من مَشْيه بحُلّته مِشْيتَه في الحِزام والرَّسَنِ

ويصوّر لهم الرأيُ الفاسد أباجيرَ ومشبَّهات، فيسلكون في تُغُلِّسَ وفي التُّرّهات.

وحُكي لي عن بعض ملوك الهند، وكان شابًّا حسناً، أنه جُدّر فنظر إلى وجهه في المرآة وقد تغيّر، فأحرق نفسه وقال: أريد أن ينقلني الله إلى صورة أحسن من هذه.

٣،٢،٢٩ وحدّثني قوم من الفقهاء، ما هم في الحكاية بكاذبين، ولا في أسباب النِّحَل جاذبين، أنهم كانوا في بلادِ محمود وكان معه جماعة من الهند قد وثِق بصَفائهم، يُفيض عليهم الأعْطِيَة لوفائهم، ويكونون أقرب الجند إليه إذا حلّ وإذا ارتحل، وأن رجلاً منهم سافر في جيشٍ جهّزه محمود، فجاء خبره أنه قد هلك بموت أو قَتْل، فجمعت امرأته لها حَطَباً كثيرًا وأوقدت نارًا عظيمة واقتحمتها والنّاس ينظرون، وكان ذلك الخبر باطلاً، فلمّا قدِم الزّوج أوقد له نارًا جاحمةً ليحرق نفسه حتى يلحق بصاحبته، فاجتمع خلق كثير للنّظر إليه، وأنّ أصحابه من الهند كانوا يجيئون إليه فيوصونه بأشياءَ إلى أمواتهم:

هذا إلى أبيه وهذا إلى أخيه. وجاءه إنسان منهم بوَرْدة وقال: أعْطِ هذه فلاناً يعني ميتاً له، وقذف نفسه في تلك النار.

وحدّث من شاهد إحراقهم نفوسَهم أنهم إذا لذعتهم النار أرادوا الخروج فيدفعهم مَن حضر إليها بالعصِيّ والخُشُب. فلا إلهَ إلا الله، ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾.

وفي الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقده، يتوصَّل به إلى الدنيا الفانية، وهي ٤،٢،٢٩
أغدر من الوَرْهاء الزّانية.

وكان لهم في المغرب رجل يعرف بابن هانئ وكان من شعرائهم المُجيدين، فكان يغلو في مدح المُعِزّ أبي تميم مَعَدٍّ غُلُوًّا عظيماً حتى قال يخاطب صاحب المِظَلّة:

أمُديرَها من حيثُ دارَ لَشَدَّ ما ... زاحمتَ تحت رِكابه جبريلا

وقال فيه وقد نزل بموضع يقال له رَقّادة:

حلَّ برقّادةَ المسيحُ ... حلَّ بها آدَمٌ ونُوحُ
حلّ بها الله ذو المعالي ... وكلّ شيءٍ سِواه ريحُ

وحضر شاعر يعرف بابن القاضي بين يدي ابن أبي عامر صاحب الأندلس فأنشده قصيدة أوَّلها:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ ... فاحكمْ فأنت الواحدُ القهّارُ

ويقول فيها أشياء، فانكر عليه ابنُ أبي عامر، وأمر بجلْده ونفْيه

وأدلُّ رُتب الحلاّج أن يكون شَعْوَذيّا، لا ثاقبَ الفهم ولا أحْوَذيّا، على أنّ الصوفية تعظّمه منهم طائفةٌ، ما هي لأمره شائفة.

١،٣٠ وأمّا ابن أبي عَون فإنه أخذ في لون بعد لون، غُرّ البائس بأبي جعفره، فما جعل رِسْله في أوفره؛ وقد تجد الرّجلَ حاذقاً في الصناعة، بليغاً في النّظر والحُجّة، فإذا رجع إلى الدّيانة ألْفَى كأنه عَيْر مقتاد، وإنمّا يتبع ما يعتاد.

٢،٣٠ والتألّه موجود في الغرائز، يُحسَب من الأجلاء الحرائز، ويلقَن الطّفلُ الناشئ ما سمعه من الأكابر، فيلبث معه في الدّهر الغابر. والذين يسكنون في الصوامع، والمتعبدون في الجوامع، يأخذون ما هم عليه كنقل الخبر عن المُخبّر، لا يميّزون الصدّق من الكذب لدى المعبّر، فلو أنّ بعضهم أُلفي الأُسرةَ من المَجوس لخرج مجوسيّا، أو من الصّابئة لأصبح لهم قريناً سِيّا. وإذا المجتهد نكب عن التقليد، فما يظفَر بغير التبليد. وإذا المعقول جُعل هاديا، نقع بريّه صاديا، ولكن أين من يصبِر على أحكام العقل، ويصقُل فهمه أبلغَ صَقْل؟ هيهات! عُدِم ذلك في مَن تطلُع عليه الشمس، ومَن ضَمِنه في الرِّمَم رَمْس، إلا أن يَشِذّ رجلٌ في الأُمم، يُخَصّ مِن فَضل بعَمَم.

ربمّا لقينا مَن نظر في كُتب الحكماء، وتبع بعض آثار القدماء، فألفيناه يستحسن قبيح الأمور، ويبتكر بلُبّ مغمور، إنْ قدر على فظيعٍ ركِبَه، وإن عرف واجباً نكّبه، كأنّ العالَم سعوْا له في إفقاد، فهو يعتقد شرَّ اعتقاد؛ وإنْ أُودِعَ وديعةً خان، وإن سئل عن شهادةٍ مان، وإن وصف لعليل صفةً فما يحفل أقتَلَه بما قال، أم ضاعف عليه الأثقال؛ بل غرضُه فيما يكتسب، وهو إلى الحكمة منتسب.

ورُبّ زارٍ بالجَهالة على أهل مِلّة، وعِلّته الباطنة أدهى علّة، وإن البشر لكما جاء في الكتاب العزيز ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾.

٣،٣٠ والإماميّة تقرّبوا بالتّعفير، فعدّه بعض المتدينةِ ذنباً ليس بغفير، ويحضر المجالسَ أُناس طاغون، كأنهم للرَّشَد باغون، وأولئك، عِلم الله، أصحاب البِدَع والمكْر، ومن لك بزنج في دِكْر!

كم متظاهر باعتزال، وهو مع المخالف في نِزال! يزعم أنّ ربّه على الذّرّة يُخلّد في النار، بَلْهَ الدّرهم وبَلْهَ الدّينار، وما ينفكّ يحتقب من المآثم عظائمَ، ويقع بها في أطائم.

وينهمك على العِهار والفِسْق، ويظعن من الأوزار الموبقة بأوفى وسْق، ويقنُت على رهط الإجبار، ويُسند إلى عبد الجبّار. يطيل الدأبَ في النهّار والليّل، ويُضمر أنّ شيخ المعتزلة غير طاهر الرُّدَن ولا الذّيل، فقد صيّر الجدل مَصيدة، ينظم به من الغَيّ قصيدة.

وحُدّثتُ عن إمام لهم يوقَّر ويُتبَع، وكأنه من الجهل رُبَع، أنه كان إذا جلس في الشَّرب، ودارت عليهم المُسْكِرة ذات الغَرب، وجاءه القَدَح شرِبَه فاستوفاه، وأشهدَ مَن حضره على التوبة لما اقتفاه.

٤،٣٠ والأشعريّ إذا كُشف ظهر نُمِيّ، تلعنه الأرضُ الرّاكدة والسَّمِيّ، إنما مَثَلُه مَثَل راعٍ حُطَمة، ويخبط في الدهماء المظْلِمة، لا يحفل علامَ هجم بالغنم، وأن يقع بها في اليَنَم، وما أجدرَه أن تأتي بها سَراحينُ، تضمنُ لجميعها أن يَحين! فمَن له أيسرُ حِجى، كأنمّا وُضع في دُجى، إلا من عصمه اللهُ باتّباع السّلف، وتحمُّل ما يُشرَع من الكُلَف:

وإنّا ولا كُفرانَ لله ربّنا لكالبُدْن لا تدري متى حَتْفُها البُدْنُ

إن تشعّر قلّد المسكينُ سواه، فإنمّا وثق بمن أغواه، وإن بحث عن السِرّ وتبصّر، أقصر عن الخبر وقصَّر.

٥،٣٠ والشيعة يزعمون أن عبد الله بن ميمون القدّاح، وهو من باهلةَ، كان من عِلّية أصحاب جعفر بن محمد، عليه السلام، وروى عنه شيئًا كثيرًا، ثم ارتدّ بعد ذلك. فحدّثني بعض شيوخهم أنهم يروون عنه ويقولون: حدّثنا عبد الله بن ميمون القدّاح كأحسنِ ما كان، أي قبل أن يرتدّ. ويروون له:

هاتِ اسقني الخمرةَ يا سَنْبَرُ فليس عندي أينَ أُنْشَرُ
أما ترى الشِّيعة في فِتْنةٍ يغُرّها من دينها جعفرُ؟
قد كنتُ مغرورًا به بُرهةً ثمّ بدا لي خبرٌ يُستَرُ

ومِمّا يُنسب إليه:

مشيتُ إلى جعفر حِقبةً فألفيتُه خادعًا يخلُبُ
يجُرّ العلاء إلى نفسه وكُلًّا[1] إلى حَبله يجذِبُ
فلو كان أمرُكُم صادقًا لما ظلَّ مقتولكم يُسْحَبُ
ولا غَضّ منكم عتيقٌ ولا سما عُمَرٌ فوقكم يخطُبُ

٦،٣٠ والحلولّية قريبة من مذهب التناسخ، وحُدّثتُ عن رجلٍ من رؤساء المنجّمين من أهل حَرّانَ أقام في بلدنا زماناً،فخرج مرّة مع قوم يتنزهون، فمروا بثورٍ يكرُب، فقال لأصحابه: لا أشُكّ في أنّ هذا الثور رجلٌ كان يُعرف بخَلَفٍ بحرّان، وجعل يَصيح به: يا خلفُ، فيتفق أن يخور ذلك الثورُ، فيقول لأصحابه: ألا ترَوْن إلى صحّة ما خبرتُكم به؟ وحُكي لي عن رجلٍ آخر ممن يقول بالتناسخ أنه قال: رأيت في النّوم أبي وهو يقول لي: يا بُنيّ، إنّ روحي قد نُقلت إلى جَمَلٍ أعورَ في قِطار فلانٍ، وإني قد اشتهيت بِطّيخةً. قال: فأخذت بطّيخة وسألت عن ذلك القِطار فوجدتُ فيه جملاً أعور، فدنوت منه بالبطّيخة، فأخذها أخْذَ مُريد مُشْتهٍ! أفلا يرى مولاي الشّيخ إلى ما رُميَ به هذا البشر من سوء التمّيز، وتحيُّزهم إلى ما يمتنع من التحييز؟

١ في كل الطبعات: (كل) ولعل الصواب ما أثبتناه.

وأمّا ابن الرّاوَنديّ فلم يكن إلى المصلحة بهديّ، وأمّا تاجُه فلا يصلح أن يكون نَعْلا، ولم يجد من عذابٍ وَعْلا، أي مَلْجأ، قال ذو الرُّمّة: ١،٣١

حتّى إذا لم يجدْ وعلاً ونجنجها مخافةَ الرّمْي حتى كُلُّها هِيمُ

ويجوز أن يُنظَم تاجُه عقاربَ، فما كان المُحْسِن ولا المُقارب، فكيف به إذا تُوِّج شَبَواتٍ، أليس يَمْنيه عن تلك الصَّبَوات؟ وهل تاجه إلّا كما قالت الكاهنة: أُفٌّ وتُفّ، وجَوْرَبٌ وخُفّ! ؟ قيل: وما جورب وخُفّ؟ قالت: واديان بجهنّم.

ما تاجه بتاجِ ملك، ولكن دُعي بالمُهْلِك، ولا اتُّخذ من الذّهب، وسوف يصوَّر من اللّهب، ولا نُظم من دُرّ، بل وقع من عَناء بقُرّ، يقال: صابتْ بقُرٍّ، إذا وقعت في موضعها، وأكثر ما يُستعمل ذلك في الشرّ. قال الشاعر:

تُرَجّيها وقد صابتْ بقُرٍّ كما ترجو أصاغرَها عتيبُ

ما تُوِّج من الفضّة، ولا يُقنَع له بالقِضّة، ما هو كتاج كسْرى، لكن طرق بسوءِ المَسْرى، ولا تاج الملك أنوشروان، ولكن أثقل وجرّ الهوانَ، ذلك تاجٌ فَرَسَ عُنُقا، فظُنّ على من تُوِّج به مُحْنَقا. ليس هو كتاج المُنْذِر، ولكن مُنْدِيَةُ غويّ حُذّر، ولا هو كخَزَرات النُّعمان، بل شيْنٌ يُدّخر في الأزمان. وما يُفْقِر مثله إلى أن يُنْقَض منه وبه تقوّض.

وأمّا الدامغ فما إخالُه دمغ إلّا مَن ألّفه، وبسوء الخلافة خَلفه. وفي العرب رجل يُعرف بدميغ الشيطان، وهذا الرّجل كذاوي الخِيطان. وإنما المنكر أنه في الآونة يُذكر. دلّ ممن وضعه على ضعف دماغ، فهل يؤذَن لصوتِ ماغٍ؟ من قولهم: مَغَت الهِرّة إذا صاحت. ١،٢،٣١

رماني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي بريئًا ومن جُول الطويّ رماني

رجع عليه جَحْرُه، وطال في الآخرة بُحْرُه. بئس ما نُسب إلى راوَنْد، فهل قدح في دَباوَنْد؟ إنما هتك قميصَه، وأبان للنظر خميصه.

٢،٢،٣١ وأجمع مُلْحِد ومهتدٍ، وناكبٌ عن المحجّة ومقتدٍ، أنّ هذا الكتاب الذي جاء بن محمد صلى الله عليه كتاب بَهَرَ بالإعجاز، ولقي عدوّه بالإرجاز. ما حُذي على مثال، ولا أشبهَ غريبَ الأمثال. ما هو من القصيد الموزون، ولا الرَّجز من سَهْل وحَزون. ولا شاكلَ خِطابة العرب، ولا سجْع الكَهَنة ذوي الأَرَب. وجاء كالشمس اللائحة، نوراً للمُبسِرَة والبائحة؛ لو فهمه الهضْب الراكد لتصدّع، أو الوعول المُعْصِمة لَراقَ الفادرةَ والصَّدَع: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وإنّ الآية منه أو بعض الآية، لَتعترض في أفصح كَلِم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشّهاب المتلألئ في جُنح غَسَق، والزَّهْرةِ البادية في جدوبٍ ذاتِ نَسَق؛ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ﴾.

١،٣،٣١ وأمّا القضيب فمَن عمِلَه أخسرُ صفْقةً من قضيب. وخيرٌ له من إنشائه، لو رَكِب قضيباً عند عِشائه، فقذفتْ به على قَتاد، ونزعت المَفاصل كنَزع الأوتاد:

إنّ الطِّرِمّاحَ يهجوني لأشْتِمَهُ هيْهاتَ هيْهاتَ عِيلت دونه القُضُبُ

كيف للناطق به أن يكون اقتُضب وهو يافع، إذ ما له في العاقبة شافعٌ. وودَّ لو أنه قضْبة، أو تلتئم عليه الهَضْبة.

وقد صُدَّ أن يكون مثل القائل:

ورَوْحةٍ دُنيا بين حيّيْن رُحْتُها أُسيرُ عَروضاً أو قضيباً أَروضُها

٢،٣،٣١ وقضيبٌ وادٍ كانت فيه وَقعةٌ في الجاهلية بين كِندةَ وبين بني الحارث بن كعب فكيف لهذا المائق أن يكون قُتل في قضيب، وسقط في إهابه الخضيب. فهو عليه شرٌّ من قضيب الشجرة على الساعية، ومن له أن يظفَر بمنطق الناعية؟ وكيف له أن يُجدَّع

بقضيبٍ هنديّ ويُلبَس مما لفظ به ثوبَ المفديّ؟ لقد أنزل الله به من النّكال، ما لا يُدفع بحمل الأنكال؛ فهو كما قال الأوّل:

فلم أرَ مغلوبَيْن يَفْري فريَنا ولا وقْعَ ذاك السَّيف وقْعَ قضيبِ

وهذا البيت يُستشهد به، كما علم، لأنه قال: مغلوبَيْن يفري، وإنما يجب أن يُقال: يفريان، ولكنه أجرى الاثنين مجرى الجمع. ومثله قول الرّاجز:

مثلُ الفراخ نَتَقَتْ حواصلُهْ

٤،٣١ وأما الفريد فأفرده من كلّ خليل، وألبسه في الأبد بُرْد الذليل. وفي كِندةَ حيٌّ يُعرفون بالحيّ الفريد، وهم بنو الحارث بن عديّ بن ربيعة بن معاوية الأكبر بن الحارث الأصغر ابن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية بن ثور بن مرتِّع بن معاوية بن ثورٍ، وهو كندة؛ وأصحاب النّسب يقولون: كنديّ بن عُفَيْر بن عديّ بن الحارث بن مُرّة ابن أُدَد بن زيد بن يَشْجُب بن عَريب بن زيد بن كَهلان بن سَبَأ، وإنما قيل لهم الحيّ الفريد، لأنّ بني وهبٍ حالفوا بني أبي كَرِبٍ وبني المِثْل ولم يدخل معهم بنو الحارث ولا مع بني عديّ، فقيل لهم الحيّ الفريد.

ومن انفرد بعِزّةٍ لوَقارته، فإنّ فريد ذلك الجاحدِ ينفرد لحَقارته، كأنه الأجرب إذا طُلي بالعَنيّة، فرّ من دُنُوّه من يرغب عن الدنيّة. وإذا جذِلت الغانيةُ بفريد النظام، فهو قلادة مآثم عِظام. وذكر أبو عُبيدة أنّ في ظهر الفَرَس فَقارةً يقال لها الفريدة، وهي أعظم الفَقار. فلو حُمل فريد ذلك المتمرّد على جواد لَحطم فريدتَه، أو زيّن به المحبُّ الغانيةَ لأهلَكَ خريدتَه.

٥،٣١ وأما المَرجان فإذا قيل إنه صِغار اللؤلؤ، فَمعاذَ الله أن يكون مرجانُه صغارَ حَصى، بل أخسُّ من أن يُذكر فيُنتصى. وإذا قيل إنه هذا الشيء الأحمر الذي يجيء من المغرب، فإن ذلك له قِيمة، وخسارةُ كتابه مُقيمة، وإنما هو مَرَجان، من مرجْتُ الخيلَ بعضها مع

بعض، وتركتها كالمهملة في الأرض، أو لعلّه مُرُّ جانٍ من جَنى الشجرة أو مَرَّ جانٌّ من الشياطين الفَجَرة، أو جانٌّ من الحيّات المقتولة بأيسر الأمر، والمبغَّضة إلى المنفرد والعَمْر، أي الجماعة من الناس.

١،٣٢ وأمّا ابن الرومي فهو أحدُ مَن يقال إنّ أدبه كان أكثر من عقله، وكان يتعاطى علم الفلسفة، واستعار من أبي بكر بن السرّاج كتابًا فتقاضاه به أبو بكر، فقال ابن الرومي: لوكان المشتري حَدَثًا لكان عَجولًا.

والبغداديون يدّعون أنه متشيّع، ويستشهدون على ذلك بقصيدته الحِميريّة، وما أراه إلا على مذهبِ غيره من الشعراء.

ومن أُولِع بالطِّيرة، لم ير فيها من خِيرة، وإنما هي شرٌّ متعجل، وللأنفُس أَجَلٌ مؤجَّل، وكلّ ذلك حَذَرٌ من الموت الذي هو رِبقٌ في أعناق الحيوان، حُكِم لقاؤه في كلّ أوان.

وفي الناس من يُظَنّ أنّ الشيء إذا قيل جاز أن يقع، ولذلك قالت العامّة: الإرجاف أوّلُ الكون. ويقال: إن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، تمثّل بهذا البيت ولم يتمّمه:

تفاءلْ بما تهوى يكُنْ فلَقَلّما يقال لشيءٍ كان إلا تحقّقا

ومهما ذهب إليه اللبيب، فالخير في هذه الدّنيا قليل جدًّا، والشرّ يزيد عليه بأجزاءٍ ليست بالمُحْصاة، وما أشبهَ ذوي التُّقى بالعُصاة، كلّهم إلى التلف يُساقون، يلقوْن ما كُرِه ولا يُعاقون، ولعلّ الله، جلّت قُدرته، يميّزهم في المنقلَب، ويسعف بمُراده أخا الطَّلب.

وقال علقمة:

ومن تعرّض للغِربان يزجُرها على سلامته لا بُدّ مشؤومُ

وكان ابن الرومي معروفًا بالتطيّر، ومَن الذي أُجري على التخيّر؟ وقد جاءت عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أخبار كثيرة تدُلّ على كراهة الاسم الذي ليس بحسنٍ، مثل مُرّةَ وشِهاب والحُباب لأنه يتأوّله في معنى الحيّة.

٢،٣٢ ونحوٌ من حكاية ابن الرومي التي حكاها الناجم ما حُكي عن امرأة من العرب أنها قالت للأخرى: سمّاني أبي غاضيةَ، وإنما تلك نار ذاتُ غَضى، فالحمد لربّي على ما قضى، وتزوجتُ من بني جَمْرةَ رجلًا أحرق، وما أمرق، أي لم يكثُر مَرَقُه، وكان اسمه

تَوَرّبًا وإنما ذلك تُراب، فشمِتتْ بي الأتراب، وكان أبوه يُدعى جندلةَ فعضِضتُ عنده بالجندل، وما شممتُ رائحة مَنْدَل، وكان اسم أمّه سَوّارة فلم تزل تساورني في الخِصام، ولا تنفعني بعِصام. فقالت الأخرى: لكن سّماني أبي صافيةَ، فصفوتُ من كلّ قَذى، وجُنّبتُ مواقع الأذى، وزوّجني في بني سعد بن بكر فبكّر عليّ السعد، وأُنجز لي الوعد. واسم زوجي مُحاسِن، جُزيَ الصالحةَ، فقد حاسَن وما لاسَن، واسم أبيه وقّاف، رعاه الله، فقد وقف عليَّ خيرَه، وأكثر لديّ مَيره، واسم أمّه راضية، رضيتْ أخلاقي، ولم تجنح إلى طلاقي.

وإذا كان الرّجل خُثارِما، لم يزل في الكَتْكَث آرما: إن رأى سَمامة من الطير، حسِبها من السِّمام، أو حَمامةً فرِق من الحِمام، كما قال الطائي: ٣،٣٢

هُنّ الحَمام فإن كسرتَ عِيافةً من حائهنّ فإنّهن حِمامُ

وإن عرضت له خنساءُ من البشر، فإنه لا يأمن من الشرّ، يقول: أخاف من رفيقٍ يخنِس، وأمرٍ يُدنِس. وإن كانت الخنساء من الوحوش، نفر قلبُه من الحوش، إنْ رآها سانحةً، هزّت من رُعبه جانحة. يقول: قد ذهب أهل عقلٍ وافر، من أرباب المناسم وصحب الحافر، يتطيرون بالسنيح، ويرهبون معه ذهاب المنيح. وإن أتته بقَدَرٍ بارحة، عايَن بها النجْلاء الجارحة، يقول: ألم يك ذو وخيلٍ وسروج، يخشوْن الغائلة من البروج؟ وإن لقي رجلاً يُدعى أخنس، فكأنما لقي هِزَبْرًا تَبَهْنَس. يقول: ما يؤمنني أن يكون كأخنس بني زُهرةَ فرّ بحُلفائه عن وفْر، وطُرحت القتلى في الجفْر؟ وإن استقبل من يولَع بذلك أعفر، فإنه ينتظر أن يعفّر، وإن بصُر بالأدْماء، أيقن بسفك الدماء، وإنْ جبهه ذيّال، فكأنه الهَصور العيّال؛ يقول: ما أقربَني من إذالةٍ، تُبطل كلام العذّالة! وإن آنس نَعامةً بقفْرٍ، وهو مع الرَكْب السّفْر، فما يأخذها من النعيم، ويجعلها بالهلكة مثل الزعيم. يقول، من الفَنَد والعِيّ: أوّلها نَعًى وإنما ذلك من النعيّ. وإن عنّ له في الخَرْق ظليم، فذلك العذاب الأليم. يقول: ليت شعري مَن الذي يظلِمني، أيأخذ نَشَبي أم يكلِمني؟

وإن نظر إلى عُصفورٍ، قال: عَصْفٌ من الحوادث بوفورٍ، فهو طولَ أبده في عَناء، ولا بُدّ له من الفَناء.

ولهذه الطويّة جعل ابن الرّومي جعفرًا من الجوع والفِرار، ولو هُدي صَرَفَه إلى النهر الجرّار، لأن الجعفر النهر الكثير الماء، ولكنّ إخوان هذه الخليقة، لا يحلون الأشياء الواردة على الحقيقة. ٤،٣٢

وأراد بعضهم السفر في أول السنة فقال: إن سافرتُ في المحرّم، كنت جديرًا أن أُحرَم، وإن رحلت في صَفَر، خشِيت على يدي أن تَصفَر، فأخّر سفرَه إلى شهر ربيعٍ، فلمّا سافر مرِض ولم يَحْظَ بطائل، فقال: ظننته من ربيع الرياض، فإذا هو من ربْع الأمراض.

وأمّا إعداده الماءَ المثلوج فتَعِلّة، وما تُتْقَع بالحِيَل غُلّة، وتقريبه الخنجرَ تحرُّز من جَبان، وتُقَض الأقْضية وما بنى البانِ؛ ورُبّ رجلٍ يحتفر له قبرًا بالشام، ثمّ يُحْشمه القَدَر بعيدَ الإحشام، فيموت باليمن أو بالهند، والحَتْفُ بالغائرة والفِنْد: ﴿ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وكما أنّ النفس جهِلت مَدفنَ عِظامها، فهي الجاهلة بالقاطع لنظامها. كم ظانّ أنه يهلِك بسيف، فهلك بجَرَمن خيفٍ.

ومُوقِن أنّ شَجَبه يُقْدَر على مِهادٍ، فألقتْه الأَسَل ببعض الوِهاد.

والبيتان اللّذان رواهما الناجم عن ابن الرومي مقيَّدان، وما علمتُ أنه جاء عن الفصحاء هذا الوزن مقيّدًا، إلا في بيتٍ واحدٍ يتداوله رُواة اللغة، والبيت:

كأن القوم عُشُّوا لحمَ ضأنٍ فهم نَعِجون قد مالت طُلاهمْ

وهذا البيت مؤسَّس، والذي قال ابن الرومي بغير تأسيسٍ.

وما يدري النّاجم، ولعّله بالفكر راجم، أفي الجنّة حصل ذلك الشيخ أم في السعير، وما أثقلَ وُسوقَ العِير!

وأما أبو تمّام، فما أمسك من الدين بزِمام، والحكاية عن ابن رَجاء مشهورة، والمُهجة بعيبها ١،١،٣٣
مبهورة. فإن قُذف في النار حبيب، فما تُغني المِدَح ولا التشبيب. ولو أنّ القصائد لها علم، وتأسف لما يشكو الحِلْم، لأقامت عليه المدودتان اللتان في أوّل ديوانه، مأتمًا يعجَب لأسوانه. فناحتا عليه كابنتيّ لبيد، وجُرْعتاهما من الثُكل نظيرُ الهبيد، وقالتا ما زعمه الكِلابيّ في قوله:

وقُولا هو المـيْتُ الذي لا حريمَه أضاع ولا خان الصديقَ ولا غَدَرْ
إلى الحَوْل ثمّ اسمُ السلام عليكما ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ

وكأني بهما لو قُضي ذلك، لاجتمعت إليهما المدودات، كما تجتمع نساء معدِّدات[1]. فيجئن من كلّ أوْب، ويتواعدن المَحفل على نوْب.

ولو فعلن ذلك لبارتْهن البائيّات بمأتم أعظمَ رنيناً، وأشدَّ في الحِندس حنيناً، كما قال العَبْقَسي:

يجاوبْن الكلابَ بكلّ فجْرٍ فقد صحلتْ من النوْح الحُلوقُ

وإذا كان مأتم المدودات في مائة ممّن يُسعِدهن ويظاهر، وجب أن يكون مأتم ٢،١،٣٣
البائيّات في آلافٍ تُعلِن وتُجاهر، لأن الباء طريقٌ رَكوب، والمدّ في القصائد سبيلٌ منكوب. وما نظمَه على التاء، فإنه لا يعجَز عن الإيتاء.

وتجيء الثائيّتان وكِلْتاهما كابنة الجوْن، وتبتدر في حالك اللون. ولو صُوّرتا من الآدميات، لزادتا على قِيْنَتَي ابن خَطَلٍ في المرئيّات، وإنّ الثاء لقليلةٌ في شعر العرب إلا أنهما تستعينان كلمة كُثيّر:

حِبالُ سلامةَ أضحت رِثاثا فسُقْياً لها جُدُدًا أو رِماثا

---

١ في كل الطبعات: (المعدودات) ولعل الصواب ما أثبتناه.

وبأراجيز رؤبةَ وما كان نحوها من القوافي المتكلفَة، والأشعار المتعسَّفة، ولهما فيما نظم ابن دُريد، أعوانٌ بالعَجَل والرُّويد. فأمّا الداليّات والرائيّات وما بُني على الحروف الذُلُل: كالميم والعين واللام وما جرى مجراهنّ، فلو اجتمع كلّ حيّزٍ منهن وهو خِراد[1]، لضاق عنهنّ الصدرُ والإيراد، وزِدْن على ما ذُكر أنه اجتمع في جنازة أحمد بن حنبل من النساء والرجال، ويقال إنه لم يجتمع في الجاهلية ولا الإسلام جمعٌ أكثر ممّا اجتمع في موت أحمد، حُزِر الرجالُ بألف ألف، والنساء بستّمائة ألف، والله العالم بيقين الأشياء.

١،٢،٣٣ وإن كان حبيب ضيَّع صلواتِه، فإنه لضالٌّ بفَلَواته، لا يبلغ فيه كيدُ العُداة، ما بلغ إهمالُ غَداة. كم ضِدٍّ نَكَص عنه ذا بُهْر، وليس كذلك صلاة الظُهر، إنْ تركها فإنها شاهدة، وفي الشكيّة له جاهدة. وكم من قصرٍ، يُشيَّد في الجنة بصلاة العصر، ومِسكٍ في الجنة متأرّج، لمصلّي المغرب ليس بالحَرِج، وحُورٍ أُنْشئن ببديع الإنشاء، لمن حافَظ على صلاة العِشاء، وقد جاء في الحديث النهْيُ أن تُسمّى العَتَمَة. ورُوي: لا تُخَدعوا عن اسم صلاتكم فإنما يُعتَم بحِلاب الإبل، وفي حديثٍ آخر: إنّ العَتَمَة اسمُ بنتِ الشيطان.

٢،٢،٣٣ وإنّ من يعجز عن أداء تلك الرَكَعات، لَيشتمِلُ على نيّة عات. فليت حبيباً قرن بين الصلاتيْن، فجعلهما كهاتيْن، كما قال القائل:

قرن الظهرَ إلى العصر كما تُقْرَن الحِقّة بالحِقّ الذَكَرْ

وإني لأضَنُّ بتلك الأوصال، أن يظلّ جسدُها وهو بالمُوقَدة صال، لأنه كان صاحب طريقةٍ مبتدَعة، ومعانٍ كاللؤلؤ متتبّعة، يستخرجها من غامضِ بحارٍ، ويفُضّ عنها المستغلِق من المحَار.

---

١ لعل الصواب (وهو حراد) أو (وهي خراد).

وإن ابتدرتْه مَهَنةُ مالكٍ، فقد نُبذ في المهالك، فليته كالجَعْديّ، أو سُلك به مَسلكَ عَديّ، أو كان مذهبُه مذهبَ حاتم فقد كان متألّها، ومن الخَشية متولّها، وقال:

وإنّي لَمَجْزيٌّ بما أنا عاملٌ ويضْطمّني ماويّ بيتٌ مسقّفُ

أو ليتَه لحق بزيد بن مهلهِلٍ، قد وفد على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وطرح عنه ثوبَ الغبي.

١،١،٣٤ وأمّا المازيار، فلآل بالسَّفه سيّار، وحسْبُه ما يتجرّع من الحميم، ويحتمل من المقال الذميم، وقد خلد له في الكتب ما يوجِب لعنَه إلى يوم الدين، وأنَّى له أن يُجعَل كأديمٍ وَدِين! ورحم الله ابن أبي دُواد، فلقد شفى الأنفسَ من الجُواد، وكشف حال الأفْشِين، فعُلم أنّه آلِف شيْنٍ، مخالف رشادٍ وزيْن.

وبابَكُ فتح بابَ الطُّغيان، ووُجد من شِرار الرُّعيان، وأظنّ جهادَه، عليه التَّبار، أفضلَ جهادٍ عُرف، وذنبَه أكبرَ ذنبٍ اقتُرف. ولعله يودّ في الآخرة أنه ذُبح عن كلّ مَن قُتل في عِدّانه، مائةَ مرّة في نهَل مِدّانه، ثم خلص من العذاب المطبَق، واستنفذ عنقَه من الرِّبَق.

٢،١،٣٤ والعجبُ لأبي مُسلم، خبط في الجَنان المظلم، وظنّ أنه على شيء، فكان كالمعتمد على الفَيء، حطبَ لنارٍ أكلتْه، وقتل في طاعة وُلاةٍ قتلتْه. وليس بأول مَن دأب لِسواه، وأغواه الطمع فيمن أغواه. وإنما سهِر لأُمّ دَفْرٍ وتبع سَرابًا في قفرٍ، فوجد ذنبَه غير المغتفَر، عند صاحب الدولة أبي جعفر.

١،٢،٣٤ وكلّ ساعٍ للفانية لا بُدّ له من الندم، في أوان الفرقة وحين العدم، فذمُّنا لها يُحسَب من الضلال، كما تمنّى القَنَعَ أخو الإقلال، وهذه زيادة في النَّصَب، وفاز بالسبق حائزُ القَصَب. نذُمّها على غير جِناية، ولم تخُصّ أحدًا بالعِناية، بل أبناؤها في المِحَن سواءٌ، لا تُساعفهم الأهواءُ، وُرُبّ حاملٍ حُزمةَ عضيدٍ، ليس رَثَده بالنضيد، يعجز ثمنُها عن القُوت، ويكابد شَظَف عيشٍ ممقوت، يلِجُ سُلاءٌ في قدمه، ويخضِبه الشائك بدمه، وهو أقل أشجانًا من الواثب على السرير، ينعم برَشْأٍ غرير، يُجمع له الذهبُ من غير حِلٍّ، بإعنات الأُمم وإسخاط الإلّ، وإذا ملأ بطنه من طعام، وسبح في بحرٍ من التَّرَف عامٍ، فتلك النعمُ ولَذّاتُه، تحدُث لأجلها أذاتُه، يختلجه القَدَر على غفولٍ، وغايةُ السَّفر إلى قفول.

وما يدري العاقل، إذا افتكر، أيُّ الشخصين أفضل: أربيبٌ عُقِد عليه إكليل، ٢،٢،٣٤
أم أرقشُ ظلُّه في المَكّ ظليل؟ كلاهما بلغ آرابا، وأحدهما يأكل ترابا، والآخر يُعَلّ بالراح، ويُجتهد له في الأفراح.

وما عِلمنا النُّسُكَ مُوَقّيا، ولا في الأسباب الرافعة مُرَقّيا، والعالَمَ بقَدَرٍ عاملون، أخطأهم ما هم آملون، وما آمَنُ أن تكون الآخرةُ بأرزاق، فتغدو الرّاجحةُ إلى المِهراق، على أن السرّ مُغيَّب، وكلّنا في الملتمَس مُخيَّب، والجاهلُ وفوقَ الجاهل، من ادّعى المعرفة بغِبّ المناهل، واللعنةُ على الكاذبين.

أمّا الذين يدّعون في عليّ، عليه السلام، ما يدّعون، فتلك ضلالة قديمة، ودِيمة من ١،٣،٣٤
الغواية تتّصل بها ديمة، وقد رُوي أنه حرّق عبدَ الله بن سَبأ لمّا جاهر[1] بذلك النبأ.

واعتقاد الكيْسانية في محمد بن الحَنَفية عجيب، لا يصدّق بمثله نجيبٌ، وقد رُوي أنّ أبا جعفر المنصور رُفعت له نار في طريق مكّة في الليلة التي مات فيها، فقال: قاتل اللهُ الحِمْيَريّ، لو رأى هذه النار لظنّ أنها نار محمد بن الحنفية!

وعليٌّ له سابقة، ومحاسنُ كثيرة رائقة، وكذلك جعفر بن محمد ليس شرفه بالثَّمَد.

وقد بلغني أنّ رجلاً بالبصرة يُعرف بشاباش، تزعُم جماعة كثيرة أنه ربّ العِزّة، وتُجْبى ٢،٣،٣٤
إليه الأموالُ الجمّة، ويَحمل إلى السلطان منها قِسماً وافرا، ليكون بما طلب ظافرا، وهو إذا كُشف، ساقطٌ لاقط، يبُذّه إلى الفضل الماقط، والماقط الذي يُكْرى من بلدٍ إلى بلد. وحُدّثتُ أنّ امرأة بالكوفة يُدّعى لها مثلُ ذلك.

وقد سمعتُ من يُخبر أنّ لابن الراوندي مَعاشرَ تذكر أنّ اللاهوت سَكَنَه، وأنه من ٣،٣،٣٤
علمٍ مكّنه، ويخترصون له فضائلَ يشهد الخالقُ وأهلُ المعقول، أنّ كذبها غير مصقول، وهو في هذا أحد الكَفَرة، لا يُحسب من الكرام البَرَرة، وقد أنشد له مُنشِدٌ، وغيرُه التقيّ المرشِد:

---

١ في نسخة الأصل: (هاجر) ويظهر أن الصواب (جاهر) كما أثبتها بنت الشاطئ.

قسمتَ بين الورى معيشتَهم قِسمةَ سكرانَ بيّن الغَلَطِ
لو قَسم الرزقَ هكذا رجلٌ قلْنا له قد جُننتَ فاستعِطِ

ولو تمثّل هذان البيتان لكانا في الإصر، يطولان أَرَمَيْ مصر، فلو مات الفَطِن كَمَدًا لما عُتب، فأين مَهرَب العاقل من شقاءٍ رُتب؟ أكُلّما خدع خادعٌ، أُرسلت من الكفر مَصادعُ؟ والمصادع: السهام. وما حسّنت السوداءُ الغالبة بسفيهٍ دعواه، إلا وافق جَهولاً عواه، أي عَطَفه.

٤،٣،٣٤ وقد ظهر في الضيعة المعروفة بالنَّيْرَب المقاربة لسَرْمِينَ رجلٌ يُعرف بأبي جوْف، لا يستتر من الجهل بجوْف، والجوف أُزيرٌ من أَدَمٍ مشقَّق الأطراف السّافلة تتّزر به الجاريةُ وهي صغيرة، وكان يدّعي النبوّة، ويخبر بأخبار مُضحكة، وتَثبتُ نيّتُه على ذلك ثباتَ المَحَكة، وكان له قُطن في بيت فقال: إنّ قطني لا يحترق وأمر ابنَه أن يُدنيَ سراجًا إليه، فأخذ في العُطب، وصرخت النساء، واجتمعت الجيرة، وإنما الغرض إطفاءً! وحدّثني مَن شاهدَ، أنه كان يُكثر الضحك بغير مُوجِب، ولا عند حدَثٍ معجِب، فقيل له: ممّ تضحك؟ فقال كلاماً معناه إنّ الإنسان ليفرحُ بهيّنٍ قليل، فكيف من وصل إلى العطاء الجليل؟ وكان بيّن الجنون، ليس خَبله بالمكنون، فاتبعه الأغبياء، وكذّب ما يقوله الأنبياء، حتى قتله والي حلب، حرسها الله، وذلك بعد مقتل البطريق المعروف بالدَّوقَس في بلد أفامِيَة، وكان الذي حثّ على قتله جيش ابن محمد بن صَمصامة لأنّ خبره رُقي إليه، فأرسل إلى سلطان حلب، حرسها الله، يقول: اقتلْه وإلا أنفذتُ إليه من يقتله؛ وكان السّلطان يتهاون به لأنه حقير، ورُبَّ شاةٍ نتج منها الوقير، أي قطيع الغنم.

٥،٣،٣٤ وبعض الشّيعة يحدّث أنّ سَلْمان الفارسيّ في نفرمعه جاءوا يطلبون عليّ بن أبي طالبٍ، سلام الله عليه، فلم يجدوه في منزله، فبينا هم كذلك جاءت بارقةٌ تتبعها راعدة، وإذا عليٌّ قد نزل على إجّار البيت، في يده سيف مخضوب بالدم، فقال: وقع بين فئتين من الملائكة، فصعِدتُ إلى السماء لأُصلِح بينهما! والذين يقولون هذه المقالة يعتقدون أن الحسن والحسين ليسا من ولده فحاقَ بهم العذاب الأليم.

أفلا يرى إلى هذه الأمّة كيف افتنّت في الضلالة، كافتنان الرّبيع في إخراج الأكلاء، والوحشِ الراتعة الأطلاء؟ وللكذبِ سُوقٌ ليست للصدق، تجعل الأسدَ من أبناء الفِرَق.

١،٣٥ وأمّا الذي ذكره من بلوغ السِّنّ، فإن الله، سبحانه، خلق مَقرًا وشُهْدا، ورغبةً في العاجلة وزُهدا، وإذا اللبيب أنعم النّظرَ، لم ير الحياة إلا تجذِبه إلى الضَّير، وتحُثّ جسدَه على السيْر؛ فالمقيم كأخي ارتحال، لا تثبت الأقضيةُ به على حال: صبحٌ يتبسّم وإمساء، لا يلبث معهما النَّسّاء، كأنهما سِيدا ضِراءٍ، والعُمر ثلّة في اقتراء، وهما على السّارح يُغيران، فيُفنيان السّائمة ويُبيران.

وإن كان، مكّن الله وطْأة الأدب ببقائه، قد أماط الشيبةَ فإنما أنفقها في طلب علومٍ وآداب، وصيّر[1] طلابَها ألزمَ دابٍ، ولوكان لها على الحيّ تلبُّث، كان لها بنفسه النفيسة تشبُّث، ولكنها بعض الأعراض، لا تشعر بحياة وانقراض.

وإذا كنّا على ذمّ هذه المنزلة مُجمِعين، ولفراقها مُزمعين، فلِمَ نأسف على نأْي الخوّانة؟ إن الأَشاءة لَمِن العَوانة، والأشاءة النخْلة الصغيرة، والعوانة النخلة الطويلة. ومتى أخلص قرينُ الغفلة توبةً، فإنها لا تترك حوْبة، تغسِل ذنوبه غَسْلَ النّاسكة جزيزَ الفُرار، في متدفق سحابٍ مِدرار، كثُر فيه القَهَل والدَّنَس، فأحبَّ رحضَه الأَنَسُ، وكان قد أُخذ عن أثباج غنمٍ بيض، تفوقُ ما يرتَع من الربيض، فعاد وكأنه كافور الطِّيب، أو ما ضحِك من كافورٍ رطيب، والكافور: الطَّلْع، وقيل هو وِعاء الطَّلعة.

١،٢،٣٥ فأمّا الغانيات بعد السبعين، فالأشْيب لديهن كالعاسل يباكر العِين، وقد حُكي أنّ أبا عمرو بن العلاء كان يخضِب، فاشتكى في بعض الأيام، فعاده بعض أصحابه، فقال: تقوم إن شاء الله تعالى من عِلتك. فقال: ما آمُل بعد ستٍ وثمانين. وعاد إليه وقد تماثل فقال: لا تُحدّثْ بما قلت لك. وهذا من ظريف ما رُوي، رغب في تمويهٍ بالخِضاب، وكتم سنّه عن كلّ الأصحاب.

وقد تحدّث بعض طُلاب الأدب أنه، أدام الله تزيين المحافل بحضوره، ذكر التزويجَ يريد الخِدمة، فسرّني ذلك، لأنه دلّ على إقامة بالوطن، وفي قُربه الفرحةُ لذوي الفِطَن.

---

١ في كل الطبعات: صير.

إذ كان كالشجرة الوارف ظِلالُها في الهواجر، والباردِ هواؤها في ناجر، والطيّبِ ثمرُها للذّائق، والأَرجِ نسيمُها للناشق.

وهو يعرف حكاية الخليل عن العرب: إذا بلغ الرجلُ الستّين فإيّاه وإيّا الشوابّ؛ ولا خيرة عند التوابّ، ولكنّ النَّصَف، ممنّ يوصَف: ﴿لا فارِضٌ ولا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذٰلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ﴾

لا تنكحنّ عجوزًا إن أُتيتَ بها واخلَعْ ثيابَك عنها مُمعِنًا هَرَبا
وإنْ أتوك وقالوا إنها نَصَفٌ فإنّ أطيبَ نِصفيْها الذي ذَهَبا

ولعله تُقدَر له كصاحبة أبي الأسود أمّ عمرٍو، ورُبَّ خيرٍ تحت الخُمُر: ٢،٢،٣٥

كثوب اليماني قد تقادمَ عهدُه ورُقْعتُه ماشئتَ في العين واليَدِ

أو كما قال الآخر:

ضِناكٌ على نِيرَيْن أمست لِداتُها بَلِينَ بلى الريطات وهْي جديدُ

وحُكي عن أبي حاتمٍ سهل بن محمد أنه قرأ على الأصمعيّ شعر حسّان بن ثابت، فلمّا انتهى إلى قوله:

لم تُفْنِها شمسُ النهار بشيءٍ غير أنّ الشباب ليس يدومُ

قال الأصمعيّ: وصفها والله بالكِبر، وقد يجوز ما قال، والأشبه أن يكون قال هذا وهي شابّة، على سبيل التأسف، أي أن الأشياء لا بقاءَ لها، كما قال الآخر:

أنتَ نِعْمَ المتاعُ لوكنتَ تبقى غير أنْ لا بقاءَ للإنسانِ

ولو نشِط لهذه المأربة، لتنافست فيه العُجُز والمكتهِلات، وعلتْ خِطبةُ المنهبلات، ٣،٢،٣٥
لأن العاقلة ذاتَ الإحصاف، تجنُب إلى معاشَرة حليف الإنصاف. وهل هو [إلا][1] كما قال الأوّل:

يا عَزُّ هل لكِ في شيخٍ فتى أبدًا وقد يكون شبابٌ غيرَ فِتْيانِ

فليس بأوّلِ مَن طلب نَجوزا، فتزوج على السنِّ عَجوزا، كما قال:

إذا ما أعرض الفَتَياتُ عنّي فمن لي أن تساعفني عَجوزُ؟
كأنّ مَجامع اللحْيَيْنِ منها إذا حَسَرتْ عن العِرْنين كورُ

ويُروى للحارث بن حِلّزة، ولم أجدْه في ديوانه:

وقالوا ما نكحتَ؟ فقلتُ: خيرًا عجوزًا من عُرَيْنةَ ذاتَ مالِ
نكحتُ كبيرة وغنِمتُ[2] مالاً كذاك البيعُ مرتخَصٌ وغالِ

وأعوذ بالله ممّا قال الآخر:

عجوزًا لو أن الماءَ يُسقى بكَفّها لما تركتْنا بالمياه نَجوزُ

وما زالت العرب تحمد الحيزَبون والشَّهلة، ولا تكره مع الشرخ الكهلة. وقد تزوّج النبيّ صلّى الله عليه، خديجةَ ابنة خُويلد وهو شابّ، وهي طاعنة في السّن. وقالت له أمّ سَلَمةَ ابنة أبي أُميّة: يا رسول الله، إني امرأة قد كبِرتُ وما أُطيق الغَيرةَ. فقال: أمّا قولك: قد كبرت، فإنا أكبر منك، وأمّا الغيرة، فإنّي سوف أدعو الله أن يُزيلها عنكِ. وقال الشاعر:

١ أضافتها بنت الشاطئ لمقتضى السياق. ٢ ب: (وغَرِمْتُ).

فما أنا بابنِ رُهْمٍ قد علِمتم ولا ابنِ العاملية فاحْذروني
ولكنّي وُلدتُ بنَجمِ شَكْسٍ لشَمْطاءِ الذوائبِ حيْزبونِ

ولا أشُكّ أنه قد استخدم في مصرَ أصنافَ جَوارٍ، وهن للمآرب مَوارٍ، ولولا أنّ أخا ٤،٢،٣٥
الكَبْرة يفتقر إلى مُعينٍ، لكانت الحَرَامةُ أن يقنع بورد المَعين، فهو يعرف قول القائل:

ما العيْش إلا القُفْلُ والمفتاحُ وغُرفةٌ تخرقها الرّياحُ
لا صَخَبٌ فيها ولا صِياحُ

وحدّثني ابن القِنَّسْرِيّ المُقْرئ، أنه سمعه يسأل عن غلامٍ للخدمة، وربما كان استخدام الأحرار، يمنع من القرار، فقد قال أبو عُبادة: ١،٣٦

أنا من ياسِرٍ ويُسْرٍ ونُخٍ لستُ من عامرٍ ولا عمّارِ
ما بأرض العراق يا قومُ حُرٌّ يفتديني من خِدمة الأحرارِ؟

وأن يخدم نفسَه الوحيدُ، خير من أن يلج بيتَه العبيدُ؛ فطالما أحْوجوا المالكَ إلى ضرب، وأن يتّقيَهم بالعَرَب.

ورُبّ نازلٍ من أهل الأدب في خان، ليس بالخائن ولا المستخان، يخدمه صبيٌّ من الرِّق حُرٌّ، وفي خدمته السَّرَقُ والضُّرّ. وإذا أرسله بالبِتَك، بنات الدرهم، ليأتيه بالطِّبِّيخة حين يكثُر الطبّيخ ويتيح، سِعْرُه المشتعل متيح، سرق في السّبيل القِطَع، وانتهى في الخيانة وتنطّع، ثمّ وقف بالبائع، فغَبَنَه غبنَ الزائع،[1] فأخذ صغيرةً من بِطّيخ، لا تلقى النّاظرَ بمثل الوَرْس اللطيخ. ثم انصرف بها لاعبا، كأنما هَدَى كاعبا، فلم يزل يتلقف بها في الطريق، حتى كسرها بين فريق؛ فاختلط حَبُّها بالحَصْباء، وزهِد في قُربها كلّ الأُرَباء. ويجوز أن يحملها في حال السلامة، ويمضي ليسبحَ مع الفِتْيان، فإذا نزل في الماء اختطفها بعضُ العَرَمة من الصبْيان، فأكلها وهو يراه، لا يحفل بأديمها إذ فراه. وقد يرسله بالغَضارة يلتمس لَبَنا، فيقابل من سوء الرأي غَبَنا، فإذا حصل فيها الهُدَبِد، عثر فإذا هو على الصحراء متلبد، وصارت الفخّارةُ خَزَفًا لا يُراد، يُلغيه النَّسَكة والمُرّاد، فإن كان صاحبه يذهب مذهبَ ابن الروميّ عدَّ أن تحطّم الغَضارة، فناءُ عيشِه ذي الغَضارة؛ فدعا بالحَرَب، وشُدِهَ عن فوات الأرب، وما يصنع بذلك المصْمِقرّ، وقد حان المرتحَل إلى المقرّ؟ ١،٢،٣٦

١ في كل الطبعات: الرائع.

٢،٢،٣٦ وكان في بلدنا غلامٌ لبعض الجُند يزعم، ويصدُق فيما يزعم، أنه كان مملوكًا لأبي أُسامة جُنادة بن محمّد الهَرَويّ بمصر، وكان يأسف لفراقه، ويعجب من جميل أخلاقه، ويقول إنه باعه من أجل العَوْم، فما أوقع غلاءً في السَّوم.

وإنما ذكرتُ ذلك لأنه، عرَّف الله الوقت بحياته، أي طيّبه، ممن قد عرف جُنادةَ وجرّبه.

٣،٢،٣٦ وأمّا أهل بلدي، حرسهم الله، فإذا كان الحظُّ قد أعطاني حُسنَ ظنِّ الغُرباء، فلا يمتنع أن يُعطيَني تلك المنزلة من الرهط القُرَباء. ولكنّهم معي كطلاّب الخُطبة من الأخرس، وحَرّ ناجرٍ من شهر القَرَس.

وسيّدي الشيخ أبو العبّاس المتمتَّع في السّنِّ ولدٌ، وفي المودّة أخٌ، وفي فضله جَدٌّ أو أبٌ. وإنه في أدبه لكما قال تعالى: ﴿وَما لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِعمَةٍ تُجزَى﴾.

١،١،٣٧ وأمّا إشفاق الشيخ - عمر الله خَلَده بالجَذَل، وأراح سمعَه من كلّ عَذَل - فتلك سجيّة الأنيس، لا يختص بها أخو الجُبْن عن الشجاع البئيس. ومن القسوط، تعرُّضٌ بالقنوط. ﴿قُلْ يا عِبادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللهِ﴾.

كم من أديبٍ شرب وطرب ثمّ تاب، وأجاب العُتاب. فقد يضِلُّ الدّليل في ضوء القمر، ثمّ يَهديه الله بأحد الأَمَر، وكم استُنقذ من اللُّجّ غريقٌ، فسَلِم وله تشريق.

وقد كان الفُضيل بن عِياضٍ يَسيمُ في أوبَلِ رياض، ثمّ حُسِب في الزُّهّاد، وجُعل من أهل الاجتهاد.

وربّ خليعٍ وهو فتى، تصدَّر لمّا كبِر وأفتى، ومُغنٍّ بطُنبور أو عُود، قُدر له تولّي السُّعود، فرقي مِنبَرًا للعِظات، من بعد إرسال اللحظات.

ولعله قد نظر في طبقات المغّنين فرأى فيهم عمر بن عبد العزيز، ومالك بن أَنسٍ، هكذا ذكر ابن خُرداذبه، فإن يَكُ كاذبًا فعليه كذبُه.

٢،١،٣٧ والحكاية معروفة أن أبا حنيفة كان يشارب حمّاد عَجَرَد وينادمه، فنسك أبو حنيفة وأقام حمّاد في الغيّ، فبلغه أن أبا حنيفة يذُمّه ويعيبه، فكتب إليه حمّاد:

إن كان نُسكُك لا يتمُّ ... بغير شتمي وانتقاصي
فاقعُدْ وقمْ بي كيف شئـ ... ـتَ مع الأداني والأقاصي
فلطالما زكّيتَني ... وأنا المقيم على المعاصي
أيّام تُعطيني وتأ ... خذُ في أباريقِ الرَّصاصِ

٣،١،٣٧ أليس الصحابة، عليهم رضوان الله، كلُّهم كان على ضلالٍ، ثمّ تداركهم المقتدر ذو الجلال؟ وفي بعض الروايات أن عمر بن الخطّاب خرج من بيته يريد مجمعًا كانوا يجتمعون فيها للقِمار، فلم يجدْ فيه أحدًا فقال: لأذهبنّ إلى الخمّار، لعلّي أجد عنده خمرًا. فلم يجد عنده شيئًا. فقال: لأذهبنّ ولأُسلِمنّ.

٤،١،٣٧ والتوفيق يجيء من الله سبحانه بإجبار، وفيما خوطب به النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: ﴿وَوَجَدَكَ ضالّاً فَهَدَى﴾.

وذكر أبو مَعْشر المَدَنيّ في كتاب المَبْعَث حديثاً معناه أنّ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، ذبح ذبيحةً للأصنام فأخذ شيئاً منها فطُبِخ له، وحمله زيدُ بن حارثة ومَضَيا ليأكلاه في بعض الشِّعاب، فلقيهما زيدُ بن عمرو بن نُفيل، وكان من المتألّهين في الجاهليّة، فدعاه النبيّ صلّى لله عليه وسلّم ليأكل من الطعام، فسأله عنه فقال: هو من شيءٍ ذبحناه لآلهتنا. فقال زيد بن عمرو: إنّي لا آكلُ من شيءٍ ذُبح للأصنام، وإنّي على دين إبراهيم صلّى الله عليه، فأمر النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم زيدَ بن حارثة بإلقاء ما معه.

وفي حديث آخر، وقد سمعته بإسنادٍ: أن تميم بن أوسٍ الداريَّ، والدّار قبيلةٌ من لَخْم، كان يهدي إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، في كلّ سنةٍ راويةً من خمر فجاء بها في بعض السنين، وقد حَرِجت الخمرُ، فأراقها، وبعض أهل اللغة يقول: فبَعَّها.

والمطبوخ إن أسكر فهو جارٍ مجرى الخمر، على أنّ كثيرًا من الفقهاء قد شربوا الجمهوريَّ ١،٢،٣٧
والمُختَّ والمنصَّف، وذُكر عند أحمد بن يحيى ثعلبٍ، أحمدُ بن حنبل وإن كان شرب النّبيذَ قطّ. والنّبيذ عند الفقهاء غير الخمر، فقال ثعلب: أنا سقيتُه بيدي في ختانةٍ كانت لخَلَف بن هشام البزّاز.

فأمّا الطِّلاء فقد كان عمر بن الخطّاب، عليه السّلام، رتبه على نصارى الشام لجنود المسلمين، والمثل السّائر:

هي الخمر تُكْنى الطِّلاءَ كما الذئب يُكنى أبا جعْدةِ

وهذا البيت يُروى ناقصاً كما عَلِم، وهو ينسب إلى عَبيد بن الأبرص وربّما وُجد في النّسخة من ديوانه، وليس في كلِّ النُّسخ. والذي أذهبُ إليه أن هذا البيت قيل في الإسلام بعدما حُرِّمت الخمر.

وإنّما لذّة الشَّرب فيما يعرض لهم من السُّكر، ولولا ذلك لكان غيرُها من الأشْرِبة ٢،٢،٣٧
أعذبَ وأدفأَ، وقال التَّغلبيُّ:

عِلّاني بشربةٍ من طلاءٍ نِعمَت النِّيمُ في شَبا الزَّمهَريرِ

ويروى لدِعْبِل:

عِلّاني بسماعٍ وطِلا وبضيفٍ جائعٍ يَبغي القِرَى

وهذا يُدُلُّ على أن الطِّلا يُسكر ويُروى للهُذَليّ:

إذا ما شئتُ باكَرني غريضٌ وزِقٌّ فيه يِنٌّ أونضيجُ

وقال آخر:

لا تسقِني الخمرَ إلا نِيئةً قُدمتْ تحت الخِتام فشرُّ الخمر ما طُبخا

وإن كان، هيّأ الله له المحابَّ، قد شرب نيّا، وقال له الندمان: هنيّا، فله أُسوةٌ بشيخ الأزد ٣،٢،٣٧
محمد بن الحسن إذ قال:

بل رُبَّ ليلٍ جمعتْ قُطريّه لي بنتُ ثمانين عروسٌ تُجتلَى

ثمّ قال في آخر القصيدة:

فإن أمُتْ فقد تناهت لَذّتي وكلُّ شيءٍ بلغ الحدَّ انتهى

وما أختار له أن يأخذ بقول الحكَميّ:

قالوا كِبِرتَ فقلتُ ما كِبِرتْ يدِي عن أن تسير إلى فمي بالكاسِ

وهو يعرف البيت:

وما طبخوها غيرَ أنّ غلامَهم سعى ليلةً في كرْمها بسِراج

وقول عبد الله بن المعتزّ:

ذكَرَ العِلجُ أنهم طبخوها فرَضِينا ولو بعُودِ خِلالِ

٤،٢،٣٧ وقِدْماً طلب النَّدامى مطبوخا، شُبّانًا في العمر وشيوخا، ينافقون بالصِّفة ويوارون، وعن الصّهباء العاتقة يُدارون، وأبياتُ الحسين بن الضّحاك الخليع التي تُنسَب إلى أبي نواس معروفةٌ:

وشاطريِّ اللّسان مختلقِ الـ ـتّكْريه شابَ المجونَ بالنُّسُكِ
بات بغُمَّى يرتاد صاليةَ الـ ـنّار ويَكني عن ابنة المَلِكِ
دسستُ حمراءَ كالشّهاب له من كفِّ خمّارِ حانةٍ أَفِكِ
يحلِف عن طبخها بخالقه ورَبّ موسى ومُنْشِئِ الفُلُكِ
كأنما نُصبَ كأسِها قمرٌ يكرعُ في بعض أنجُم الفَلَكِ

ومن النِّفاق أن يظهر الإنسان شُربَ ما أجاز شُربَه بعضُ الفقهاء، ويعمِد إلى ذات الإقهاء، فقد أحسن الحَكَميُّ في قوله:

فإذا نزعتَ عن الغَواية فليكنْ لله ذاك النَّزعُ لا للناسِ

١،٣،٣٧ وقد آن لمولاي الشيخ أن يزهد في شيمةِ حُمَيْد، وينصرف عن مذهب أبي زُبيدٍ، وإنَّما عنيتُ حميداً الأَمَجيَّ قائل هذه الأبيات:

شربتُ المدام فلم أُقلِع وعوتبتُ فيها فلم أرجعِ
حُميدُ الذي أَمَجٌّ دارُه أخو الخمر ذو الشَّيبة الأصلعِ
علاه المشيبُ على حبِّها وكان كريمًا فلم يَنزِعِ

وقال آخر:

تُعاتبني في الراح أمٌّ كبيرةٌ وما قولها فيما أراه مُصيبُ
تقول ألا تجفو المدامَ فعندنا من الرّزق تمرٌ مُكْثِبٌ وزبيبُ
فقلتُ رُويدًا ما الزبيب مُفرّحي وليس لتمرٍ في العِظام دبيبُ
فإنّ حُميدًا عُلَّها في شَبابه ولم يصْحُ منها حين لاح مَشيبُ

وإذا تسامعت المحافلُ بتوبته، اجتمع عليه الشُّبان المقتبلون، والأُدباء المتكهّلون، وكلُّ ٢،٣،٣٧
أشْيَبَ لم يبق من عمره إلّا ظِمءُ حِمارٍ، كما اجتمع لسَمَرٍ أصناف السُّمّار، فيقتبسون من آدابه، ويُصْغون المسامعَ لخطابه، وجلس لهم في بعض المساجد بحلب، حرسها الله، فإنها من بعد أبي عبد الله بن خالَوَيْه عَطِلت من خَلْخال وسِوار، ونارت من الأدب أشدَّ النَّوار.

وإذا كان لك بتفضّل الله، أعدَّ معه خَنجرًا كخنجر ابن الرّوميّ، أو الذي عناه ابن هَرْمةَ في قوله:

لا أُمْتِعِ العُوذَ بالفِصال ولا أبتاعُ إلا قريبةَ الأَجَلِ
لا غَنمي في الحياة مُدَّ لها إلا دِراكَ القِرى ولا إبِلي
كم ناقةٍ قد وجأتُ مَنحَرَها بمستهلِّ الشُّؤبوب أو جَمَلِ

فإذ جلس في مجلسه الذي يلتقط أهلُه زهرَ أسحار، بل لؤلؤ بحار، فيكون ذلك الخنجر قريبًا منه، فإذا قُضي أن يمرّ بباب المسجد الكهلُ المرقَّب الذي أراده القائل بقوله:

إذا الكهل المرقَّب غاض أُلْنا ـ ـإلى سِيٍّ له ـ ـفي القَرْو ثانِ
كأنّ الذّارع المغلولـ ـ منها ـ سليبٌ من رجال الدَّيْلانِ

وثب إليه وثْبةَ نَمِر، إلى متخلِّفةِ وقيرِ أمرٍ، أو أمَرَ بعضَ أصحابه بالوثوب إليه، فوجأه بذلك الخنجر وجْأةً فانبعث بمثل الدّم، أو الخالص من العَنْدَم، وقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

فإذا مضى صاحبه مستعْدِياً إلى السّلطان فقال: من فعل ذلك بك؟ فسمّاه له، قال السّلطان بمشيئة الله: لا حُرَّ بوادي عوْفٍ، ما أصنعُ بِجنْثِ الأدب وبقيّة أهله؟ ووطئها تحت قدمه، وحسِبها من زعانف أَدَمه.

ما يفعل ذلك مرّةً أو اثنتين، إلا وحَمَلةُ الذّوارع قد اجتنبت تلك الناحيةَ، ٣،٣،٣٧
كما اجتنب أبو سُفيان بن حرْبٍ طريقَه من خوف النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال حسّان:

إذا أخذتْ حَوْرانَ من رَمْلِ عالِجٍ ـ فـقُولا لها ليس الطريقُ هُـنالكِ

ولا بأسَ إن كان المُعَدُّ مِشْمَلاً يُشتمل عليه في الكُمّ، فإذا ضُرب به ذارع الخمر، ذكر من نظر في كتاب المبتدأ حديثَ طالوتَ لمّا أمر ابنته وهي امرأة داود، صلّى الله عليه، أن تُدْخِله عليه وهو نائمٌ ليقتله. فجعلت له في فراش داود زِقَّ خمرٍ ودسّته عليه، وضربه بالسيف وسالت الخمر، فظنّ أنها الدّم، فأدركه الأسف والندم، فأومأ بالسيف ليقتل نفسه ومعه ابنتُه، فأمسكتْ يدَه، وحدَّثته ما فعلته، فشكرها على ذلك.

ويكون السكرانُ إذا ألَمَّ بذلك المسجد، تُرْتِر ومُرْمِز، كما في الحديث، واستُنْكِهَ، فإن ٤،٣،٣٧
أوجبت الصورةُ أن يُجلَد جُلد، ولا يقتصر له الشّيخ، أغراه الله أن يأمر بالمعروف وينهى عن المُنكَر، على أربعين في الحدَّ على مذهب أهل الحجاز، ولكن يجلِده ثمانين على مذهب أهل العراق، فإنها أوجعُ وأفجع. ويقال إن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،

جلد أربعين، فلمّا صار الأمر إلى عمر بن الخطّاب، عليه السّلام، استقلّها، فشاور عليًا، عليه السّلام، فجعلاها ثمانين.

وإذا صحّت الأخبار المنقولة بأنّ أهل الآخرة يعلمون أخبار أهل العاجلة، فلعلّ ١،٤،٣٧
حواريَّه المعَدّاتِ له في الخُلد، يسألن عن أخباره من يَرِد عليهنّ من الصُّلحاء، فيسمعْن مرّةً أنه بالفُسطاط، وتارةً أنه بالبصرة، ومرّةً أنه ببغداد، وخَطْرةً أنه بحلب. فإذا شاع أمر التوبة، ومات ناسكٌ من أهل حلب أخبرهن بذلك، فسُررن واهتججن، وهنّأهنَّ جاراتهنَّ. ولا ريب أنه قد سمع حكاية البيتين الثابتين في كتاب الاعتبار:

أنعم اللهُ بالخيالين عينا ... وبمسراكِ يا أُميم إلينا!
عَجَبًا ما جزِعتِ من وحشة اللَّحْـ ... ـدِ ومن ظُلمة القبور علينا!

وأعوذ بالله من قومٍ يحثُّهم المشيب على أن يستكثروا من أمّ زَنْبَقٍ، كأنها المُنْجِيَة من ٢،٤،٣٧
بنت طَبَق، كما قال حاتم:

وقد علم الأقوامُ لو أنَّ حاتمًا ... أراد ثراءَ المال كان له وفْرُ
يفُكُّ به العاني ويؤكِل طيِّبًا ... وليست تُعرِّيه القِداحُ ولا اليَسَرُ
أماويّ إن يُصبحْ صَداي بقَفرةٍ ... من الأرض لا ماءٌ لديَّ ولا خمرُ
ترَيْ أنّ ما أهلكتُ لم يكُ ضرّني ... وأنّ يدِي ممّا بخِلتُ به صِفْرُ

وقال طرفة:

فإن كنتَ لا تستطيع دفعَ مَنيَّتي ... فدعْني أُبادرْها بما ملكتْ يدِي

وقال عبد الله بن المعتز:

لا تُطِلْ بالكؤوس مَطْلِي وحبْسي ليس يومي يا صاحبي مثلَ أمسي
لا تَسَلْني وسَلْ مَشيبِيَ عنّي مذ عرفتُ الخمسين أنكرتُ نفسي

فهذا حثّه كثرةُ سِنيه على أن يستكثر من السُّلافة، وما حفِظ حقَّ الخلافة، وإنّ العجَب طمعُه أن يَلي، كأنه في العبادة شِحَبَ وبَلِي، ولكنّ القائل قال لمعاوية بن يزيد:

تلقّاها يزيدٌ عن أبيهِ فخذْها يا مُعاوِيَ عن يزيدا!

٣،٤،٣٧ وقد كان محمّد بن يزيد المبرّد ينادم البُحتريّ ثمّ ترك. وأنا أضِنُّ به، ميّز الله من الغيظ قلبَ عدوّه، أن يكون كأبي عثمان المازني: عوتب في الشّراب فقال: إذا صار أكبر ذنوبي تركُه.

وأمّا إبراهيم بن المهديّ فقد أساء في تعريضه بالكأس لمحمّد بن حازم، ولكن مَنْ عبث بالبَمّ والزِّير، لم يكن في الدّيانة أخا تعزير. وقد رُوي أنّ المعتصم دعا إبراهيم كعادته فغنّاه البيتين اللذيْن يقال فيهما: غنّى صوتَ ابن شكْلة، وبكى إبراهيم، فقال له المتعصم: ما يُبْكيك؟ فقال: كنت عاهدتُ الله إذا بلغتُ ستّين سنةً أن أتوب، وقد بلغتُها. فأعفاه المعتصم من الغناء وحضور الشراب.

٤،٤،٣٧ والتوْبة إذا لم تكن نَصوحا، لم يُلْفَ خَلَقُها منصوحا. وكان في بلدنا رجلٌ مُغْرَمٌ بالقهوة، فلمّا كِبر رغب في المطبوخ، وكان يحضر مع نداماه وبين يديه خُرْدَاذيٌّ فيه مطبَّخةٌ، وعندهم قَدَحٌ واحدٌ، فيشرب هو من المطبوخ ويشرب أصحابُه من النيء، فإذا جاء القدحُ إليه ليشرب، غسله من أثر الخمر وشرب فيه، فإذا فرغ خرداذيُّ المطبوخ رجع فشرب من شراب إخوانه.

١،٣٨ وأمّا مخاطبته غيرَه وهو يعني نفسَه، فهو كقولهم في المثل: إيّاكِ أعْني واسمعي يا جارَة. ولا عُنْدُدَ عن الجِبلّة، يريد المتنسّك أن ينصرف حبُّه عن العاجلة، وليس يقدر على ذلك، كما لا تقدر الظبيّة أن تصير لَبُؤةً، ولا الحَصاة أن تتصوَّر لؤلؤةً: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ ٱلْخاطِئِينَ﴾. وقول القائل في الدّعاء: اللّهمّ اجعلْ وَصَعي بازيا، يكون للسَّفَه موازيا.

ولقد علمتَ ولا أنهاكَ عن خُلُقٍ أن لا يكون امرؤٌ إلا كما خُلِقا

وإنّا لَنجدُ الرّجلَ موقِنًا بالآخرة، مصدّقًا بالقيامة، معترفًا بالوحدانية، وهو يجأ على النابح بعَظْمٍ، وعلى الجارية بعارية نظمٍ، كأنه في الأرض مُخَلَّدٌ، وإن في سهلٌ وجَلَدٌ. وكثير من الذين يتلون الآية: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، وَٱللّٰهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ، وَٱللّٰهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾. وهم بها مصدّقون، ومن خَشْيةِ إلهٰهم مُشْفِقون، يضِنُّون بالقليل التافِه ولا يسمَحون للسائل ولا الوافِه، فكيف تكون حالُ من يُنكر حديث الجزاء، ولا يَقبل عن الفانية حُسن العزاء؟

٢،٣٨ وقد مرّ به حديث أبي طَلْحَةَ، أو أبي قَتادةَ ومعناه أنه خاصَم يهوديًا إلى النبيّ صلّى الله وسلّم، وكان لأبي طلحة حديقةُ نخلٍ، وبينه وبين اليهوديّ خُلْفٌ في نخلةٍ واحدةٍ. فقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم لليهوديّ: أتسمَحُ له بالنخلة حتى أضمن لك نخلةً في الجنة؟ ونَعَتَها رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بنعوت أشجار الجنة. فقال اليهوديُّ: لا أبيع عاجلاً بآجل. فقال أبو طلحة: أتضمن لي يا رسول الله كما ضمِنتَ له حتى أُعطِيَه الحديقة؟ فقال: نعم. فرضي أبو طلحة بذلك. وأخذ اليهوديَّ وذهب إلى حديقته، فوجد فيها امرأته وأبناءه وهم يأكلون من جَناها، فجعل يُدخل إصبعه في أفواههم فيُخرِج ما فيها من التمر، فقالت امرأته: لِمَ تفعل هذا بنيك؟ فقال: إنّي قد بِعتُ الحديقة. فقالت: إن كنت بعتَها بعاجلٍ فبئسَ ما فعلتَ! فقصَّ عليها الخبر، ففرِحتْ بذلك.

ولو قيل لبعض عُبّاد هذا العصر: أعطِ لَبِنةً ذات فِضَّةٍ، لتُعطى في الآجلة لبنةً من فِضَّة، لما أجاب. لو سئل أَمَةً عوراء، يُعوَّض منها في الآخرة بحوْراء، لما فعل. على أنه من المصدِّقين، فكيف من غُذيَ بالتكذيب، وجحد وقوعَ التعذيب؟

٣٠٣٨ وأمّا فاذُوه فلقي طائرَ الحَيْن، متكفّئًا من بين جناحيْن، فلا إلهَ إلا الله، ما أُعِدَّ المِهراس، ليُفْضَخ به الرأس، ولكن ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، والشرُّ يبكُر وينتاب. مَنّتْه نفسُه التوبة، فكانت كصاحبة امرئ القيس لمّا قال لها:

منَيّتنا بغدٍ وبعد غدٍ حتى بخلتِ كأسوإ البُخْلِ

ويُحكى عن أبي الهُذيل العلّاف أنه كان يمرُّ في الأسواق على حمارٍ ويقول: يا قومِ احْذروا توَبةَ غُلامي. وكان له غلامٌ يَعِدُ نفسَه التوبة، فسقطت عليه آجُرّةٌ فقتلته، والدّنيا الغرّارة ختلته.

وأوّلُ ما سمعتُ بأخبار الشيخ، أدام الله تأثيل الفضل ببقائه، من رجلٍ واسطيّ ١،٣٩
يتعرّض لعلم العَروض، ذكر أنه شاهَده بنَصِيبينَ، وفيها رجلٌ يُعرف بأبي الحسين البصري، معلّمًا لبعض العَلَويّة، وكان غلامٌ يختلف إليه يُعرف بابن الدان، وقد اجتاز الشيخُ ببلدنا والواسطيُّ يومئذٍ فيه. وقد شاهدتُ عند أبي أحمد عبد السلام ابن الحسين المعروف بالواجكا، رحمه الله، فلقد كان من أحرار الناس، كُتُبًا عليها سماعٌ لرجلٍ من أهل حلب، وما أشُكُّ أنه الشيخ، أيّد الله شخصَه بالتوفيق، وهو أشهر من الأبلق العَقوق، لا يفتقر إلى تعريف بالقريض، بل يصدَح شرفُه بغير التعريض. قال البكريُّ النسّابة لرؤبة: من أنت؟ قال: أنا ابن العجّاج. قال: قصَّرتَ وعرَّفتَ. وإنما هو في الاشتهار، كما سطع من ضوء نهارٍ، وكما قال الطائيّ:

تحميه لأُلاؤه أو لوَذَعِيّتُهُ من أن يُذال بمَنْ؟ أو مِمَّن الرجُلُ؟

وإن تناسخت الأُممُ في العصور، فهو عليُّ بن منصور الذي مدحه الجُعْفيُّ، فقال والخالق وفيّ:

في مرتبةٍ حجبَ الوَرى عن نَيلها وعلا فسمَّوْه عليَّ الحاجبا

حجب طُلاّبَ الأدب عن تلك الرتبة، ونزل بالمشامخة لا العُتبة.

وأمّا العلماء الذين لقيَهم، فأولئك مصابيح الناجية وكواكب الداجية، وإنَّ في النظر ١،٢،٣٩
إليهم لَشرفا، فكيف بمن اغترف من كلّ بحرٍ وجد غُرفا؟ وإنّما أقول ذلك على الاقتصار، ولعلّه قد نزف بحارَهم بالقلم والفهم، وفتحوا له أغلاقَ البُهَم، جمع بُهْمةٍ وهو الأمر الذي لا يُهتدى له، فأخذ عن الكَلْبيّ سُوَر التنزيل، وفاز بثواب جزيل، فكأنما لقنه إيّاه الرسول، وبدون تلك الدرجة يُبلغ السُّول. أو أخذها عن جبرئيل، فلا غِيَر ولا تبديل. وسهّلوا له ما صعُب من جبال العربية، فصارت حُزونة كتاب سيبويه عنده كالدِّماث، وغِنيَ في اللُّجَج عن ركوب الأرماث.

وأمّا انحيازه إلى أبي الحسن، رحمه الله، فقد كان ذلك الرجل سيّدا، ولمن ضَعُف ٢،٢،٣٩
من أهل الأدب مؤيِّدا، ولمن قويَ منهم وادّا، ودونَه للنُّوَب مُحادّا، وكان كما قال القائل:

وإذا رأيتَ صديقه وشقيقه لم تدرِ أيُّهما ذَوو الأرحامِ

وكما قال الطائيّ:

كلُّ شِعْبٍ كنتم به آلَ وَهْبٍ فهْو شِعبي وشِعبُ كلّ أديبِ

والمثل السائر: على أهلها تجني بَرَاقِشُ. وذكر الصُّوليّ أنه دخل على المتّقي بعدما قتل بنو حمدان محمّدَ بن رائق، فسأله عن أبيات نَهْشَل بن حَرّيّ:

ومولًى عصاني واستبدَّ برأيه كما لم يُطَعْ بالبَقّتيْنِ قَصيرُ
فلمّا رأى ما غِبُّ أمري وأمْره وناءت بأعجاز الأمور صدورُ
تمنّى نئيشًا أن يكون أطاعني وقد حدثتْ بعد الأمور أمورُ

يقال: فعل كذا نئيشًا، أي بعدما فات، قال الشاعر:

إنّك يا قُطيْنُ ولستَ منهم لألأمُ مالكٍ عَقِبًا ورِيشا
تناءت منكمُ عُدُسُ بن زيدٍ فلم تعرفْكمُ إلا نئيشا

وما زال الشُّبّان المُحسّون من أنفسهم بالنهضة، يبغون ما شرُف من المَراهص، وكيف ٣،٢،٣٩
بالسلامة من الواهص؟ والمثل السّائر: رأْيُ الشيخ خيرٌ من مَشْهد الغلام. وربما سار الطالب سَوْرةً، فواجهتْ من القَدَر زوْرة، إنّ الفُفّة من العَيْش، لتُغْني المجتهدَ عن البرْي والرَّيش، ولكن لا مَوْئلَ من القضاء المحتوم، وآهٍ من عُمْرٍ بالتلف مختوم:

وسَوْرةِ عِلمٍ لم تُسَدَّدْ فأصبحتْ وما يُتَمارى أنها سَوْرةُ الجهْلِ

وأمّا حجُجُه الخمس فهو، إن شاء الله، يستغني في المَحْشر بالأُولى منهن، وينظُر في ١،١،٤٠
المتأخرين من أهل العلم، فلا ريبَ أنه يجد فيهم من لم يحجّ، فيتصدّق عليهم بالأربع.

وكأني به وعَماعِمُ الحجيج، يرفعون التلبِيَة بالعجيج، وهو يفكّر في تلبيات العرب وأنها جاءت على ثلاثة أنواع: مسجوع لا وزْنَ له، ومنهوك، ومشطورٍ. فالمسجوع كقولهم:

لبّيكَ ربّنا لبّيكْ والخيرُ كلّه بيديكْ

والمنهوك على نوعين: أحدهما من الرَّجَز، والأخر من المنسرِح، فالذي من الرَّجز كقولهم:

لبّيكَ إنّ الحمدَ لكْ والمُلْكُ لا شريكَ لَكْ
إلا شريكٌ هو لكْ تملكه وما مَلَكْ
أبو بناتٍ بفَدَكْ

فهذه من تلبيات الجاهليّة، وفَدَكُ يومئذٍ فيها أصنام، وكقولهم:

لبّيكَ يا مُعْطِي الأَمِرْ لبّيك عن بِيني النَّمِرْ
جئناك في العام الزَّمِرْ نأمُل غَيثًا ينهمِرْ
يطرق بالسيْل الخَمِرْ

والذي من المنسرح جنسان: أحدهما في آخره ساكنان، كقولهم: ٢،١،٤٠

لبّيكْ ربَّ هَمْدانْ من شاحطٍ ومن دانْ
جئناك نبغي الإحسانْ بكلّ حرْفٍ مِذْعانْ
نطوي إليك الغِيطانْ نأمُل فضلَ الغُفرانْ

والآخر لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم:

لبّيك عن بَجِيلَةَ الفَخْمةِ الرّجِيلَةْ
وِنعْمتِ القبيلَةْ جاءتك بالوسيلَةْ
تؤمّل الفضيلَةْ

وربّما جاءوا به على قوافٍ مختلفة، كما رووْا في تلبية بكر بن وائل:

لبّيك حقًّا حقّا تعبُّدًا ورِقّا
جئناك للنَّصاحَةْ لم نأت للرَّقاحَةْ

والمشطور جنسان: أحدهما عند الخليل من الرجز، كما رُوي في تلبية تميم: ٣،١،٤٠

لبّيك لولا أنّ بَكرًا دونَكا يشكُرُك الناسُ ويكفرونَكا
ما زال منّا عَجَجٌ يأتونكا

والآخَر من السريع وهو نوعان: أحدهما يلتقي فيه ساكنان كما يروُون في تلبية هَمْدان:

لبّيك مَعْ كلّ قبيلٍ لَبُّوكْ هَمْدانُ أبناء الملوك تدْعُوكْ
قد تركوا أصنامَهم وانتابوكْ فاسمعْ دُعاءً في جميع الأُمْلُوكْ

قولهم: لَبُّوك، أي لزموا أمرَك، ومن روى: لَبَّوْك، فهو سِنادٌ مكروه.
والمشطور الذي لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم:

لبّيك عن سَعْدٍ وعن بنيها وعن نساءٍ خلفَها تَعْنِيها
سارت إلى الرحمة تجتنيها

والموزون من التلبية يجب أن يكون كله من الرجز عند العرب، ولم تأت التلبيةُ بالقصيد. ولعلّهم قد لبَّوْا به ولم تنقُله الرُّواة.

٢،٤٠ وكأني به لمّا اعتزم على استلام الركن، وقد ذكر البيتين اللذين ذكرهما المفجَّع في حدّ الإعراب:

لوكان حيّا قبلهنّ ظعائنًا حيّا الحطيمُ وجوهَهنَّ وزمزمُ
لكنه عمّا يُطيف بركنه منهنَّ صمّاءُ الصَدى مستعجمُ

فيعجَب من خروجه من المذكَّر إلى المؤنَّث. وإذا حمل هذا على إقامة الصفة مقامَ الموصوف لم يبعُد.

وكذلك يذكر قولَ الآخر:

ذكرتُكِ والحجيج له عجيجٌ بمكّةَ والقلوبُ لها وجيبُ
فقلتُ ونحن في بلدٍ حرامٍ به لله أخلصَتِ القلوبُ
أتوب إليكِ يا ربّاهُ ممّا جنيتُ فقد تظاهرَت الذنوبُ
فأمّا مِن هوى ليلى وحُبّي لزيارتِها فإنّي لا أتوبُ

فيقول: أليس قال البصريون إنّ هاء النُّدْبة لا تثبُت في الوصل والهاء في قوله: يا ربّاهُ مثلُ تلك الهاء ليس بينهما فرقٌ؟ ولكن يجوز أن يكون مَغْزاهم في ذلك المنثورَ من الكلام، إذ كان المنظومُ يحتمل أشياءَ لا يحتملها سواه.

٣،٤٠ ولعله قد ذكر هذه الأبيات في الطَّواف:

أُطوِّف بالبيت فيمنْ يَطُوفُ وأرفعُ من مِئزَري المُسْبَلِ
وأسجُد بالليل حتى الصّباح وأتلو من المُحْكَم المُنْزَلِ
عسى فارجُ الكرْب عن يوسفٍ يسخِّر لي ربّةَ المحْمَلِ

فقال: ما أيسرَ لفظَ هذه الأبيات لولا أنّه حذف أَنْ من خبرِ عسى! فسبحان الله، لا تَعدم الحسناءُ ذاماً، وأيُّ الرجال المهذَّبُ.

وذكر عند النَّفْر وتفرُّق الناس هذين البيتين: ٤،٤٠

ودِّعي القلبَ يا قُريبَ وجُودي ... لمحبٍّ فراقُهُ قد أَحَمّا
ليس بين الحياة والموت إلا ... أن يردّوا جِمالَهم فتُزَمّا

وقول قيس بن الخطيم:

ديار التي كادت ونحن على مِنًى ... تحُلُّ بنا لولا نجاءُ الركائبِ
ولم أرَها إلا ثلاثًا على مِنًى ... وعهْدي بها عذراءَ ذاتَ ذوائبِ
تبدّت لنا كالشمس تحت غَمامةٍ ... بدا حاجبٌ منها وضنَّت بحاجبِ

وميّز بين هذين الوجهين في قوله: تحلُّ بنا، لأنه يحتمل أن يكون: تحلّ فينا، وقد يجوز أن يريد: تحُلّنا، كما يقال: انزِلْ بنا هاهنا، أي أنزِلْنا، ومنه قوله:

كما نزلَتِ الصّفواءُ بالمتنزَّلِ

وإن كانت الحِجَ التي أتى بها مع مجاوَرةٍ، فقد أقام بمكّة حتى صار أعلَمَ بها من ابن دايةَ بوكْره، والكُدْريّ بأفاحيصه، والحِرْباء بتَنْضُبته. ١،٥،٤٠

وإن كان سافر إلى اليمن أو غيره، وجعل يحُجُّها في كلّ سنة، فذلك أعظمُ درجةً في الثواب، وأجدرُ بالوصول إلى محلِّ الأَوّاب. ولعلّه قد وقف بالمغمَّس وترحَّم على طُفيلٍ الغَنَويّ لقوله:

هل حبلُ شمّاءَ بعد الهجر موصولُ أم أنتَ عنها بعيدُ الدّار مشغولُ؟
إذ هي أحوى من الرّبعيّ حاجبُهُ والعينُ بالإثمد الحاريّ مكحولُ
تَرعى أسِرّةَ مَوْلِيٍّ أطاع لها بالجِزْع حيث عصى أصحابَه الفِيلُ

وإنّما أطلقتُ الترحُّم على طُفيلٍ إذ كان بعض الرواة يزعم أنه أدرك الإسلام، ورُوي له مدحٌ في النبيّ صلّى الله عليه، ولم أسمعه في ديوانه، وهو:

وأبيكُ خيرٍ إنّ إبنَ محمّدٍ عُزُلٌ تناوَحُ أن تهُبَّ شَمالُ
وإذا رأين لدى الفِناء غريبةً فاضت لهنَّ من الدموع سِجالُ
وترى لها حدَّ الشّتاء على الثَّرى رَخَماً وما تحيا لهنّ فِصالُ

وأنشد أبيات ابن أبي الصَّلْت الثَّقَفيّ: ٢،٥،٤٠

إنّ آياتِ ربّنا ظاهراتٌ ما تُمارى فيهنّ إلا الكَفورُ
حبَسَ الفيلَ بالمغمَّس حتى ظلَّ يحبو كأنه معقورُ
كلُّ دينٍ يومَ القيامة عند الـ ـلهِ إلا دينَ الحَنيفة بُورُ

وما عدِم أن تخطِر له أبياتُ نُفيلٍ:

ألا حُيّيتِ عنّا رُدَيْنا نَعِمْنا كم مع الإصباح عينا
رُدينةُ لو رأيتِ فلا تَرَيْهِ لدى جَنْب المغمَّس ما رأينا
إذاً لعذرتِني ورضيتِ أمري ولم تأسَيْ على ما فاتَ بيْنا
حمِدتُ اللهَ إذ أبصرتُ طيراً وحَصْبَ حِجارةٍ تُلقى علينا
وكلُّ القوم يسأل عن نُفَيلٍ كأنّ عليَّ للحُبْشان دينا

وليت شعري أقارنًا أهَلّ أم مُفرِدًا؟ وأرجو أن لا تكون لِقيَتَه بمكّةَ شَهْلةٌ تعرِض عليه ٦،٤٠
فُتيا ابن عبّاسٍ، تحلِف ما بها من باسٍ، فتذكّر قولَ القائل:

قالت وقد طُفتُ سبعًا حول كعبتها هل لك يا شيخُ في فُتيا ابن عبّاسِ؟
هل لك في رَخصة الأطراف ناعمةٍ تُمسي ضجيعَك حتى مَصدَر الناسِ؟

فأمّا المنتسبون إلى جوهرٍ، فالجوهر بعد إدراك الحظِّ، يرجع إلى تغيير وتَشظٍّ، كم دُرّةٍ ٧،٤٠
في تاج مَلِك، لمّا رُميَ بالمُهلِك، فضّتْها من الأسف حظاياه، وهل تَثني من الأجل سراياه؟ وأخرى على نحرِ كعاب، شظّت عن الدَّنَس والعاب، مُنيتْ بالنقابة أو النُّحاز، فجعلتها الوالدة في مِنحاز.

وكأنّي به وقد مرّ بأنطاكِيَة فذكر قول امرئ القيس: ١،٤١

عَلَوْن بأنطاكيَّةٍ فوق عِقْمةٍ كجِرمة نَخلٍ أو كجَنّة يَثْرِبِ

وخطر له أن النَّطك، وهو اللفظ الذي يجب أن يُشتق منه أنطاكية لو كانت عربيّةً، مُهْمَلٌ لم يحكِه مشهورٌ من الثِّقات. ولمّا مرَّ بمَلَطْيةَ أنكر وزنها وقال: فَعَلْيَةُ، مثالٌ لم يُذكر، وإذا حملناها على التصريف وجب أن تكون ياؤها زائدةً لأن قبلها ثلاثةً من الأصول.

وأمّا صديقه الذي جدب عند السَّبْر، فهو يعرف المثل: أَعرِضْ عن ذي قبْر، إذا حجز ١،٢،٤١ دون الشّخص ترابٌ، فقد تقضّت الآرابُ، من لِيم في حال حياته، استحقَّ المعذرة في مماته، ولعله نطق بما نطق في معنى انبساطٍ، لا وهو بالكَلِم ساطٍ، ومَن غفر ذنبَ حيٍّ وهو يُلحِق به الأذاة، فكيف لا يَغفِر له بعد الميتة وقد عَدِم منه الشَّذاة؟ وسلامٌ على رمْسٍ من مُخالسٍ، يُعْدَل بألف تسليمةٍ في المجالس، وهو يعرف ما قالوه في معنى البيت:

وآتي صاحبي حيث ودَّعا

أي أزورُ قبرَه.

وأمّا الذي أنكره من البديه، فولاي الشّيخ مكرَّرٌ في الأدب تكريرَ الحسن ٢،٢،٤١ والحسين في آل هاشم، والوشمِ المرجَّع بكفِّ الواشم، وهل يُعجَب لسَجعةٍ من قُمْريّ، أو قطرةٍ تسبِق من السحاب المَريّ؟ ولو بادَهَ خُزامى عالجٍ بالرائحة لجاز أن يرعَف غضيضَها، أو البروقَ الوامضة لما امتنع أن يُعجِل وميضَها. وفي الناس من يكون طبعُه المماظَةَ، فيؤذي الجليسَ، ويُكثر التدليس، وهو يعلم أنه فاضلٌ، لا ينضُله في الرّمي مُناضل.

والبديه ينقسم أفانينَ، ويصرّف للنفر أظانين. فمنه القَبَل، ولعلّه فيه أَجرى من سَبَل، أو هو السَّبَل. والمراد بسَبَلَ الفرسُ الأنثى المعروفةُ، والسَّبل: المطر. وبديه التّمليط،

ولا تجود الرّاسيةُ بالسَّليط. وبديه الإعنات، وذلك المُوقِظ من السِّنات، وهو يختلف كاختلاف الأشكال، ولا ينهض به ذو الوِكال.

٣،٤١ وأمّا أبو عبد الله بن خالويه وإحضارُه للبحث النُّسَخَ، فإنّه ما عجز ولا أفسخ، أي نَسِيَ، ولكن الحازم يريد استظهارا، ويزيد على الشّهادة الثانية ظِهارا:

أرى الحاجاتِ عند أبي خُبيْبٍ نَكِدْن ولا أُمَيَّةَ في البلادِ

أين كأبي عبد الله؟ لقد عدِمه الشّامُ! فكان كمكّة إذ فُقد هِشام، عنيتُ هشام بن المُغيرة، لأنّ الشاعر رثاه فقال:

أصبح بطنُ مكّةَ مقشعِراً كأنّ الأرض ليس بها هشامُ
يظلّ كأنه أثناءُ سوطٍ وفوقَ جِفانه شَحْمٌ رُكامُ
فلِلكُبراء أكلٌ كيف شاءوا وللصُّغراء حَمْلٌ واقتثامُ

٤،٤١ وأبو الطيّب اللُّغَوي اسمه عبد الواحد بن عليّ، له كتابٌ في الإتباع صغير على حروف المُعجَم في أيدي البغداديين، وله كتابٌ يعرف بكتاب الإبدال، قد نحا به نحو كتاب يعقوب في القلْب، وكتابٌ يُعرف بشجر الدُّرّ، سلك به مَسلك أبي عمر في المُداخل، وكتابٌ في الفَرق قد أكثر فيه وأسهب. ولا شكّ أنه قد ضاع كثيرٌ من كُتبه وتصنيفاته، لأنّ الرّوم قتلوه وأباه في فتح حلب. وكان ابن خالويه يلقبّه قُرموطةَ الكَبَرْثَل، يريد دُحروجةَ الجُعَل، لأنه كان قصيراً.

وحدّثني الثقة أنه كان في مجلس أبي عبد الله بن خالويه وقد جاءه رسول سيف الدولة يأمره بالحضور ويقول له: قد جاء رجلٌ لغويّ، يعني أبا الطيّب هذا، قال المحدّث: فقمت من عنده ومضيت إلى المتنبّي فحكيت له الحكاية، فقال: السّاعة يسأل الرّجلَ عن شوطِ براحٍ، والعِلَوّض، ونحوِ ذلك، يعني أنه يُعنِته.

وكان أبو الطيب اللّغوي بينه وبين أبي العبّاس بن كاتب البَكْتُمُريّ مودّةٌ ومؤانسةٌ، وله يقول:

يا عبدُ إنّك عند القلب جَنَّتُه حُبًّا وإنك عند الطَّرْف ناظرُهُ
أزمعتَ سيرًا فقلْ ما أنت قائلُهُ واذكرْ لراعي الهوى ما أنت ذاكرُهُ
لا أشتكي سَهَرًا طالت مسافتُهُ اللّيلُ يعلم أنّي الدهرَ ساهرُهُ

قوله: يا عبدُ، يريد: يا عبدَ الواحد، كما قال عديُّ بن زيد في الأبيات الصاديّة التي مضت:

غُيّبْتَ عنّي عبدُ في ساعة الشَّرّ وجُنِبتَ أوانَ العَويصْ

يريد عبدَ هِنْدٍ.

وقد كان أبو الطيب يتعاطى شيئًا من النَّظم.

٥،٤١ وقد علم الله أني لا في العِير ولا في النفير، ومن للجارمة بالتكفير؟ كلّما رغبتُ في الخمول، قُدّر لي غيرُ المأمول، كان حقُّ الشّيخ إذا أقام في معرّة النّعمان سنةً أن لا يسمع لي بذكرٍ، ولا أخطرَ له على فِكر، والآن فقد غَمرَ إفضالُه، وأظلّني دوْحُ أدبه لا ضالُه، وجاءتني منه فوائدُ لو تُمثّلت الواحدة منها تُومةً،لم تكن بالصُّحُف مكتومةً، ولاستغنى بثمنها القبيلُ، وعُمِرَ إليها السبيل؛ ينظر منها النّاظرُ إلى جوهرةٍ، مثل الزُّهَرة، كما قال الراجز:

ذَهِبَ لمّا أن رآها تُزْمُرَهْ وقال يا قومِ رأيتُ مُنْكَرَهْ
شَذْرةَ وادٍ إذ رأيتُ الزُّهَرَهْ

وبعضهم يروي: تُرْمُلَهْ، مكان: تُزْمِرَهْ، وهي أكثر الرّوايتين على ما فيها من الإكفاء.

وهو، أدام الله عِزَّ الأدب بحياته، كريم الطبع والكريم يُخْدَع، ومن سمع جاز أن يَخال، والجَندل لا يُنْتِج الرِّخال.

١،٤٢ وأمّا ما ذكره من ميله في مصر إلى بعض اللّذات، فهو يعرف الحديث: أَرِيحوا القلوبَ تَعِ الذِكر. وقال أُحيحة بن الجُلاح:

صحوتُ عن الصِبا واللَّهْوُ غُولُ ونفسُ المرءِ آونةً مَلولُ

وكان ينبغي أن يكون في هذا الوقت يضبط ما معه من الأدب بدرْس من يدرُس عليه، إذ كانت السِنُّ لا بدَّ لها من تأثير، وأن ترمي بقلّةٍ كلَّ كثيرٍ، ولكنَّ قَطرته الفاردة تُغرّق، ونَفَسَه إذا برد يحرِق، وقال رجلٌ من قريش:

لله دَرّي حين أدركني البِلى على أيّما تأتي الحوادثُ أندَمُ؟
ألم أجْتلِ البيضاءَ يبرُق حِجْلُها لها بَشَرٌ صافٍ ووجهٌ مقسَّمُ؟
ولم أصطبحْ قبل العواذل شربةً مُشَعْشَعةً كأن عاتقها الدّمُ

ولعلّه قد قضى الأرب من ذلك كلّه، والأشياء لها أواخر، وإنما العاجلة سَرابٌ ساخر، وقد عاشر ملوكًا ووزراء، فلا مَنْقَصةَ ولا إزراء، وقد سمع نبأ النُعمان الأكبر، إذ فارق مُلكَه فِراق المُعْبَر، وتعوّض من الحرير المُسوح، ورَغِب في أن يسُوح، وإيّاه عنى العِباديُّ في قوله:

وتذكّرْ ربَّ الخَوَرْنَق إذ فكَّـ ـرَ يومًا وللهُدى تفكيرُ
سرَّه مُلكُهُ وكثرةُ ما يمـ ـلك والبحرُ مُعْرِضًا والسديرُ
فارْعوى قلبُهُ فقال وما غِبْـ ـطةُ حيٍّ إلى الممات يصيرُ؟

٢،٤٢ والسُكر محرَّمٌ في كلِّ المِلَل، ويقال: إنّ الهند لا يملِّكون عليهم رجلاً يشرب مُسْكِرا، لأنهم يرونه مُنكَرا، ويقولون: يجوز أن يحدُث في المملكة نبأٌ والملك سَكران، فإذا الملك المتبَّع هَكْران.

لُعنت القهوةُ، فكم تهبِط بها رَهْوةٌ؛ لا خِيرة في الخمر، توطئ على مثل الجَمْر. من اصطبح فيهَجا، فقد سلك إلى الدّاهية مَنْهجا. من اغتبق أمَّ ليلى، فقد سحب في الباطل ذيلا. من غَرِيَ بأُمَّ زَنْبَق، فقد سمح بالعقل المُوبِق. من حمل بالرّاحة راحا، فقد أسرع للرَّشَد سِراحا. من رضي بصُحبة العُقار فقد خلع ثوب الوَقار. من أدمن قَرْقَفا، فليس على الواضحة مُوقَفا. من سَدِكَ بالخرطوم، رجع إلى حال المفطوم. المواظبة على العانيّ، تمنع بلوغَ الأماني. الخيبة لسبيئةٍ، تُخرِج من سرّ كلَّ خبيئةٍ. لا فائدة في الكُميت، جعل حيَّها مثل الميّت. من بُلِيَ بالصَّرْخَديّ، لم يكن من الفاضحة بالمَفْدِيّ. ما أخْوَنَ عهودَ السُّلاف، تنقُض مريرَ الأحلاف. أمّا السُّلافة، فسُلٌّ وآفة. كم شابٍّ في بني كلابٍ مات عَبْطةً، وما بلغ من الدّنيا غِبْطة! رماه بسُحافٍ قاتلٍ، إدمانُ المعتقَّة ذاتِ المَخاتل. من بكر إلى الشَّمول، فرأيه ينظر بطَرْفٍ مسمول. أقلُّ عَنَتًا من كِينة، ليثٌ زأر في العرينة. كم بَرْبَطٍ، عَصَف بجَعْد وسَبْط! كم مِزْهَرٍ، أوقع هاجدًا في السَّهَر! وهو يعرف أبيات المتنخّل:

مما أُقَضّي ومَحارُ الفتى ... للضبْع والشيبةِ والمقْتَلِ
إن يُمْسِ نشْوانَ بمصروفةٍ ... منها بِبَيْءٍ وعلى مِرْجَلِ
لا تَقِهِ الموتَ وَقِيّاتُهُ ... خُطَّ له ذلك في المَحْبَلِ

وينبغي أن يزهّده في الصّهباء الصّافية، أن نداماه الأكرمينَ أصبحوا في الأجداث العافية، كم جلس مع فِتْيانٍ، أتى عليهم الزمنُ كلَّ الإتيان، فكان كما قال الجعْديُّ: ٣،٤٢

تذكّرت والذكرى تَهيج لِيَ الهوى ... ومن حاجة المحزون أن يتذكّرا
نَدامايَ عند المُنْذِر بن مُحَرِّقٍ ... فأصبح منهم ظاهرُ الأرض مُقْفِرا

وهو يعرف الأبيات التي أوّلها:

خليليَّ هُبّا طال ما قد رقدتُما ... أَجِدَّكما لا تقْضيان كَرَاكُما؟

وهل يجز أن يكون كما قال الآخر:

أمّا الطِّلاء فإنّي لست ذائقَها حتى أُلاقِيَ بعد الموت جبّارا

كأنّه كان نديمَه على الطِّلاء، فلمّا رماه التلفُ من غيرِ بلاء، حرَّم عليه شُربَها، حتى تُسكنه الراكدةُ تُربَها.

وسرّتْني فيئةُ الدنانير إليه، فتلك أعوانٌ، تشتبه منها الألوان، ولها على الناس ١،١،٤٣
حقوقٌ، تَبَرُّ إنْ خِيف عقوق.

قال عمرو بن العاص لمعاوية: رأيتُ في النوم أن القيامة قد قامت وجيء بك وقد ألجمك العَرَقُ. فقال معاوية: هل رأيت ثَمَّ من دنانير مِصْرَ شيئاً؟ وهذه لا ريب من دنانير مصر لم تجئ من عند السُّوَق، ولكن من عند الملوك، ولم تكن مَهرَ هَلوك، فالحمد لله الذي سلّمها إلى هذا الوقت ولم تكن كذهبٍ مخزونٍ، صار إلى الحمّارة مع الموزون، كما قال:

وخمَّارةٍ من بناتِ المَجوسِ ترى الزِّقَّ في بيتها شائلا
ورِزنَا لها ذهبًا جامدًا فكانت لنا ذهبًا سائلا

ولا أُلْغِزَ عنها هذا البيت:

دنا نِيرُنا من قَرْنِ ثورٍ ولم يكن من الذهب المضروب بين الصّفائح

لو رآها المرقِّش لَعَلِم أنها أحسنُ من وجوه حبائبه، لمّا غدا الظّاعنُ بربائبه، فقال:

النَّشْرُ مِسْكٌ والوجوه دنا نيرٌ وأطراف الأُكُفِّ عَنَمْ

وإنها لأحسنُ من الوجوه التي ذكرها الجَعديّ، وزعم أن حُسنها بديّ، فقال:

في فُتُوّ شُمّ العَرانِينِ أمثا لِ الدنانير شِفْنَ بالمثقالِ

أُخذتْ من جوائز كرامٍ صِيدٍ، تارةً بالخدمة وتارة بالقصيد، ولم تكن في العِيديّة ٢،١،٤٣
مُرْهَناتٍ، ولا عند الغَرَض مُوهَناتٍ، كما قال ردّادٌ الكِلابيّ:

يطوي ابنُ سَلمى بها عن راكبٍ بُعُرًا عِيديّةً أُرْهِنتْ فيها الدنانيرُ

وهي عند البَلَه والكَيْس، أجْوَدُ من الخاتم الذي ذكره ابن قيسٍ، فقال:

إن ختمتْ جارِ طينُ خاتمها كما تجوز العبْدِيّة العُتُقُ

أراد بالعبدية دنانيرَ نسبَها إلى عبد الملك بن مروان، ويقال إنه أول مَن ضرب الدّنانيرَ في الإسلام.

وجلّتْ عن نقد الصّيرفيّ، وهي الرّواجح لدى الميزان الوفيّ، حاشَ اللهِ أن تكون كما قال الفرزدق:

تَنْفي يداها الحَصى في كلّ هاجرةٍ نَفْيَ الدنانيرِ تنقادُ الصّيارِيفِ

وهذا البيت يُنشَد على وجهين: الدنانير والدراهيم.

ولا هي من دنانير أيلةَ، باع بها البائعُ نُخَيْلة، وإنما ذكروا دنانير أيلةَ لأنها كانت في حيّز الرّوم فتأتيها الدنانيرُ من الشام، قال:

وما هِبْرِزِيٌّ من دنانير أيلةٍ بأيْدي الوُشاةِ مُشْرِقًا يتأكّلُ

الوُشاة: النقّاشون الذين يَشُونه.

ولو رآها الضَّبيّ مُحْرِز، لَشهد أنها حين تبرُزُ، أجلُّ من تلك القَسِمات وإن كانت ٣،١،٤٣
في أوْجُهٍ ذي سِماتٍ، قال:

كأنّ دنانيرًا على قَسماتهمْ وإن كان قد شفّ الوجوهَ لقاءُ

ومعاذَ الله أن تُقْرَن بِحوْذانِ وادٍ، سقتْه روائحُ وغَوادٍ، حتى إذا القَيْظ وَهَج، تمزّق ما لبس وأنهج، قال الشاعر:

ورُبَّ وادٍ سقاه كوكبٌ أَمِرٌ فيه الأوابدُ والأُدْمُ اليعافيرُ
هبّطتُهُ غادِيًا والشمسُ شارقة كأنّ حوْذانَه فيه الدّنانيرُ

ولو أخذ مثلها النادم على بيع كُمَيْته، لأسكنَت البهْجةَ في خَلَده وبيته، ولم يأسَف أن عُوّض حمارًا من فَرَس، ولوُجِد على الشكوى ذا خَرَسٍ، ولم يقلْ:

ندِمتُ على بيع الكُميْت وإنما حياةُ الفتى همٌّ له وخَسارُ
ولمّا أتاني بالدنانير سائمي أصاخت وهشَّتْ للبياع نَوارُ
وقالت أَتِمَّ البيعَ واشْتَرِ غيرَه فَوَلَاكَ في المشتى بَنونَ صِغارُ
فأنفقتُ فيهم ما أخذتُ ولم يزلْ لديّ شرابٌ راهنٌ وقُتارُ
إلى أن تداعى الجندُ بالغزْو وانجلتْ غيومُ شِتاءٍ سُحْبُهنّ غِزارُ
وأعْوزني مُهْرٌ يكون مكانَه كأنْ ليس بين العالمينَ مِهارُ
وسار على الخيل المُغِذَّة صُحبتي وسرْتُ وتحتي للشقاء حِمارُ

ولله المِنّة كما نجّاها بالقدَر من بكورٍ، ليس مَن بكّرَه بالمشكور، يحِل معه دنانيرَ، ولا يصحَب من القوم صنانير، أي بُخَلاء، فيقيم بهم في الدَّسْكَرة أياما، أيقاظاً في السُّكر أو نِياما، فتُفْنِي الذَّهبَ أقداحٌ، كأنها جَزور المَيْسِر وهي القِداح. قال الجعديّ: ١،٢،٤٣

ودَسْكرةٍ صوتُ أبوابها كصوت المواتح في الحوْأَبِ
سبقتُ إليها صِياحَ الدّيوكِ وصوتَ نواقيسَ لم تُضْرَبِ

وقال آخر:

وقبضةٍ من دنانيرٍ غدوتُ بها للدّسكريّ وحوْلي فِتْيةٌ سُمُحُ
ولم يزل ثَمَّ يسقينا ويأخذها حتى استقلَّ بما في الصُّرّة القَدَحُ

ولوكان الشيخ أدرك مَن تقدّم من الملوك، لكان كلّ واحد منها كالذي قال فيه القائل:

وأصفرَ من ضَرْبِ دار الملوكِ يلوح على وجهه جعفرُ
يزيد على مائةٍ واحدًا إذا نالَه معشرٌ أيسروا

٢،٢،٤٣ ودنانيره، بإذن الله، مقدَّسات، ما هنَّ بالحَرَج ملدَّسات. والحزامة من سُوسه وشِيَمه، فلا يدفع إلى مُقارض شيئًا من عِيَمه، أي مختاراته، وفي الكتاب العزيز: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ وهذا قيل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقد كان في زمانه مَن يتحرج، يتضمخ بالنُّسك ويتأرّج، فأما اليومَ فلو أُمِنَ كتابيٌّ على نُمَيٍّ، لأسرعتْ إليه الظِّنَن إسراعَ رَمِيّ والرَّمي ههنا سحابٌ سريعُ الإقشاع، من قول الهُذَلي:

أولئك لو دعوتَ أتاكَ منهمْ رجالٌ مثل أرْمِيَة الحميمِ

وما عنيتُ بالكتابيّ مَن نُسب إلى توراةٍ وإنجيل، دون مَن نُسب إلى القرآن البجيل.

على أنه لا بدّ من أمانةٍ مفترقة في البلاد، تكون للخيّر من التلاد، وإنها في الآخرة لأشرفُ، وأرحضُ لما يُقترف، فليُشْفقْ على هذه الصُّبابة، إشفاقَ النَّدُس ذي اللَّبابة، فكل واحدٍ منها دينارُ أعِزةٍ، يبعَث الرّابي على الهِزّة، كما قال سُحيم:

تُريكَ غَداةَ البينِ كَفًّا ومِعْصَمًا ووجهًا كدينار الأعِزَّة صافيا

٣،٢،٤٣ ولو نظر إليه قيس بن الخطيم لما شبّه به وجه كَنوده، وجعله مِن أنصرِ جنوده، ولم يسمح أن يقول:

صرمتَ اليومَ حبلَك من كَنودا لتُبْدِلَ وصْلَها وصْلاً جديدا
عشيّةَ طالعتْ فأَرَتْك قَصراً مَحاسنَ فَخْمةً منها وجيدا
ووجهًا خِلْتَه لمّا بدا لي غداةَ البينِ دينارًا نقيدا

ولمثله قصد ربيعةُ بن المكدَّم، لمّا أيقن بحتفٍ مقدَّم، فقال:

شُدِّي عليَّ العصْبَ أُمَّ سَيّارْ فقد رُمزيتِ فارساً كالدينارْ

أو مَلَكَه مالكُ بن دينار مع زُهده، وبلوغِه في الوَرَع أقصى جهده، لجاز أن يحجأ به على دينارٍ أبيه، وقد يكذب قائلٌ في التشبيه.

وكلّ هِبْرِزيّ من هذه الصُّفر المبارَكة، أبلغُ في قضاء الحاجة من دينار الذي اختاره للمأرُبة قائلُ هذا البيت:

هل أنت باعثُ دينارٍ لحاجتنا أو عبدَ ربٍّ أخا عونِ بن مخراقِ

وهذا البيت يتداوله النحويّون، ورزعم بعض المتأخرين من أهل العلم أنه مصنوع، وما أجدرَه بذلك!

فأمّا قول الفرزدق: ٤٣،٢،٤

رأيتُ ابنَ دينارٍ يزيدَ رَمى به إلى الشام يومُ العَنْز واللهُ قاتلُهْ

لوكان دينارٌ هذا المذكورُ كأحد هذه الدّنانير، لأَرِبَ به أن يُنسَب إليه يزيد.

وأين هي من دنانير النَّخَّة التي قال في واحدها القائل:

عَمّي الذي منع الدينار ضاحيةً دينارَ نخّةِ جَرْمٍ وهْو مشهودُ

ودينار النَّخَّة دينار كان يأخذه المصدِّق إذا فرغ من الجباية.

وكل نقيشٍ من هذه الراجعة بعد اليأس، أنقعُ لغليل الصَّديان، من دينارٍ الذي دعاه لسقْيه راكبُ فَلاة، وهو على كُور عَلاة، فقال:

أقولُ لدينارٍ وهُنّ شوائلٌ بنا كنَعامٍ طالباتِ رئالِ
لكَ الويلُ أَدرِكْني بشربة آجنٍ من الماء ما مشروبُها بزُلالِ
فما كاد دينارٌ يُغيث بُطْفةٍ حُشاشةَ نفسٍ آذنتْ بزَوالِ

ولا هوكدينار الأخطل الذي ذكره في قوله: ٥،٢،٤٣

كمْتٌ ثلاثةَ أحوالٍ بطِينتها حتى اشتراها عِباديٌّ بدينارِ

لو وقع إلى عباديٍّ لما مَذِلَ به لحّار، ولو حُسب في الضِّمار.
ولا كالدّينار في البيت الذي أنشده أبو عمر الزاهد:

وفي الكتاب أَسْطُرٌ محكوكَةٌ لا حظَّ في الدينار للكاروكَةْ

زعم أن الكاروكة القوّادة.
والعجب لها تفرّ من بَنان السارق، فِرارَ دنانير الشّارق، وصفها أبو الطيّب فقال:

وألقى الشَّرْقُ منها في ثيابي دنانيرًا تفِرُّ من البَنانِ

لو رآها كُثيّر عَزّةَ لآلى أوكَدَ أَلِيّةٍ، أنها أحسنُ من الهِرَقْليّة، التي شبّه بمنفرِدها نفسَه فقال:

يروق عيونَ الناظرين كأنه هِرَقْليُّ وزنٍ أحمرُ التِّبْر راجحُ

وإن كانت زائدةً على الثمانين، فقد أوفتْ على عِدَّة أصحاب موسى الذين جاء فيهم: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ وعلى عِدّة الاستغفار المذكور في قوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، وعلى عِدّة أذرُع السّلسلة في قوله تعالى: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾. ١،٣،٤٣

ولوكان الإنسان في قليبٍ عُمقُه ثمانون قامةً لجاز أن تستنقذه هذه المصفَرّة من غير مَرَضٍ، والزائلةُ بما يعترض من الجَرَض، وإنما ذكرتُ ذلك لقول الأعشى:

ولوكنتَ في جُبٍّ ثمانين قامةً ورُقِّيتَ أسبابَ السماءِ بسُلَّمِ

ولوكانت سِنُو زُهيرٍ مثلَها لما وصف نفسَه بالسآمة، ولكانت له أنهضَ قامة، والقامةُ الأعوان، كأنها جمعُ قائم. قال الرّاجز:

وقاميتي ربيعةُ بن كعبٍ حسْبُك ما عندهمْ وحَسْبي

ولو أدركه عُروة بن حِزام وهو يقول:

يكلفّني عَمّي ثمانين ناقةً وما ليَ يا عفراءُ غيرُ ثمانِ

لجاز أن يرِقّ له فيُغيثَه من هذه الثمانين ببعضها أو يسمحَ له بكلّها، لأنه كريمُ طبعٍ، وعُودُه في النُّوَب عُودُ نَبْعٍ؛ ولو حارت في يد عُروةَ هذه الثمانون، لبلغ بها الأُمْنيّة لأنّ الناقة في ذلك الزمان كانت ربّما اشتُريتْ بعشرةِ دراهم.

وفي بعض أخبار الفرزدق أنّ رجلاً من ملوك بني أُميّةَ أعطاه مائة من إبل الصَّدَقة، فباعها بألفٍ وخمسمائة درهم، بعدما عُني به، وزِيدَ في الثمن. وقد مرّت به الحكايةُ التي يذكرها أصحابُ التاريخ، أن الجمل كان يباعُ في زمن أبي جعفر المنصور بدرهمٍ، وأنه صادَرَ قوماً من أصحابه، وكانت لهم نِعاجٌ، فباعوها ثمانِيَ نعاجٍ بدرهم. هذا ممّا وُجد بخطّ المرزُبانيّ في تاريخ ابن شَجَرة.

وهي أنصرُ من الثمانين التي ذكرها العَلَويّ البصري في قوله: ٢،٣،٤٣

عبرتُ إليهم في ثمانين فارساً فأدركتُ منهم بُغْيتي ومُرادِيا

ولولا خشيةُ الغُلوِّ لقلتُ: ومن ثمانين ألفاً ذكرها السِّنْبِسيُّ في قوله:

ثمانون ألفاً ولم أُحْصِهِمْ وقد بلغتْ رجْمَها أو تزيدُ

وكيف لهمَّام بن غالبٍ أن ترمِيَه الحوادثُ بهذه الثمانين، كما رمتْه بِسِنِيه في قوله:

رمتْني بالثمانين اللّيالي وسهْمُ الدهر أقتلُ سهمِ رامِ

ولو مَلكها راعي ثمانين الذي يقال فيه أحمقُ من راعي ضأنٍ ثمانين لجعلتْ له عَقلاً صافيا، وثوباً من الدَعَة ضافيا.

والمثل السّائر: وِجْدان الدَّعَة والرَّقين، يُذْهِب أَفَنَ الأفين، ويُروى: يُغطِي أَفَن الأفين. وليس للرِّقَة، شرفُ هذه الأشكال المُشْرِقة، وللذهبِ على الفِضّة صَرْفٌ، والمكارم لها عَرْف.

وهو يعرف حكاية الحُطيئة مع سعيد بن العاص لمّا قال له: أيُّ الناس أشعر؟ ٣،٣،٤٣
قال: الذي يقول، وهو أبو دُؤادٍ الإياديُّ:

لا أعُدُّ الإقتارَ عُدْماً ولكنْ فقْدُ مَن قد رُزِئتُه الإعدامُ

قال: ثمّ مَنْ؟ قال: الذي يقول، وهو حسّان بن ثابت:

رُبَّ عِلمٍ أضاعه عَدَمُ المالِ وجهلٍ غطّى عليه النعيمُ

قال: ثمّ من؟: قال: الذي يقول، وهو أعشى قيس:

بيضاءُ ضَحْوَتُها وصَفْـ ـراءُ العشِيّة كالعَرامرَهْ

قال: ثمّ من؟ قال: ثمّ حسْبُك بي إذا وضعتُ رِجْلاً على رجل، ثم عويْتُ في آثار القوافي، كما يعوي الفصيلُ في آثار الإبل.

وقال الشاعر:

وجدتُ بني الجَعْراء قومًا أذِلَّةً ومن لا يُهِنْهُمْ يُمْسِ وَغْدًا مهضَّما
وأحمقَ مِن راعي ثمانين ترتعي بجنْب السِّتار بقْلَ روضٍ موسَّما

وتلك الثمانون، أُلِقيَ فيها الرِّيعُ إلى أن يصير قيراطُها قنطارا، ولا فتئ كلُّها مِعطارا، ٤،٣،٤٣
أي هو قريب من عِطر، لا يُعدم في صِيامٍ ولا فِطر، أوفرُ حظًّا في المحمَدة من التي ذكرها الحَرّاني السُّلَمي، أبو المحلِّم عوْف بن المحلِّم في قوله:

إنّ الثمانين وبُلِّغْتَها قد أحوجتْ سمعي إلى تَرْجُمانْ
وبدَّلتني بالشَّطاط انْحنا وكنْتُ كالصَّعْدة تحتَ السِّنانْ

لأن التي ذكرها تُضعِف، وهذه تُعِش وتُسعِف، وتلك تجعل الرّجل بعد كونه كالقَناة، كأنه قَوس في أيدي الحُناة، وهذه تُقيم الأَوَد، وتُسَرّ الأَسْود. والبيت المنسوب إلى أبي العِتْريف معروف:

حَبَشِيٌّ له ثمانون عيناً كسبتْه مهابةً وجَلالا

ولعّله قد اجتاز في أرض الموصل، بالقرية التي تُعرف بثمانين وهي قريبة من الجبل المعروف بالجُوديّ، فإن كانت ثمانون القريةُ وَطَنَ أناسٍ، فهذه تجري مجرى الوطن في الإيناس، كما قال:

الفقرُ في أوطاننا غُربةٌ والمالُ في الغربة أوطانُ

٥،٣،٤٣ لله دَرُّ الذهب من خليلٍ، فإنه يفيء بظلّ ظليلٍ؛ وإن دُفن لم يبالِ، ما هو كغيره بالٍ؛ أُعطي نفيسَ المقدار، فما همّ شرفُه بانحدار؛ والدُّرّ إذا كُسر ذهبتْ قيمتُه، ولم يُحفَظ إن تنحطم كريمتُه، ورُبَّ ذهب في سِوار، غبر زمانًا غيرَ مُتوارٍ، ثمّ جُعل في خَلخال، تختال بلُبسه ذاتُ الخال، ثمّ نُقل إلى جامٍ أو كاسٍ، وهو بحُسنه كاسٍ، ما تغيَّر لبشار النيران، ولا غدر بوفيّ الجيران.

ولعّل هذه الثمانين، قد أدرك ذهبُها قارونَ، وموسى المرسَل وأخاه هارون، وليس للهلكة به اتّصالٌ، ولا من العِزّة له انفصال، يعظَّم في أرض السِّنْد، وبلاد الهند.

وأمّا ابنة الأخت، أدام الله لها الصيانة، فإنّها أدلّت على الخال إذ كان أحد الوالدَيْن، فهمَّت أن تأكل بيدين، وما هي بأختٍ للرجل الذي قال فيه القائل: ١،١،٤٤

ووراءَ الثأرِ منّي ابنُ أختٍ مَصِعٌ عقدتُه ما تُحَلُّ

ولا تجعلها أختاً للهجرس لأنه طالَب خالَه بِثار، فلم يقبحْ ما فعل من الآثار، ولكن تُشْبِه أن تكون أختاً لابن مضرّس حين فاتتْها الأُخُوّة من الهجرس، وهو المعروف بالخِنَّوْت واسمه توبةُ، وكان له أخ يقال له طارق فقتله رهطُ خالِه، فرأى أن يقتل خالَه، وقال:

بكتْ جَزَعًا أُميّ رُميلةُ أن رأت دمًا من أخيها في المهنَّد باديا
فقلتُ لها لا تجزَعي إنّ طارقًا حميمي الذي كان الخليلَ المصافيا
وما كنتُ لو أُعطيتُ ألفيْ نجيبةٍ وأولادَها لغْوًا تُساق ومراعيا
لأرْضَى بوترٍ منهمُ دون أن أرى دمًا من بني عوفٍ على السيف جاريا
وما كان في عوفٍ دمٌ لو أصبتُهُ لِيوفِيَني من طارقٍ غيرُ خاليا

وهو القائل:

لِتبكِ النساءُ المعْوِلاتُ لطارقٍ ويبكين مِرْداسًا قتيلَ قَنانِ
قتيلان لا تبكي المخاضُ عليهما إذا شبعتْ من قَرْمَلٍ وأَفانِ

ويجوز أن يكون قد وشّح إلى هذه المرأة شيءٌ من آداب الخُؤولة، فليتّقِ مَعَرّةَ بيانها، أكثرَ من اتقائه خُلسةَ بَنانها. فهو يعلم أنّ الشعر ورِثه زُهيرُ بن أبي سُلْمى من خاله بَشامةَ ابن الغدير ولم يكن في مُزَيْنةَ شِعرٌ يُذْكَر، وحضره زُهيرٌ عند الوفاة فأراد أن يعطيه شيئًا من ماله، فقال بشامة: أما يكفيك أني ورّثتُك غرائبَ القصيد؟ وربّما كان في نساء حلب، حرسها الله، شواعرُ، فلا يأمَن أن تكون هذه منهنّ. ٢،١،٤٤

١،٢،٤٤ فطالما كنّ أجْودَ غرائزَ من رجالهنّ، وحدّث رجل ضرير من أهل آمِدَ يحفظ القرآن، ويأنَس بأشياء من العلم، أنه كان وهو شابّ له امرأةٌ مقِنّةٌ تُزيّن النساءَ في الأعراس، وكان ينجّم على الطريق وكانت له قُرّعة فيها أشعار كنحو ما يكون في القُرَع، وكان يعتمد حِفظَ تلك الأشعار ويدرُسها في بيته، ولا غريزةَ له في معرفة الأوزان، فيكسِر البيتَ. فتقول له امرأته الماشطة: ويلي! ما هذا جيّد! فيُلاجّها ويزعم أنها مُخطئة. فإذا أصبح مضى فسأل من يعرف ذلك، فأخبره أنّ الصواب معها، وعرّفه كيف يجب أن يكون، فإذا لقِنَه عنه، عاد في الليلة الثانية، فذكره وقد أُصلِحَ، فتقول الماشطة: هذا الساعة جيّد.

٢،٢،٤٤ وكان لي كِريٌّ من أهل البادية يُعرَف بعلّوانَ وله امرأة تزعم أنها من طَيّء، فكان لا يعرف موزونَ الأبيات من غيره، وكانت المرأة تُحسّ بذلك. وكانت تتأسف على طفلٍ مات لها يقال له رَجَب، وكانت تُنشد هذا البيت:

إذا كنتَ من جَرّا حبيبك مُوجَعاً فلا بدَّ يوماً من فِراق حبيبِ

فقالت يوماً:

إذا كنتَ من جرّا رُجَيْبٍ موجَعاً

فعلِمتْ أنّ الوزن مختلّ، فقالت:

إذا كنت من جرّا رُجَيْبِنَ موجَعاً

فحرّكت التنوينَ وأنكرتْ تحريكه بالطبع. فقالت:

إذا كنتَ من جرّا رُجيْبِك موجَعاً

فأضافته إلى الكاف فاستقام الوزنُ واللفظ.

وفي الكتاب العزيز ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ، وَإِنْ تَعْفُوا وتَصْفَحُوا وتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٣،٤٤ وأمّا أبو بكر الشِبْلِيّ، رحمه الله، فلا ريْب أنه من أهل الفضل، وأرجو أن يكون سالمًا من مذهب الحُلوليّة.

وأنشدني له مُنشد:

باح مجنونُ عامرٍ بهَواهُ وكتمتُ الهوى ففُزتُ بوجْدي
وإذا كان في القيامة نُودِي أينَ أهلُ الهوى؟ تقدّمتُ وحْدي

هكذا أُنشدتُه: نُودِي بسكون الياء، ولا أُحبّ ذلك وإن كان جائزًا، وإنّما يوجَد في أشعار الضَّعَفة من المحْدَثين.

فإن صحّ أن هذين البيتين له، فلا يمتنع أن يعترض عليه قائل فيقول: من زعم أنه صافٍ، فما يجب أن يأتي بغير الإنصاف، وادّعاؤه الانفرادَ من العالَم لا يسلّمه إليه البَشَرُ، إن كان هواه للمخلوقين، أو الخالِق ولا يقينَ، فله في الأُمم نُظَراء كثير.

٤٥ وأنا أعتذر إلى مولاي الشيخ الجليل من تأخير الإجابة، فإن عوائق الزمن منعتْ من إملاء السوداء، كأنها سوداءُ التي عناها القائل:

نُبِّئْتُ سوداءَ تنآني وأتبعُها لقد تَباعدَ شَكْلانا وما اقتربا
وجدتُها في شبابي غير مُطْلِبةٍ فكيف والرأس جَوْنٌ تُسعِف الطلَبا

وأنا مستطيعٌ بغيري، فإذا غاب الكاتبُ فلا إملاء. ولا يُنكر الإطالةَ عليّ، فإنّ الخالص من النُّضار العَين، طالما اشتُري بأضعافه في الرِّتة من اللُّجَين، فكيف إذا كان الثمن من النُّمَيّات يوجَدن في الطريق مَرْميّات؟ وعلى حضرته الجليلة سلامٌ يتبع قُرومَه إفالُه، وتلحق بعُوذِه أطفالُه.

(نجزت الرسالةُ والحمد لله ربّ العالمين وحسبُنا الله ونعم الوكيل وصلّى الله على سيّدنا محمد النبيّ وآله الطيّبين الطاهرين وسلّم)

***

Library of Arabic Literature
Editorial Board

General Editor
Philip F. Kennedy, New York University

Executive Editors
James E. Montgomery, University of Cambridge
Shawkat M. Toorawa, Yale University

Editors
Sean Anthony, The Ohio State University
Julia Bray, University of Oxford
Michael Cooperson, University of California, Los Angeles
Joseph E. Lowry, University of Pennsylvania
Maurice Pomerantz, New York University Abu Dhabi
Tahera Qutbuddin, University of Chicago
Devin J. Stewart, Emory University

Editorial Director
Chip Rossetti

Digital Production Manager
Stuart Brown

Associate Managing Editor
Gemma Juan-Simó

Fellowship Program Coordinator
Amani Al-Zoubi

NEW YORK UNIVERSITY PRESS
New York

Copyright © 2013, 2014 by New York University
All rights reserved

Originally published in two volumes

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data

Abū al-ʻAlāʼ al-Maʻarrī, 973-1057.
The epistle of forgiveness or, A pardon to enter the garden / by Abū l-ʻAlāʼ al-Maʻarrī ; edited and translated by Geert Jan van Gelder and Gregor Schoeler.
volumes cm
Bilingual English and Arabic edition.
Includes bibliographical references and indexes.
ISBN 978-0-8147-6378-0 (cl : alk. paper) -- ISBN 978-0-8147-6899-0 (e-book) -- ISBN 978-0-8147-7197-6 (e-book) -- ISBN 978-0-8147-7194-5 (cl : v. 2) -- ISBN 978-0-8147-6896-9 (e-book : v. 2) -- ISBN 978-0-8147-6970-6 (e-book : v. 2)
I. Gelder, G. J. H. van, translator editor. II. Schoeler, Gregor, translator editor. III. Abū al-ʻAlāʼ al-Maʻarrī, 973-1057. Risālat al-ghufrān. IV. Abū al-ʻAlāʼ al-Maʻarrī, 973-1057. Risālat al-ghufrān. English. V. Ibn al-Qāriḥ, ʻAlī ibn Manṣūr, b. 962. Risālat Ibn al-Qāriḥ. VI. Ibn al-Qāriḥ, ʻAlī ibn Manṣūr, b. 962. Risālat Ibn al-Qāriḥ. English. VII. Title. VIII. Title: Pardon to enter the garden.
PJ7750.A25R513 2013
892.7'134--dc23
2013007519

Series design by Titus Nemeth.

Typeset in Tasmeem, using DecoType Naskh and Emiri.

Typesetting and digitization by Stuart Brown.